المراسلون العظماء

ديفيد راندال

نقله إلى العربية

ثائر ديب

العبيكان
Obeikan

obeikandl.com

Original Title

The Great Reporters

David Randall

Copyright © David Randall 2005

ISBN-13: 978-0745322964

ISBN-10: 0745322964

All rights reserved. Authorized translation from the English language edition

Published by arrangement with Pluto Press. 345 Archway Road. London N6 5AA. London (U.K.)

حقوق الطبعة العربية محفوظة للعبيكان بالتعاقد مع بلوتو بريس. لندن. المملكة المتحدة.

© العبيكان 2008 ـ 1429

ISBN: 978 - 603 - 503 - 155 - 4

الطبعة العربية الأولى 1432هـ ـ 2011م

الناشر العبيكان للنشر

المملكة العربية السعودية - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة - عمارة الموسى للمكاتب

هاتف: 2937574/2937581، فاكس: 2937588 ص.ب: 67622 الرياض 11517

ح مكتبة العبيكان، 1431هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

راندال، ديفيد

المراسلون العظماء./ ديفيد راندال؛ ثائر ديب.- الرياض 1432هـ

271ص؛ 16.5× 24سم

ردمك: 4 - 155 - 503 - 603 - 978

1 - المراسلون الصحفيون أ. ديب، ثائر (مترجم) ب. العنوان

ديوي: 920.5 رقم الإيداع: 4574 / 1432

ردمك: 4 - 155 - 503 - 603 - 978 رقم الإيداع: 4574 / 1432

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان

المملكة العربية السعودية - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

هاتف: 4160018 /4654424 - فاكس: 4650129 ص. ب: 62807 الرياض 11595

جميع الحقوق محفوظة للناشر. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر

المحتويات

تصدير 9

كيف اختير المراسلون العظماء

عالم المراسل 13

كيف، ومتى، وأين تغيرت المهنة في أثناء مئة وخمسين عاماً؟

1- ويليام هوارد رَسِل 25

الرجل الذي اخترع المراسلة الحربية

2- إدنا بوكانان 41

أفضل مراسلة مختصّة بالجرائم

3- أ. ج. لايبلنغ 61

الظريف المشهود له وفقاً لمعايير الكتابة

4- جورج سلدز 79

مراسلٌ أثار حنق المسؤولين والعتاة

5- نيلي بلاي 101

أفضل مراسلة متخفية في التاريخ

6- ريشارد هاردنغ ديفيز 123

أحد أهم المراسلين الوصفيين

7- جي. أ. ماك غاهان 141

ربما كان صاحب أعظم تقرير إخباري

8- جيمس كاميرون 149

المتلّق المختص بالشؤون الخارجية

obeikandl.com

9- فلويد غيبونز 167
المثال الأعلى عن المراسل الساعي في مهمة

10- هيو مكلفاني 187
أفضل كاتب استعمل الكلمات في الصحافة

11- إيرني بايل 209
المراسل الذي لم ينس قط الناسَ الذين كتب لأجلهم

12- آن لزلي 231
المراسلة الأكثر تنوعاً وغنىً في الموضوعات

13- ماير برغر 255
شيخ المراسلين

obeikandl.com

الإهداء

إلى جميع الوسطاء والسائقين والمترجمين، الذين لا
يتغنّى بهم أحد، وغالباً ما يواجهون الخطر، ويساعدون
المراسلين على إخراج الخبر.

obeikandl.com

obeikandl.com

تصدير

كيف اختير المراسلون العظماء؟

كيف يمكنك أن تختار أفضل من عاش من المراسلين؟ حسنٌ، ليس الأمر بتلك الصعوبة، كما تدلّ تجربتي. فالمفتاح، كما أظن، هو اختيار عدد قليل. وهذا ما يرفع المقياس إلى مستوى عالٍ جداً. أمّا اختيار أعظم أربعين مراسلاً فمسألة مختلفة: تكفي صرخة واحدة ليحضر مراسلون جيدون جداً من جميع الفئات. وماذا عن دستة واحدة أو ما شابه؟ هذا أعسر يسيراً نسبياً. ولماذا ثلاثة عشر؟ لأن ذلك هو عدد من أحسبُ أنهم يحتلون المرتبة الأهمّ بين الركائز الصحفية.

أوّل ما فعلته كان أن أقيّد نفسي لمراسلي الصحافة. فمراسلة الإذاعة والتلفاز تستند إلى مجهود فريق؛ تستند إلى الصوت والصورة أكثر مما تستند إلى كلام المراسل- ثم إنها تحتاج في الغالب، لأجل معناها وكمالها، إلى تصديرٍ من مقدّم أو مذيع أخبار. لقد استبعد الاعتمادُ على عمل الفريق وود وورد وبرنستين اللذين غطيا فضيحة ووترغيت. (واستبعد محرريهما اللذين يحظيان بأهمية تماثل أهميتهما، بن برادلي وهوارد سايمنز). وخرج أيضاً أولئك الذين وضعوا مراسلتهم على صورة كتب، فكان لديهم الوقت الطويل، ومواعيد أخيرة تمتد أسابيع، إن لم يكن أشهراً، وبالإضافة إلى ذلك، كيف نقارن عملاً كُتب في عامين مع عمل ظهر في خمس وأربعين دقيقة؟ واستُبعد، أيضاً، كتّاب الأعمدة الصحفية أو المعلقين المتنقلين. وعنى ذلك استبعاد إتش. ل. مِنكن، ذلك الاستبعاد الذي شعرتُ أنه سيبدو غريباً إلى أن راجعت أعظم مقالاته التي يمكن أن نعدّها، بشيء من التوسّع، مراسلةً، ووجدت أنها قليلة على نحو يثير الدهشة.

وبعد أن وضعت هذه الحدود، اخترت المراسلين بالطريقة الوحيدة التي تيسرت لي، بصفتي شخصاً عمل على تحرير أخبار ثلاث صحف قومية بريطانية: تخيّلت أني أدير غرفة أخبار سماوية، وأنّ عليّ أن أنتقي مجموعتي من بين جميع من عاش من المراسلين. وفي

نصف ساعة نزل على لائحتي معظم هؤلاء الذين وردت هنا لمحات عن حياتهم، والمراسل الوحيد الذي كنتُ أجهله حتى ذلك الحين و«اكتشفته» في أثناء بحثي كان ماير مايك برغر من صحيفة النيويورك تايمز.

أما أولئك الذين اقتربوا من لائحتي دون أن ينجحوا في أن يكونوا عليها فهم: آي- ف- ستون (إذ فضلت أن يكون جورج سِلدز عضواً في الفرقة الخرقاء)، لينكولن ستيفانز، مارغريت هيغنز (مقتنصة أخبار عظيمة، بيد أنها عار فيما يتعلق بالكتابة)، آيدا ويس- بارنيت (كان فضحها لعمليات الإعدام من غير محاكمة تاريخياً، بيد أنها لم تمضِ سوى قسط ضئيل جداً من حياتها بوصفها مراسلة)، غلوريا إمرسون من النيويورك تايمز، وينيفرد بونيفيلز، مارفل كوك، غي تالسي، جون بيغلر من الديلي ميرور، روبرت فيسك من الإندبندنت. حظاً أوفر في المرة القادمة...

أخيراً، سيلفت بعضهم النظر إلى أنه ليس ثمة ممثلين للأقليات هنا. وتفسير ذلك بسيط: إن أحداً في هذا الكتاب لا يمثل سوى موهبته وعمله. فجنسيتهم ومظهرهم الجسدي وجنسهم وماضيهم الثقافي، كلها لم تلعب أي دور في اختيارهم. وبينما بمقدوري أن أدافع عن هذا دفاعاً قاطعاً، أقلقتني حقيقة أن الوجوه في هذا الكتاب هي جميعها وجوه بيضاء. لذا بحثت بجديّة في السجل الصحفي عن استثناء أضمه. وكنت على وشك ضمّ مارفل كوك على حساب صحفي آخر كان بحثه وكتابته، في رأيي، أفضل بما لا يقاس، وأدركت أن هذا كان محسوبية وخطأ؛ لذا أحجمت. وإن كان بمقدور أي شخص أن يقترح مراسلاً غير قوقازي يكون عمله في حياته معادلاً أعمال هؤلاء، فسأكون مسروراً بسماعي عنه، وسأضمّه في أي نسخة قادمة.

وإذ اخترت عظمائي، تعيّن عليّ أن أضعهم بترتيب ما. فكيف يجدر بهذا الترتيب أن يكون - أبجدياً؟ ممل جداً. -زمنياً؟ الأمر ذاته. لذا قررت أن أرتبهم بحسب درجة الأفضلية التي أراها، وهذا ما أحسستُ أنّ فيه شيئاً من الضرر، لكنني أملتُ في الوقت ذاته أن تثير خياراتي، وترتيبي، بعض النقاش، لا بشأن الأسماء فحسب، بل أيضاً بشأن معايير العظمة في المراسلة الصحفية. فما كنت أبحث عنه في المراسلين الذين ضممتهم كان: فضول البحث

الذي يدفع -على الورق والشاشة ولدى الشخص- إلى أعظم عمق وتفصيل في الوقت المتاح؛ والتصميم على تخطّي جميع العقبات التي تعوق السعي وراء الخبر (أو الفطنة والمراوغة للتملّص منها)؛ والذكاء الحادّ الذي يُسلَّط على المادة (فعدم التفكير فيما يضيفه الخبر بالفعل لا يزال أعظم هنة في المراسل العادي)؛ والإحساس بالمنظور والسياق، وكيف أن ما كُشِف قد لا يكون القصة كلها؛ والأسلوب الجديد والإبداعيّ في التعامل مع الكلمات (فلا داعي، إذاً، ليتقدم بطلباتهم أصحابُ العبارات الجاهزة المكررة). إن اجتماع هذه المواهب نادرٌ في العمل الصحفي (وإن لم يكن بالندرة التي يظنهابعض النقاد)، وامتلاكها جميعاً بدرجة عالية، هو ما فصل الحَبَّ الذي انتقيته عن الزؤان.

وهذا ما يصل بي، أخيراً، إلى الأسباب التي دفعتني إلى كتابة هذا الكتاب. أولاً، لقد أردت، سنين طوالاً، أن أوجه تحية في مطبوع إلى سلالة مراسلين، أرى أنهم يمثلون الشريحة الأكثر نفعاً في العمل الصحفي. فلولا المراسلون، لما فعلت الصحف (والمجتمع) سوى التخمين والتعليق واقتيات الشائعات. المراسلون هم الصيّادون-الجامعون، الذين يبحثون خارجاً عن معلومات طازجة، في حين يكتفي بقيتنا بالتحلق حول نار المخيم يلوكون دسم الأسبوع الفائت إلى حين عودتهم. ثانياً، أملتُ أن كتاباً يحاول أن يشير بالبنان إلى عظماء المراسلين قد يوفّر لبقية المراسلين مجموعة من النماذج التي تُحتذى، أو يوفر، على الأقل، إحساساً بأن هذه النماذج قد تكون موجودة في مكان ما أبعد من مكاتبهم الخاصة؛ أو حتى خارج زمنهم الخاص. ولقد رأيتُ، ثالثاً، أن الأشخاص الذين ضممتهم هنا ليسوا، في نظر الأجيال الجديدة من المراسلين، مجرد نقاط علام يعجبون بها ويتعلمون منها، بل، كما في الرياضة، حاملو أرقام قياسية سابقون لا بدّ من مجاراتهم، بل التفوق عليهم. وفي النهاية، فإنّ ما من عصر يحتاج المراسلين المبرّزين أكثر من عصرنا الراهن. ولأجل المستقبل، فإنّ المراسلين، كما يقال، هم من يضع أول مسوّدة تمهيدية للتاريخ، أما فيما يخص الآن وهنا، فإنهم يوفرون ما هو أكثر قيمة من ذلك: المادة الخام التي نحكم عبرها على عالمنا وعلى أولئك الذين يسعون فيه وراء السلطة. إنّ دفاعنا الأفضل في مواجهة الديماغوجيين والدجالين ومحرّضي الغوغاء والدّهاة المُلس والأكاذيب جميعها وأنصاف الحقائق التي يروّجون لها هو المراسلون، والعظماء منهم على وجه الخصوص.

obeikandl.com

عالم المراسل

كيف، ومتى، وأين تغيّرت المهنة في أثناء مئة وخمسين عاماً؟

يزعم كل جيل من الصحفيين، أقلّه حتى يدبّ الوهن في عضلاته، أنه جيل فريد في اضطراره إلى مواجهة تحدّيات لم تعرفها الأجيال السابقة. والتاريخ، لدى أناس اعتادوا النظر إلى يوم أمس الأول بوصفه لحماً فاسداً وإلى الأسبوع المقبل بوصفه تخطيطاً طويل المدى، لا يُرى عموماً أنّه يقدّم كثيراً من الإرشاد والتثقيف. ولذلك يُنظَر إلى مراسلي الأمس، خاصة أولئك الذين مضى عليهم أكثر من خمسين عاماً، على أنهم أولئك الأشخاص الثرثارون الذين حظوا بالأمر على طبق من ذهب، فلم يُضطروا، كما اضطررنا نحن المعاصرين، إلى أن يكابدوا منافسة وسائل الإعلام الكثيرة الأخرى، والحيل المتقنة التي تحوكها مصادر الأخبار، والتكنولوجيات التي يتزايد تعقيدها، وما تشهده الحياة الحديثة من ضروب انعدام اليقين.

يا لهذا السخف، يا لهذا الابتذال، الذي أراه في أحاديث لا تُحصى كل عام، والذي يقف خلف هذا الجهد البسيط لتبيان كيف تغير عالم المراسل في المدة التي يغطيها هذا الكتاب. ولعله يوفّر، على الأقل، بضع معالم تتعلق بالتسلسل الزمني ويدفع من هم أقلّ ثقافة من الناحية التاريخية إلى أن يدركوا، على سبيل المثال، لماذا لم يرفع المراسلون الذين غطوا الحرب الأهلية الأمريكية سماعة الهاتف ويتّصلوا بمكاتبهم ويرسلوا مادة للنشر (لكي تعرف السبب، انظر تاريخ اختراع الهاتف).

المراسل الأوّل في هذا الكتاب، بحسب التسلسل التاريخي، وليام رسل من التايمز. الذي تقوم شهرته على عمله بوصفه مراسلاً في حرب القرم عامي 1854 و1855. عاش رسل في عالم كان قد عرف الكتابة بالاختزال والآلة الكاتبة، وكذلك البرقيات (فالمرة الأولى التي استُخدمت فيها الرسالة بالتلغراف بوصفها أساساً لخبر صحفي كانت في عام 1844، من قبل

صحيفة التايمز اللندنية). بيد أن التلغراف كان باهظ الكلفة، ولم يكن اتساع شبكة أسلاكه يكفي لاستخدامه في المراسَلة من بلد إلى آخر في خمسينيات القرن التاسع عشر. لذا، كان رسل يكتب أخباره بخطّ يده (بقلم الرصاص، العملي في الجبهة أكثر بما لا يقاس من قلم الحبر الذي يستلزم حبراً)، ويبعث بها إلى الصحيفة على شكل رسالة. ومن هنا جاءت تسمية «المراسل». أما سمات المشهد المهني الأخرى عند رسل فقد كانت: انعدام المنافسين (فمنافسه الدائم الوحيد كان البلاغات الرسمية المقتضبة)؛ وغياب وكالات الأنباء (فالأسوشيتد برس، التي تأسّست عام 1848، لم تكن آنذاك تعمل في المراسلة الأجنبية، وكانت رويترز، التي تأسّست عام 1851، مجرّد وكالة أنباء غرّة)؛ والحرية الواسعة فيما يخصّ طولَ أخباره (حيث كان يكتب ما شاء فتطبعه الصحيفة، دون أن تنشره دفعة واحدة بالضرورة، ودون أن تنشره بالترتيب الذي كتبه فيه)؛ وغياب وسائل التوثق من وصول الرسالة أم لا؛ وغياب الوسائل لدى الصحف لنشر الصور (ما يفسّر النثر المنمّق لبعض المراسلين الفكتوريين)؛ وانعدام أي توجيه له من الجيش (وهذا أمرٌ جيد وسيئ في آنٍ معاً، حيث لم يكن ثمة قيود على الأمكنة التي قصدها؛ وسيئٌ في أنه لم يتلقّ بالفعل أي توجيه أو معلومات رسمية).

وبعد عشر سنوات من انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية، كان عدد الصحف قد تزايد حتى بلغ عدد المراسلين الذين غطوا ذلك الصراع أكثر من مئة وخمسين، وكانت الأسوشيتد برس قد أُسِّست (ففي عام 1861، على سبيل المثال، أوقفت الحكومة توزيع بياناتها عبر الصحف القليلة التابعة لها، وشرعت في إصدارها عبر الأسوشيتد برس لجميع المشتركين). وقد ثبت أن تأثير وكالات الأنباء على أسلوب المراسلة كان عظيماً. ولأن هذه الوكالات كانت تبيع لصحفٍ ذات مواقف سياسية متباينة تبايناً واسعاً، فقد تعيّن أن تكون أخبارها خالية قدر الإمكان من المحاباة الصريحة. وكما قال بصراحة كبير مراسلي الأسوشيتد برس في واشنطن لورنس كوبرايت للكونغرس عام 1862:

> عملي هو إيصال الحقائق. والتعليمات التي بين يديّ لا تسمح لي بأي تعليق على الحقائق التي أقوم بإيصالها... لا أعمل بوصفي سياسياً ينتمي إلى مدرسة معينة بل أحاول أن أكون صادقاً وحيادياً. ورسائلي الإخبارية هي في الحقيقة مجرّد حقائق وتفاصيل جافة.

من حسن الطالع، إذاً، أن من كان حاضراً في غيتسبرغ؛ كي يدوّن خطاب لينكولن ذا الدقائق الثلاث هو جوزيف ل.غيلبرت، أحد مراسلي الأسوشيتيد برس المبرّزين، لا عابر سبيل مولع بالجدل والمناظرة.

بمعزلٍ عن تقارير الوكالة، كانت أساليب الكتابة لا تزال مسهبة عموماً، وقد استغرقت الأخبار على الطريقة التي باتت كلاسيكية لدينا («مقتل ما يزيد على خمسين شخصاً في تحطم...» إلخ) عقوداً عدة؛ كي تغدو القاعدة. كان هذا، من جهة أولى، سمة من سمات الجمهور (فبوصفه جمهوراً مرفّهاً ومثقفاً وليس لديه مصدر آخر للأخبار، لم يكن أمامه أي خيار سوى الخوض في النص الكثيف لمعرفة ما كان يجري)؛ ومن جهة ثانية، كان الأمر مسألة طراز سائد؛ ثم إنه، من جهة ثالثة، نتيجة محتومة لدفع أجور المراسلين بالسطر. انظروا إلى هذا المقطع من النيويورك تايمز في عام 1860:

بريستول، إنكلترا، 17 كانون الأول، 1860 - درجة غير معهودة من الهيجان سبّبها إنذار حريق هنا صباحاً؛ ولم تخفّ حدّة الهلع عندما عُلِم أن الحريق الهائل اندلع على السفن في الميناء. والسفينة التي اندلعت النار على متنها، ونجم عن ذلك دمارها، كانت سفينة أمريكية متقنة الصنع، تملكها شركة نيويوركية، بحمولة 1400 أو 1500 طن، وكان قيدومها باتجاه البحر.

انظروا كيف يمكن اليوم أن ننقل هذه الوقائع ذاتها: «تأتي النار أمس على سفينة تملكها شركة نيويوركية وهي ترسو في ميناء بريستول». أما آنذاك، فكان يُدفع بنس للسطر الواحد، ولذا لم يكن الإيجاز من خصائص المراسلين.

كان للشكل أيضاً (ولا يزال) تأثيرٌ في أسلوب الكتابة، ومن الأشياء التي كانت تحدّ من الإسهاب تلك العناوين المتعددة الأسطر التي كانت تتربع أعلى الأخبار الرئيسة. فعلى سبيل المثال، قد يبدو مضحكاً أن يستهل غوبرايت عرضه لحادثة إطلاق النار على لينكولن على هذا النحو:

ار الرئيس لينكولن وحَرَمهُ، برفقة أصدقاء آخرين، مسرح فورد هذا المساء لمشاهدة عرض «ابن العمّ الأمريكي».

أما في صحف تلك الأيام، فلم تكن هذه الكلمات لتأتي إلا بعد أن يكون كاتب العنوان العريض قد استنفد النقاط الرئيسة للخبر في سطر تلو آخر من العناوين العريضة البيغة (ذُعرٌ في المسرح -قاتل مأجور يطلق النار على الرئيس- وقوع إصابات قاتلة...،إلخ). فعلى سبيل المثال، حملت صحيفة فيلادلفيا إنكويرر عنواناً عريضاً من ثمانية عشر سطراً عن خبر اغتيال لينكولن، ولم يكن للقارئ أن يصل إلى مقال المراسل إلا بعد أن يكون قد تشرّب هذا التقديم القوي؛ ليبدو الخبر الرئيس بعد ذلك مكرراً على نحوٍ واضح.

والسمة العظيمة الأخرى من سمات المراسلة الفيكتورية كانت سهولة الحصول على المعلومات، واستمرت في بعض المجالات (كالجريمة والرياضة) حتى العقود الأخيرة من القرن العشرين. فقد كان كوبرايت، على سبيل المثال، في المقصورة الرئاسية في مسرح فورد بعد أقل من ساعة على إطلاق النار على لينكولن، يتفحّص مسرح الجريمة بنفسه (ويدوّن ملحوظاته عن مِزقٍ في إحدى الرايات سبّبها القاتل جون ويلكز بوث عندما قفز من الشرفة)؛ وفي عام 1881، استطاع مراسل ناشيونال أسوشيتيد برس فرانكلين هاثاوي تروزدل أن يجعل تقريره عن الرئيس المحتضر جايمس غارفيلد ذلك التقرير الحيّ، حيث تسلل إلى داخل حجرة التمريض في البيت الأبيض، مصيخاً السمع إلى تنفّس الرئيس، ومن ثمّ مُدوّناً ملحوظاته على ورقة مروّسة بـ البيت الأبيض. ومن غير المستغرب أن تكون المراسلة الحربية أول مجالٍ يشهد قيوداً (فقد وضع الجيش البريطاني قوانينه فيما يخص المراسلين على نحو رئيس رد على نشاطات رَسل الطليقة)؛ وظلّ الضباط القادة يعاملون المراسلين النبلاء، أمثال ريتشارد هاردنغ ديفيز، بوصفهم أصدقاء حميمين موثوقي الجانب حتى السنوات الأولى من القرن العشرين. بيد أن الحرب العالمية الأولى وضعت حداً لذلك كلّه - ودّياً.

كانت الصياغة الرسمية التدريجية للعلاقة بين المراسلين والمجتمع الحكومي استجابة لأمرين؛ الأوّل: كان إضفاء طابع الاحتراف على الصحافة وهي تنزل السوق الجماهيري والثاني -الذي حرضته أهمية الإعلام في الأنظمة الديمقراطية-: كان الحاجة، التي أدركتها الشركات الكبيرة وطبقة الموظفين الرسميين، إلى فرض نوع من السيطرة.

سار إضفاء الطابع المهني جنباً إلى جنب مع التكنولوجيا. فقد شهدت الخمسون عاماً التي سبقت الحرب العالمية الأولى: انتشار الآلات الكاتبة (ظهرت لوحة مفاتيح كويتري عام

1873؛ وبعد ثلاثة أعوام كانت رواية مارك توين «مغامرات توم سوير» أوّل رواية تُطبع على آلة كاتبة)؛ وظهور أوّل آلة كاتبة محمولة (1892)؛ وانتشار الهاتف (بلغ عدد الهواتف التي في قيد الاستخدام 50,000 بحلول عام 1880، وبعدها بأربعة أعوام ظهرت المكالمات البعيدة المدى، فالـ نيويورك تايمز لم تكن تملك سوى هاتفين فقط حتى عام 1901)؛ وتحسين خدمات الوكالة (حيث أطلقت الأسوشيتيد برس أول فلاش يخصها -وهو رسالة كبلية قصيرة قدر الإمكان (برقية) للإشارة إلى الأخبار المهمّة العاجلة- عام 1906)؛ وبدء تسرّب النساء تدريجياً إلى مجال المراسلة (وظّفت الـ واشنطن بوست كاليستا هالسي، وكانت أول امرأة مراسلة عام 1878)؛ والتحسينات العصرية في الطباعة والعمليات الفوتوغرافية، وهذا عنى توافر صحف على نطاق واسع مزوّدة بالصور والرسوم الإيضاحية؛ وانتشار السكك الحديدية، وفي أمريكا، انتشار خدمة التوصيل المجاني إلى المناطق النائية، الأمر الذي سهّل الوصول إلى أعداد متزايدة من القرّاء بسرعة وبسعر زهيد.

شهدت المدة بين عامي 1890 - 1920 تأسيس ثلاثة أوجه مسيطرة في عمل المراسل: مُحرّر الأخبار (أو كما يُسمى في الولايات المتحدة، محرّر الأخبار المحلية)؛ أسلوب الهرم المقلوب في كتابة الأخبار، وأحد منتجاته الثانوية؛ افتتاحية الهرم الإخباري (أو كما في المملكة المتحدة، التصدير)، الذي حشد النقاط الرئيسة في الفقرة الأولى بطريقة من شأنها، كما قال باول أونيل، أن «تمسك بالقارئ من حنجرته». وخلف هذا جميعه كانت تكمن مجموعة الأسئلة العظيمة الخاصة بالعقيدة الصحافية التي انطوت عليها المراسلة (مَنْ؟ ماذا؟ أين؟ متى؟ كيف؟)، التي كان أول استخدام مسجّل لها في شيكاغو عام 1892، بيد أنها لا تزال مطبوعة في أذهان الصحفيين المتدربين اليوم. وكما أكّد تشارلز تشابن، محرّر الأخبار المحلية في صحيفة نيويورك وورلد على مدى عشرين عاماً ابتداءً من عام 1898، فإن المراسلة احتاجت ثلاثين عاماً لتغدو حديثة على نحو مميز وتتصدّر العوامل ذات التأثير البارز في تاريخ الصحافة كلّه. قلّما اعترفت مدوّنات الصحافة بقوة محرّري الأخبار وتأثيرهم؛ لأن تلك الكتب كتبها عموماً أناسٌ لم يعملوا قط في غرفة أخبار. بيد أن حياة المراسلين تحكمها نوعية وبأسٌ «مَنَعَة» محرري الأخبار خاصتهم، ولا أحد ينمّط محرري الأخبار المتحجّري القلب

في الواقع والخيال أكثر من تشابن. فقد أدار غرفة أخبار الـ وورلد بعقلية ملك من القرون الوسطى ذي سلطة مطلقة ؛ فأوقع الرعب في قلوب المراسلين على مدار الساعة؛ وطردهم لأدنى انتهاك (بلغ مجموع المطرودين 108، بحسب ما تفاخر هو به، وكان من بينهم ابن مالك الصحيفة التي يعمل فيها)؛ وانغمس في التراجيديا انغماساً إيجابياً (فبينما كان مساعدوه يجمّعون تفاصيل قصة غرق 1021 شخصاً كانوا على متن سفينة ترفيهية تدعى جنرال سلوكيوم، بكى كثير منهم وتقيأ بعضهم الآخر وهم يدوّنون التفاصيل عن أولاد قُذِفوا بقوة إلى عجلات التجديف في السفينة. لكن ليس تشابن من يفعل ذلك: فقد أخذ يخوض غرفة الأخبار راقصاً، وهو يغمغم مسروراً لضخامة هذا الخبر، ويتوقف من وقت إلى آخر ليقرأ بصوتٍ عالٍ الرسائل الإخبارية الأشدّ بشاعة).

بيد أنّ هذا الوحش عرف عمله أفضل مما عرفه معظمهم. فقد كان أوّل محرّر يقدّر إمكانية استخدام الهاتف في المراسلة حق قدرها، وقد نشَرَ «مخبريه الصحفيين» في أرجاء المدينة في ظل تعليماتٍ بمهاتفته ناقلين إليه الأخبار الساخنة حال وقوعها. ووظّف شُعباً متخصصة تعجّ بأناس يصوغون المواد لتي يبعث بها المراسلون بطريقة صالحة للنشر؛ كي يحولوا هذه الحقائق المجرّدة إلى أخبار مثيرة، وإن كانت في بعض الأحيان تفتقر إلى الدقة، وأصرّ على تقرير إخباري عالي المستوى في كل صفحة، مُرغماً الصحفيين على كتابة أخبارٍ سريعة تتضمن أفضل وجهات النظر الخاصة أو المُغرضة ضمن ما تعلّما منذاك أن ندعوه الخبر الرئيس الموجز. وعندما غادر تشابن الـ وورلد عام 1918 (وهو ما فعله ويداه مكبّلتان بالأصفاد؛ لقتله زوجته نيللي) أصبحت كتابة قصة إخبارية أسلوباً مميزاً، خصوصاً افتتاحيتها. التغيير الرئيس الوحيد منذ ذلك الوقت كان مقدار التفصيل المحشودة فيها. ففي عام 1932، على سبيل المثال، أوردت الـ نيويورك تايمز: اختُطِف تشارلز أوغسطس ليندبرغ جونيور، الابن ذو الأشهر العشرين للكولونيل والسيدة تشارلز أ.لينبرغ، من سريره في حجرة الأطفال في الطابق الثاني من منزل ذويه في هوبويل، قرب برنستون، نيوجرسي؛ وبعد ثلاثين عاماً انطلق محضر البوليس المفصّل من الفقرة الأولى؛ عندما أوردت الصحيفة ذاتها من دالاس خبراً باثنتي عشرة كلمة فقط: (أطلق منفّذ عملية اغتيال النارَ على الرئيس جون فيتزجيرالد وقتله اليوم).

في هذه المدة تقريباً -وبالتزامن مع مجيء المذياع والسينما- كان أيضاً قد أبصر النور الاستخدامُ الواسع للتعليقات الساخرة واللاذعة لاستهلال أنماط معينة من الأخبار. كان هذا أسلوب كتابة دانَ بالكثير لمسرح المنوعات وَالمسرحيات الهزلية بقدر ما دان للأدب، لكنه لحسن الحظ أنه بقي ووفّر منذ ذلك الحين لذّة عظيمة، لم تكن بريئة تماماً (أحدُ الأمثلة الشهيرة كان قد كُتِب عن ريتشارد لوب، أحد اثنين من خريجي جامعة شيكاغو، قتلا ولداً عام 1924. حُكِمَ عليهما بالسجن مدى الحياة، وبعد اثني عشر عاماً قتل لوب سجيناً آخر بعد أن تودَّد إليه. تقول الخرافة إن إدوين لاهاي من صحيفة شيكاغو ديلي نيوز استهلّ قصته كما يلي: «ريتشارد لوب، طالب اللغة الإنكليزية المشهور، أنهى البارحة مدّة حكمه بطلب زواج»).

كان التدريب الصحفي العنصر الأخير في تحوّل المراسلين إلى المهنية. فقد افتُتِحت أول مدرسة للصحافة في ميسوري عام 1904، وبعد أعوام عشرة، طرحت ما لا يقلّ عن تسع وثلاثين جامعة مناهج صحفية حضرها ما يزيد على ألفي طالب سنوياً. وأدخلت عام 1918 جوائزُ البوليتزر، وبذا تكون أعدت العدّة لكفاح واعٍ لذاته بين الصحفيين لتحقيق ما تعدّه المهنة امتيازاً.

ومواجهة متطلبات الصحافة -والحريات المُكتسبة- استجابت الأعمال والحكومة كلتاهما بما بات معروفاً بـ«العلاقات العامة»، مصطلحٌ استُخدم أول مرّة عام 1897. وفي العام ذاته، افتتحت جنرال إلكتريك قسم دعاية وإعلان، وفي أثناء مدة قصيرة كانت إدارة الرئيس وليام ماك كينلي أوّل إدارة توزع بيانات صحفية، وشرعت تتطور صناعةٌ تجمع الإفادة والتعتيم. وقد استغرق الأمر، منذ لحظة اختراعها، سبعة عشر عاماً فقط لإنتاج ما ثبت أنها أول لعنة في حياة كثير من المراسلين: مرحلة -التقاط الصورة المدبّرة- (إضرابٌ في أحد مناجم روكفلر وصلت ذروته بمذبحة لودلو، عندما أُرديَ بالرصاص بعض عمال المناجم وامرأتان وأحد عشر طفلاً. تعرّض جون د.روكفلر لنقدٍ قاسٍ جداً، ولذا، في محاولة لمواجهة هذا، نُصِح روكفلر أن يقوم بجولة على مخيمات عمال المناجم، يبدي فيها قلقاً واهتماً بالغين، ويتصدّق بعطاياه الخيّرة، التي لا تزال سرّاً حتى يومنا هذا).

إذاً، في عام 1920، كان عالم المراسل عالماً حديثاً على نحوٍ مميز-باستثناء ناحية حيوية واحدة: أن الصحف كانت الحَمَلَة الرئيسة والوحيدة للمعلومات. والتحوّل في هذا كان الصدمة التي خبّأها القرن العشرون للمراسلين. فقد وصلت أولاً الأفلام الإخبارية والمذياع، وتبعهما التلفاز، وأخيراً الإنترنت. وقد مثّل كل واحدٍ منها شيئين: مصدراً بديلاً للمعلومات، وطريقة منافِسة لدى الناس لقضاء الوقت. وإذ ترافق ذلك مع زيادة في المرتّبات، وازدياد في اقتناء السيارات والنشاطات الترفيهية، فقد أعطى الإعلامُ الإلكتروني الناس الكثير ليشغلوا وقتهم به بدل أن يفتحوا ببساطة الصحيفة على الشرفة أو في الردهة ويقرؤوها من الغلاف إلى الغلاف. ولم تعد الصحف الوسيلة الأسرع لمعرفة ما يحدث في العالم.

وأياً كانت الردود على هذه التحولات من قبل المالكين (شراء قناة تلفازية، أو إطلاق موقع إلكتروني) أو المحرّرين (زيادة المساحات المخصصة للمقالات، أوالأبواب والرسوم الكاريكاتيرية الخاصة، أو توظيف ثلاثة كتّاب أعمدة إضافيين)، فقد كان تأثير تلك التحولات في المراسلين مثار نقاش وجدل. فالفكرة المتعارف عليها هي أن المحرّرين بدؤوا بالقول: «لقد أورد التلفاز هذا الخبر أصلاً، فلا بد أن ننظر وراء الخبر» بحثاً عن القصة. ومن هنا، يقال لنا، كانت الزيادة في التصريحات الخلفية والآراء المتنوعة. أما عندما تحترق دار البلدية، فإن الخبر الرئيس للصحيفة هو تقريباً كيف كانت قبل خمسين عاماً. والسبب الرئيس لتكاثر التصريحات الخلفية والآراء المتنوعة والأشرطة الجانبية التي تحتوي معلومات متمّمة هو على الأرجح الزيادة العظيمة في المساحة المتوافرة. وفي عصر الصحف اليومية المتعددة الأقسام، ثمّة المزيد من كل شيء في الصحف. وبناء على الزعم القائل إن عدد الأحداث القابلة للنقل لم يزدد بسرعة أكبر من سرعة نمو عدد السكان، فإنك تملأ تلك المساحة الإخبارية الزائدة بالأشرطة الجانبية والتصريحات الخلفية والمناقشات والمواد المبرزة بأحرف ضخمة والقليل من الـ «لِمَ»؛ كي تتماشى مع الـ من-ماذا- أين- متى. وفي صحف كثيرة، يقول المزيد قصصاً -خلافات في وجهات النظر، تُقدَّم بوصفها «شجارات»، التي غالباً ما تكون اختلاقاً محضاً قام به مكتب الأخبار أو المراسل.

إن ما غيّره التلفاز هو مفكرة الأخبار. فعندما يُعرض خبرٌ ما، مهما بلغت تفاهته، على التلفاز وتراه أعدادٌ كبيرة من المشاهدين، فإن ملحقاً ما عن هذا الخبر يتضمن تفاصيل جديدة هو أمرٌ شبه إجباري، لدى جميع الصحف ما عدا أكثرها جدّية. فلنكفّ عن البحث عن واحدٍ من الأسباب الرئيسة لبروز ثقافة المشاهير. إن التلفاز، لدى الصحافة الجماهيرية الواسعة الانتشار في بريطانيا، هو إلى حدّ كبير المفكّرة. أما معظم الصحف الأمريكية فهي أقلّ نزوعاً إلى هذا؛ لأنها صحفٌ محلية، على الرغم من أنها تخضع لسيرورة ماكرة بالمثل؛ وأعني تناقص عدد المدن التي يوجد فيها صحيفتان. وهو ما أدى طبعاً، بصرف النظر عما قد توحي به لائحة المدعوين السنوية إلى مناسبة البوليتيزر وتحقيقاتها، إلى صحفٍ أكثر رخاوةً وضعفاً ومراسلة أقل براعة. ففي النهاية، إن وُجِدَت صحيفة وحيدة في المدينة، فمن سيكتشف تأخرها في نشر خبر ما؟ قلة قليلة من المديرين التنفيذيين في الصحف الأمريكية يقضون مثلي ليالي في الصحيفة وهم يتفحّصون بدقة صفحات سبع صحف منافسة حتى وقت متأخر؛ لعلهم يرون خبراً ما من زاوية أفضل، أو الأسوأ من ذلك يحصلون على خبر جيد فاتنا. (وجّه بروز الصحيفة المحتكرة أيضاً ضربة قاضية إلى ذاك الضرب من الوطنية المحلية النادرة التي كانت تُبقي أولئك القابعين في العاصمة ممن هم أكثر فذلكة مشغولين. ولّت تلك الأيام)، أخشى أن تجد لصحف منظوراً محلياً سخيفاً تنظر عبره إلى قصة عالمية كما اعتادت أن تفعل في الماضي. لعل أفضل مثال على هذا كان العنوان العريض لصحيفة برونكس هوم نيوز عام 1917 عن خبر مفاده أن ليون تروتسكي عاش ذات مرة أشهراً في أحد أحياء مدينة نيويورك: «رجلٌ من البرونكس يقود الثورة الروسية».

أما التحول العظيم الآخر في العقود القليلة الأخيرة فقد كان تنامي ما أسماه دانييل بورستين «الأحداث الكاذبة»، كالمؤتمرات الصحفية، والعمليات الفوتوغرافية، وأعمال الشغب، و«التقارير»، وجماعات الضغط، والمظاهرات المنظّمة، وجميع الخدع الواضحة الأخرى التي تمارسها الحكومة، والأعمال والسياسة، وجماعات الضغط، وَالقضايا التي يناضل المرء من أجلها. و يواجه المراسل العادي، على نحو يومي، هذا كلّه حتى قبل أن يصل إلى تلفيق الأخبار، فاستخدام عبارة في الوقت الراهن للإشارة إلى عملية إضفاء مزيد من

الجمال على شيء جميل أصلاً وترقيع عيوب لطالما فعلت فعلها. والفرق الآن، بغضّ النظر عن الزيادة الواضحة للأجور، أنّها تُفرَض الآن من قِبل ملفقي الأخبار المرموقين، وقد تطلّب توقهم إلى لفت الانتباه «لمحة عن حياتهم الشخصية»، في حين لم يكن لديهم أيّ من هذا سابقاً- وهو ما يُرغم عليه المراسلون دوماً.

بيد أن التدريب الصحفي في أفضل أحواله (وذلك لا يشمل عملياً بريطانيا)، كان محاولة اللحاق بالطرف الآخر في سباق التسلح بالمعلومة. فالمراسلون يبدؤون العمل الآن في الولايات المتحدة، وهم ربما يفتقرون إلى طريقة معينة في التعامل مع سيجارة، أو البراعة في لعبة الكرابس، لكنهم عوضاً عن ذلك لديهم معرفة تامة بالأتمتة (كيف يصممون برامج جدولة، أين يعثرون على المعلومات في الإنترنت، وهلم جراً)؛ وهذا ما كان ليدهش أسلافهم المخزيين. ولديهم أيضاً حواسيب شخصية (أُطلقت عام 1981)، وهواتف نقّالة أو خلوية (في حين اضطروا في الماضي إلى التزاحم على الحصّالات الهاتفية)، وهواتف مرتبطة بالأقمار الصناعية، والإنترنت -كلها وسائل للبحث في أي موضوع، واقتفاء آثار المصادر والاتصال بها، وتشارُك المعرفة بواسطة السجلات المحفوظة عن الخبر، وإرسال مواد للنشر من أي بقعة في العالم. ولن يعود عذر دوروثي باركر أنّ (أحدهم كان يستخدم قلم الرصاص) مجدياً بعد الآن تفويتها المهلة الأخيرة لتسليم مقالتها.

في مقابل هذه العُدّة، يتعين على المراسلين أن يتحمّلوا العمل في بيئة أكثر تنظيماً. لقد ولّت أيام الستينيات عندما كان توم تومسون يصل إلى التايمز ويشمئزّ؛ لأنّ غرفة الأخبار غدت مأوىً مجهّزاً بسبل الراحة لمجموعة من الشاذّين المسجلين. أما الآن فإنّ كثيراً من المسؤولين الذين يديرون الصحف يحولون دون وقوع أمرٍ مماثل، ودون وجود قوانين خاصة بالمراسلين التي مكّنت المراسلين العامّين أن يهدروا أياماً بطولها (أو في حالات مثيرة، أسابيع برمتها) خارج المكتب. إن أي فيلم في أيامنا هذه يصوّر بدقة عمل معظم المراسلين، فيظهره/ها جالساً على الدوام إلى حاسوب داخل ما يبدو أنه مركز اتصالات. إن فرصة رؤية صورة مقرّبة للحياة، واللقاء بالناس (بوصفهم المصدر الرئيس لمعلوماتك)، والرومنسية،

واحتساء الشراب، والهراء، والاضطرابات، والجرائم، والقمار، والمغامرة، والتورط في مآزق أو شجارات هو الآن مجالٌ مختزلٌ أيما اختزال. فكم هذا مختلف، بل إنه بالغ الاختلاف، عن حياة المراسلين العظماء...

obeikandl.com

ویلیام هوارد رَسِل

1

ويليام هوارد رَسِل

1820 - 1907

الرجل الذي اخترع المراسلة الحربية

العام هو 1854، وبريطانيا لا تُقهر بوصفها قوّة عالمية. فهي تحكم إمبراطورية تضمّ كندا والهند والمستعمرات الغربية وأستراليا، ولن تلبث أن تشرع في ضمّ أجزاء كبيرة من إفريقيا. غالبية سكانها يؤمنون بالله والوطن وبحق الأثرياء وذوي الأصل النبيل في شراء طريق دخولهم وخروجهم من طبقة ضباط الجيش.

تدرك البلاد أن ثمة خطراً قابعاً على بعد بضعة آلاف أميال عن الوطن، وإن لم يُوضَع له حدٌّ، فإن الحكومة تخشى أن يُهدّد رفاه الأمة وأمنها. لذا تُستحضر المِنن القديمة والتحالفات الجديدة، وتُشرّع الرايات، ويُرسل الجيش بعيداً ليذود عن إمبراطورية طموحة. إنها روسيا، أرض يحكمها ملك طاغية حيث لا تزال العبودية قائمة، وتبدو بطريقة غامضة تحدّياً للقيم الحضارية الديمقراطية التي تسود الوطن. القرم هي أرض المعركة، وقلّة قليلة في الوطن تعرف أين تجد موقع القرم على الخارطة. بيد أنهم مع ذلك، لوّحوا برياتهم وانتظروا أخبار الانتصارات التي يحسبون أنها من حقهم بوصفهم أقوى أمة على وجه الأرض.

في خضمّ هذه الظروف جاء رجلٌ ملتحٍ أشعث الشعر يُدعى ويليام هوارد رسل. كان هذا الرجل مراسل التايمز، والقصص التي كتبها من لُجّة ذلك الصراع صدمت بريطانيا كما لم تفعل أي مراسلة من قبل. قرأ قراء الطبقتين الوسطى والعليا رسائله الإخبارية واهتزوا من جذورهم القابعة في دِعَة والراضية عن نفسها لمعرفة أن الجيش الذي أرسلته أمتهم السامية إلى ساحة المعركة كان جيشاً بائس التجهيز، وسيئ التنظيم إلى حدٍّ مفجع، ويقوده أرستقراطيون غير أكفياء، وتديره حكومة غير خبيرة، والأسوأ من هذا كلّه عدم

الاكتراث برفاهية جنوده، حيث إن آلافاً منهم لم يلاقوا حتفهم في المعركة وإنما في الزرائب والأكواخ القذرة التي تمَّ استخدامها كمستشفيات. كانت مراسلة رَسِل، بكلّ جوانبها، صدمة للنظام في إنكلترا الفيكتورية؛ فلم يسبق لأحدٍ ما أن كتب مثل هذا من قبل. كانت مراسلته أعجوبة صغيرة. وكي يكشف النقاب عن نقاط الضعف، اضطر رسِل أن يعتمد على نفسه قرابة عامين في ساحة المعركة دون أيّ مساعدة، في مواجهة عدائية مستمرّة مع السلطات العسكرية غير المعتادة على فكرة مراسل فضولي، وفي أثناء هذا جميعه عرف رسِل أن صدقه ووطنيته يتعرضان في الوطن للذمّ وتشويه السمعة. لكنه حافظ على رباطة جأشه في الوقت الذي كان كلّ سطر يخطّه يمحّص فيه أرفع المسؤولين في الوطن بحثاً عن الأخطاء. وقد تطلّب ذلك مهارة وحرصاً، وأكثر من ذلك كله، بعد معرفة حقائق مخزية تصوعت مع الأرثوذوكسيات العامة، تطلب الأمر شجاعة لنقل هذه الحقائق والاستمرار في ذلك في مواجهة هجمات العامة. وهذا هو السبب في أن رجلاً، ولد قبل قرابة جيل من بداية العصر الفيكتوري، وكتب بنثر منمّق يبدو الآن مثل لغة أجنبية، بمقدوره أن يصمد في مقارنة بأكثر المراسلين الحديثين حدّة، ويُدْرَج اسمه في هذا الكتاب.

على أي حال، كاد رسِل أن يفشل في أن يكون في هذا الكتاب أو في أي كتاب آخر. ففي عام 1844، وفي أول مهمة صحفية رئيسة تُسنَد إليه، وقع رسل في خلط رهيب إلى حدّ أن إحسان محرّر التايمز فحسب هو من أنقذه من الصرف من الخدمة. فقد أرسلته الصحيفة إلى دبلن ليغطي محاكمة الزعيم الأيرلندي دانييل أوكونيل بتهمة التحريض على العصيان، وكان هذا الحدث واحداً من أهم أحداث ذلك العام. ولأن هذا كان قبل أيام التلغراف فإن الطريقة الوحيدة لوصول أخبار الحُكم إلى لندن بسرعة كانت أن يوصلها المرء إلى هناك بنفسه. ولهذا، فقد اتخذت صحيفتا التايمز والـ مورننغ هيرالد الكبيرتان ترتيبات مُحْكَمة لإيصال المراسلين إلى البر الرئيس، فاستأجرتا مراكب بخارية وقطارات خاصة وعربات أجرة. كانت وسائل النقل هذه جميعها تقف على أهبة الاستعداد عندما انسحبت هيئة المحلفين للتشاور، ذات سبتٍ في أواخر شهر آب. غادر باقي الصحفيين لتناول المرطبات إذ توقعوا مدة انتظار طويلة، وجلس رسِل خارج المحكمة يقلّب التفكير فيما يتعين عليه فعله. عندما اندفع صوبه رسوله الفتي، وأخبره أن هيئة المحلفين تلتئم ثانية، عاد رسِل إلى قاعة

المحكمة، وسمع رئيس المحلفين يتلو الحكم بالذنب، واندفع خارجاً عاقدَ العزم على أن يكون أول من يعود إلى لندن بالأخبار. قفز في عربة، ثم استقل قطاراً خاصاً إلى مرفأ كينغستون، وصعد على متن الـ آيرون ديوك، المركب الذي استأجرته التايمز، وفي نصف ساعة كان المركب قد استجمع بخاراً يكفي لينطلق متجهاً إلى الشاطئ الويلزي. وبينما غادر المركب، لاحظ رسل أن مركب الـ هيرالد لا يزال راسياً بدعةٍ في الميناء. وصل إلى هوليهيد، واستقل القطار الخاصّ إلى لندن، وحاول أن يغفو، بيد أنه لم يقدر بسبب جزمته الضيقة، فخلعها، ووصل إلى لندن بعد سبع ساعات، وقذف بنفسه عاري القدمين في العربة المنتظرة، ثم أخيراً وقد انتعل فردة من جزمته وتأبّط الأخرى، ركض مسرعاً داخل فناء مبنى التايمز. بعد سنوات عدّة، روى رسِل ما جرى بعدئذٍ: «عندما دخلت فناء دار الطباعة، دنا مني رجل يرتدي قميصاً ظننت أنه ضارب الآلة الكاتبة في الصحيفة، وقال: سعيد لرؤيتك وقد عدت سالماً، سيدي. إذاً، فقد وجدوه مذنباً. أجبته: نعم، مذنب يا صديقي».

لسوء الحظ، لم يكن الرجل الذي التقاه رسل ضارب الآلة الكاتبة في الصحيفة، بل مراسلاً يعمل لحساب المورننغ هيرالد. وهكذا قدّم رسل الشاب السبق الصحفي للصحيفة المنافسة على طبق من فضّة، ونشرته للتوّ. وبمقدورنا الحكم على بعضٍ من الهرج والمرج الذي اعتمل التايمز من الملحوظتين الغاضبتين اللتين أرسلهما إليه موبرلي بِل، مدير الصحيفة. تقول الأولى، على نحوٍ منذر بالشؤم: «أفسدت الأمر على نحو بالغ السوء. ولا بدّ من البحث في ذلك بالتفصيل». أما الثانية، التي خُطّت بعد أن أنقذ المحرر عنق مراسله الشاب، فبدأت على النحو الآتي: «كدت أن تقطع علاقتك بنا بحماقتك». وتابعت: «دعني أحذّرك بأن تُبقي فمك مغلقاً وعينيك مفتوحتين... كنا سندفع مئات الجنيهات لنمنع كلماتك القليلة ليلة أمس». استمر رسِل، الذي وُبّخ أشدّ التوبيخ، بيد أنه أُنقذ، في عمله ليغطي بعدئذٍ كل خبر رئيس في العصر الفيكتوري الرّاقي: الهوس بالسكك الحديدية، والمجاعة الإيرلندية، والمعرض العظيم، ومأتم ويلينغتون، وحرب القرم، والتمرّد الهندي، والحرب الأهلية الأمريكية، وتتويج القيصر نيكولاس، وكومونة باريس، والحرب الفرانكو-بروسية، والمحاولة الأولى لمدّ كبل عبر المحيط الأطلسي، وحرب السودان والزولو.

وُلد الرجل الذي قُدّر له أن يحتل هذا الموقع القريب من الأحداث في أسرة صناعيّ على مقربة من دبلن بتاريخ 28 آذار 1920. خلب لبَّه في طفولته الجنود المتدربون قرب منزله، وراودته، على نحو عابث، فكرة أن تكون مهنته في المستقبل الجيش أو المحاماة عندما كان يدرس في جامعة الثالوث الأقدس. لكن بعدئذٍ، حين بلغ العشرين من عمره، طلب إليه قريبه المساعدة في تغطية الانتخابات الإيرلندية، وهذا لايعني بالضرورة الحملات الانتخابية أو قاعات الاجتماعات، وإنما جناح الإصابات في المشفى، حيث أُحضِر المرشحون المصابين بقطع الآجر المكسورة التي تطايرت. وبالفعل، عندما سيق كوكبة من المرشحين الطامحين في العربات إلى داخل المشفى وقد غطّتهم الدماء، كان رسِل هناك يدنو منهم كي يقابلهم. ترك هذا انطباعاً قوياً في التايمز، فدعته إلى لندن حيث وقّعت معه عقداً ليكون عضواً موسمياً في فريقها العامل في البرلمان بأجر أسبوعي مقداره خمسة جنيهات وخمسة شلنات. تضمن العمل ملازمة البرلمان حتى نهاية النقاشات عند الرابعة أو الخامسة فجراً، ثم العودة إلى مكاتب التايمز قاطعاً مسافة الميلين سيراً على القدمين؛ كي يدوّن تقاريره. سرعان ما تميّز، وغدا مسؤولاً عن المراسلين الذين غطو عاصفة مشروعات قوانين السكك الحديدية التي عصفت آنذاك في البرلمان. كان ثمة مشروعات كثيرة إلى حدّ أنها لو كانت جميعها ناجحة لتطلّب تمويلها جميع رأس المال المتوافر في البلاد. وبالطبع، كانت تلك مضاربة جنونية تقليدية، فرؤية الأمور بعد انتهائها أسهل على الدوام من رؤيتها في حينها. بيد أن التايمز، بزعامة رسل، لم تكن لتُخدع قطّ. فقد رفض رسل الرشاوى التي عُرضت عليه؛ كي يرغم من شأن مشروعات عدة، ووجد أن لا قيمة لها، وأعاد رسل إلى الصحيفة احترامها وهيبتها معوّضاً عليها ما خسرته في عائدات الإعلان.

عام 1846، وبينما لاح الزواج في الأفق، قبل رسِل منصباً أعلى أجراً في الـ مورننغ كرونيكل، وكان أن غطى لهم المجاعة الإيرلندية. بيد أنه لم يلبث أن عاد إلى التايمز، حيث غطى أعمال البرلمان، وبدأ يثبت أنه أفضل كاتب «منوعات» في الصحيفة. أرسلته الصحيفة ليغطي المعرض العظيم، ومأتم ويلينغتون، على الرغم من أن ذلك عنى استدعاءه من إجازة في سويسرا (لم تكن رحلة عودته سريعة عام 1852). ولذا عندما لاحت الحرب مع روسيا

عام 1854 وحصلت التايمز على إذن بإرسال مراسل برفقة الجيش، كان رسِل هو الرجل الذي ختير للذهاب. «ستعود في شهرين»؛ أكّد المحرّر جون ديلان له في شهر شباط. بيد أن تلك لم تكن المرة الأخيرة التي يتبين فيها أن تطميناً صادراً عن محرّر مكتبيّ هو تطمين بلا قيمة. لقد طال غيابه مدة عامين.

توجّه رسل إلى ساوثمبتون بعد عشاء وداعٍ أقامه ديكنز وتاكري له في غاريك كلوب، حيث أبحر مع الحرس إلى مالطا، ومن هناك إلى غاليبولي والقرم التي وصلها في 14 أيلول، ووجد أن المسرح قد أُعدَّ لبريطانيا وحليفتها فرنسا وتركيا للتوجّه إلى الحرب مع روسيا. وعلى الرغم من أنه لم يكن أول مراسل حربي (كان من سبقوه جنوداً في الأساس كتبوا عن المعارك كما لو أنها مهرجانات رياضية)، فقد كان رسِل أول صحفي متخصّص يغطي صراعاً رئيساً.

إنّ ما قدّمه رسِل لقرّاء الصحيفة من العامة (باعت صحيفته آنذاك ما يزيد على أربعة أضعاف مبيعات منافساتها مجتمعة) لم يكن أقلّ من أولّ صورة حقيقية عن الحرب تُقدَّم لها. بدءاً ببسالتها (الفرقة الثقيلة تشن هجوماً في معركة بالاكلافا، تشرين الأول 1854):

... وإذ لمع البرق في أثناء الغيوم، اخترق جنود غراي وانسكيليز جموع الروس المتراصّة... كانت قرقعة فولاذ في الجو ولعب سيوف خفيف، ثم اختفى جنود غراي ذوو المعاطف الحمراء وسط الصفوف المترنحة.

وما فيها من لحظات جلدٍ وثبات (في معركة إنكرمان، 1856):

سقطت قذيفة بين الضباط مباشرة، وانفجرت بجوار القائد سومرست، فشطرته نصفين... وقتلت على الفور القائد غوردون وأطاحت بجواده أرضاً، ثم قطعت ساق الجنرال سترينغواي، تاركة إياها معلّقة بمزقة لحم... لم تتغير قط سرائر الجنرال الكهل البائس. بل اكتفى بالقول بصوت لطيف: «هل يمكن أن يتعطّف أحد فينزلني عن جوادي؟».

وصولاً إلى فوضاها (من المعركة على سيباستوبول، حزيران 1855):

اختلط جنود مختلف الفرق بعضهم ببعض في ارتباك لا فكاك منه. إذ لم يكترث جنود الفرقة 19 بأوامر ضباط الفرقة 83. كذلك لم يبالِ جنود الفرقة 23 بأوامر ضبط لم ينتمِ إلى فرقتهم. وأضاع الضباط جنودهم، وغابوا عن نظر الجنود.

وإدارتها (بعد معركة إنكرمان في تشرين الثاني عام 1854):

... تبعثر حملة المِحفّات على المنحدر... يفتشون في الأكمة بحثاً عن الموتى أو المحتضرين. اكتسب رجالنا براعة مفاجئة في وصفهم الحالات... تقدّم أحد أفراد المجموعة، ورفع الجفن المسبل، وحدّق إلى العين، وهزّ كتفيه قائلاً بهدوء إنه ميت، بمقدوره الانتظار. ثم مشى عائداً إلى المِحفّة؛ ركل آخرون القدم، ووصلوا إلى نتائج صحيحة مماثلة بالآلية نفسها...

وقذارتها (من المشفى الروسي الذي دخله بعد سقوط سيابستوبول مطلع عام 1855):

ترتمي جثث الجنود المتعفنة والمتقرّحة في غرفة طويلة واطئة،...شحيحة الإضاءة ذات نوافذ محطّمة، الذين تُركوا ليموتوا بما هم فيه من كربٍ عظيم، مُهْمَلين، بلا اكتراث، وقد رُصّوا بعضهم إلى بعض قدر المستطاع، بعضهم على الأرض، وآخرون على مساند وأسرّة بائسة أو على فُرُش قشّ، مسربلون بالدماء. كثيرون، لا يزالون أحياء، يستلقون واليرقات تدبّ في جراحهم وحولها... كثيرون كُسِرت سيقانهم وأذرعهم ولُويت، والأوصال المفلولة معلقة باللحم النيئ، تلتمس الإسعافات، أو الماء، أو الطعام، أو الشفقة.

وعقمها (عقب سقوط سيباستوبول - حدثٌ رآه المشاهدون وهم يمرحون على متن يخوتهم):

... جيوش أنهكها التعب، يفصل واحدها عن الآخر بحرٌ من النيران، يتكئون على أذرعهم، ويحدّقون بعواطف مختلطة إلى كلّ ما تبقى من موضوع صراعاتهم.

وقصصها الخرافية. ففي أواخر تشرين الأول عام 1854، وقف رسل على إحدى التلال المطلّة على بالاكلافا، وشهد واحداً من أشهر الأعمال البطولية في تاريخ الحرب. وبعد أسابيع ثلاثة (إذ

كانت رسائله تستغرق تلك المدّة لتصل لندن)، نشرت التايمز تقريره عن الهجوم الذي شنّته الفرقة الخفيفة، حيث انطلق 673 فارساً للهجوم، وعاد سالماً منهم أقل من 200 فارس.

عند الساعة الحادية عشرة، انطلقت فرقة خيالتنا إلى الجبهة... تقدّموا في رتبين، وحثّوا الخطى حيث كانوا يقتربون من العدو... قُذف صفّ العدوّ كله على مسافة 0021 ياردة من ثلاثين فَوّهة معدنية، واندفعت الكرات المميتة في سيل من الدخان واللهب.

واندفع هؤلاء الرفاق النبلاء بهتافٍ كان صيحة الموت لدى كثير منهم داخل الدخان المدافع؛ لكن قبل أن يغيبوا عن الأنظار، تناثرت جثثهم وأشلاء جيادهم حتى غطّت السهل... وفي اللحظة ذاتها التي كانوا يهمّون فيها بالتراجع، اندفعت فرقة من حملة الرماح لحماية خاصرتهم. فقد رأى الخطرَ الكولونيل شيفل، قائد فرقة الهوصار الثامنة، وقاد رجاله مباشرة إليهم، شاقاً طريقه إليهم متكبداً خسائر رهيبة. عندما مرّت عاصفة الخيالة، عاد رماة البنادق الروس إلى البنادق. رأوا خيالتهم وقد اختلطوا بالقوات التي حملت عليهم توّاً، وفي عمل سيبقى وصمة عار تلازم اسم روسيا أبد الدهر، صبّ الأوغاد وابلاً مهلكاً من القنابل العنقودية والقذائف على كتلة الرجال والجياد المتصارعة، فخلطوا الصديق بالعدو في نهاية واحدة مشتركة... ولم يكن قد تبقّى جندي بريطاني واحد عند الساعة 11:53، سوى الموتى والمحتضرين، في مواجهة تلك البنادق الموسكوفية اللعينة.

ليس مفاجئاً ألا يعرف الجيش ماذا يحصل لرسِل تماماً. فهو، إذ فقد أي منزلة رسمية، اعتمد على مقدرته على عقد صداقات مع الضباط، وعلى الحصول منهم على معلومات لم يكن بمقدوره جمعها بنفسه. بل لقد نفعت جاذبيته الإيرلندية مع بعض الضباط القادة. ففي بداية الحرب، على سبيل المثال، أُحضِر رسل أمام الجنرال بينيفرز، الذي طلب منه أن يعرف ما هو عمله. عندما أخبره رسل أنه مراسل، أجاب الجنرال: «بالله، يا سيدي. لقد قابلتُ الشيطان توّاً!». بيد أن رسِل، على أي حال، ردّ بدعابة إيرلندية صغيرة وكَسِب وِدَّ الجنرال الكهل. وبطبيعة الحال، لم ينطبق هذا على سائر الجيش. فقد مرّ

رسل بأوقات حُرِمَ فيها حِراية الجندي، وعاد إلى المعسكر ليجد خيمته قد انتُزعت وقُذفت خارج المعسكر، ومُنعت عنه معلومات مثل أعداد الإصابات، وحُذّر أنه، إن كان يتوخى سلامته، يجدر به الرحيل. بيد أنه لم يكن ليغادر، إذ انغرز في تلك الحرب وصار جزءاً لا يتجزأ منها.

في هذه الظروف، أُرغِم المراسلون الآخرون على التخفيف من حدّة إصرارهم على الصدق. لكن رسل لم يكن من يفعل ذلك. تحدّث عن وباء كوليرا خطر في واحد من تقاريره الأولى وعن أخطاء تعامل الرعاية الطبية مع هذا المرض، واستمر في كشف حقيقة الجيش الفوضوية؛ فقد كشف للعيان النقص في الإمدادات التي أشارت إلى عدد قليل جداً من عربات المؤن وأسرّة المرضى والأدوية؛ وكتب عن البزّات المزركشة بياقاتها العالية القاسية التي كانت خانقة صيفاً ولم تمنح الدفء شتاءً؛ وعن انعدام إجراءات الصحة العامة وتنقية المياه في المعسكر؛ والطعام البائس، الملوث غالباً، الذي كان إمداده في نقص دائم (نظرياً، كانت حصة الرجل من الطعام في اليوم باونـاً من لحم العجل والخبز، وقليلاً من القهوة والسكر)؛ وعن حقيقة أن كل رجلٍ كان مضطراً إلى البحث عن حطب يوقد به ناره ومن ثم يطهو وجبته. إن ما في هذه الحيـاة من ضروب بؤس وشقاء، بمعزل تماماً عن مخاطر الاشتباك مع العدو، هو ما صوّره رسل أواخر تشرين الثاني عام 1854:

...السماء تمطر مدراراً... تحوّلت الخنادق إلى سدود، ويصل ارتفاع الماء في الخيام إلى عمق قدم في بعض الأحيان، ليس لدى جنودنا ملابس دافئة أو مصرية، إنهم يقضون اثنتي عشرة ساعة متواصلة خارج المعسكر في الخنادق... ويبدو أن أحداً لا يبالي براحتهم، أو حتى بحياتهم. هذه حقائق مرّة، بيد أن شعب إنكلترا يجب أن يعرف أن المتسول الذي يطرق دروب لندن تحت المطر يحيا حياة أمير مقارنة بالجنود البريطانيين الذين يقاتلون هنا لأجل وطنهم، والذين هم كما تؤكد لنا السلطات في الوطن على نحو يبعث فينا الرضى عن أنفسنا، أفضل جيش مجهّز في أوروبا.

لم يُصدم العامّة الفيكتوريون في الوطن أكثر مما صُدموا بتقارير رسِل عن المعاملة التي يلقاها المرضى والجرحى. وعلى الرغم من أن تقارير مراسل التايمز من القسطنطينية، توماس شيني، هي من ألهمت فلورنس نايتنغيل، إلا أن رسل أرسل تقاريرَ عن العيوب الطبية منذ بداية الحرب، وبعد أشهر ستة على الحملة، كانت الأمور أسوأ من أي وقت مضى:

.. تغيب أبسط الكماليات في أي مشفى هنا؛ ليس هناك أدنى اكتراث باللياقة والنظافة-النتانة مرعبة- فالهواء النتن ينفذ بصعوبة عبر شقوق الجدران والسقوف نحو الخارج ملوّثاً الجو، وبسبب ما أراه، يقضي هؤلاء الرجال نحبهم دون أن يُبذل ي جهد لإنقاذهم. يستلقون هناك برفق على الأرض كما تُركوا... ليعتني المرضى بالمرضى، والمحتضرون بالمحتضرين.

وبعد بضعة أسابيع، أرسل تقريراً عن نتائج انعدام الرعاية هذا، الذي عنى في نهاية الأمر ن 80% بالتمام والكمال من إصابات الحرب كانت قد سببتها الأمراض:

... كان في الفرقة 63 سبعة رجالٍ فحسب لائقين للخدمة بتاريخ 7 كانون الثاني. وفي الفرقة 46 كان ثلاثون رجلاً لائقاً فقط... اختزلت قسوة هذا الأسبوع سَريّة قوية من سرايا الفرقة 90 إلى أربعة عشر جندياً في أثناء بضعة أيام، وعلى الرغم من أن تلك الفرقة عُدّت معافاة نسبياً، إلا أنها فقدت خمسين رجلاً قضوا في أثناء أسبوعين. لم يحشد الحرس السكتلندي، الذي كان تعداده في البداية 1562 رجلاً، سوى 210 رجال في الاستعراض العسكري.

كان الإنكار التام هو ردّ الحكومة الفوري على هذه التقارير، وأُدين رسِل والتايمز إدانة شديدة في البرلمان، وطالب واحدٌ على الأقل من الأعضاء بسحب جراية المراسل، لكن، مع إحجام محرر التايمز جون ديلان عن نشر بعض أقوى انتقادات رسِل وتدويرها سراً إلى مجلس الوزراء، ومع الازدياد المؤثر لعدد قراء الصحيفة المقتنعين بصحّة تقارير رسِل، فقد تلاشى تأثير الإنكار. وبفضل التايمز سقطت حكومة اللورد أبيردين في شباط عام 1855، وغدا بالمرستون رئيساً للوزارة، وأُرسلت لجنة لتقصي الحقائق إلى الحرب. وبعد أربعة أشهر، أثبتت اللجنة صحة جميع تقارير رسِل تقريباً، وعقِب ذلك سلسلةٌ

إصلاحات، كان بعضها قد وُضع حيّز التنفيذ عندما كُسبت الحرب منتصف عام 1856. أما الميراث الآخر الذي تركته مراسلة رسل من القرم فليس من الصعب تخمينه: إذ لم يحدث ثانية قط أن ذهب جيش بريطاني إلى القتال دون أن يرافقه نظام رقابة صحفية في الموقع.

غدا رسِل الذي عاد إلى الوطن في شهر آب 1856 مشهوراً، وإضافة إلى ذلك أكثر غنى مما كان يتوقع. فهو بإرسائه أسس المراسلة الحربية، لم يهمل تأسيس واحدٍ من أكثر تقاليدها سخافة، ولكنها الأكثر استمرارية: عجزه عن حساب النفقات التي كان يتقاضاها. وافقت التايمز بسخاء أن تجعل سجلّه نظيفاً (تقليد بين أرباب العمل لم يدم طويلاً)، ومنحته مرتّب 600 جنيه في العام.

وتسنى له وقت قليل للاحتفال. فبعد عشرة أيامٍ من عودته، سافر رسِل ثانية، حيث أرسلته الصحيفة ليغطي تتويج القيصر ألكسندر الثاني في موسكو. ثم يمّم جنوباً ليزور ثانية القرم، ليعود بعدئذٍ إلى لندن ويلقي سلسلة محاضرات. كان الوقت الآن أواخر صيف عام 1857، وشرعت تصل أخبار تمرّد من الهند واعتداءات ضدّ المستعمرين البريطانيين فيما بات معروفاً بالتمرّد الهندي. عُنيت أفظع الأخبار بذبح مئات نسوة والأطفال البريطانيين في كونبور على يد قوات هندية كانت سابقاً في خدمة العرش. قيل إنهم، بعد أن سيقوا إلى «بيت النسوة»، ذُبحوا دون رحمة، لكنهم تمكنوا قبل الموت من خربشة رسائل بدمائهم، رسائل للأجيال القادمة «أوه! يا ولدي! يا رجال دلادي، الثأر!». لم يكن حاضراً آنذاك أي صحفي في شبه القارة، ولذا تم إرسال رسِل. لكنه اشتمّ، حتى قبل وصوله، رائحة مقزّزة وراء الكياسة الكولونيالية فاحت من مسافر آخر على متن سفينته:

«بحقّ جوبيتر، يا سيدي؛ هتف الضابط... بغلظةٍ وعنف، وقد بان كل عرق في جبهته مثل سوط. إن هؤلاء الزنوج لزمرة من الكسالى الحسيين البغيضين... إلى درجة قد تظن معها أنك تدرّب خنازير...».

أضاف رسِل:

لحقيقة، كما أخشى، هي أن من أخذوا على عاتقهم جلب الحضارة إلى العالم... هم بالفطرة أكثر الناس تعصّباً في العالم.

على أي حال، كانت مهمته تغطية الاعتداءات، لا فضح العنصرية؛ وفي رسالته الإخبارية الأولى، كان ثمة نبرة شكٍّ:

مذابح شنيعة للرجال والنساء والأطفال رواها لنا، متبّلة بضروب الرعب، أساتذة مَهَرَة في ذاك النوع من الطبخ، كما لم يتفتق الخيال عن مثلها من قبل قطّ... لم يشك البتّة في صحتها... بيد أنني أردت دليلاً، الأمر الذي لم يحدث. جميع القصص التي سمعناها جاءت من كلكتا، وكان سكان كلكتا بعيدين عن المقاطعات حيث ارتكبت المذبحة الجماعية الغادرة.

حطّ رسِل الرحال في الهند أواخر شهر كانون الثاني، وفي أواسط شهر شباط كان قد شقّ طريقه قاطعاً مئات الأميال إلى كونبور، حيث عثر على دليل على الحقائق الرئيسة. إن لم يكن على الحكايا الخرافية الأكثر شناعة. «واضحٌ بما يكفي»؛ كتب إلى الصحيفة يقول: «إن واحدة من الصيغ التي بواسطتها عقد الزعماء العزم على تحقيق غايتهم كانت قتل كل رجل أو امرأة أو طفل أبيض وقع في أيديهم...». غير أنه أضاف، كان ذلك «مكيدة أحبطتها لطافة الناس في مناسبات كثيرة مشهودة». أما فيما يتعلق بالرسائل المكتوبة على جدران المسلخ فقد أثبت رسِل أنها لم تكن موجودة عندما وصل طابور النجدة، «وبناء عليه فهي لم تكن من عمل أي من الضحايا البائسين».

عندما أتى انتقام البريطانيين كان انتقاماً منفلتاً، وفي نظر رسِل، ذهب إلى حدّ بعيد جداً. كتب عن الجنود البريطانيين والسيخ «الذين أسكرهم السلب والنهب» وهم يسلبون قصور الـ كناو ومعابدها؛ وعن ضابط بريطاني ركض إليه طفل طالباً الحماية، فصوّب الضابط مسدسه إلى رأس الصبي وحاول إطلاق النار عليه أربع مرّات قبل أن يُفلح في المرة الأخيرة؛ وعن مصير واحد من المتمردين الأسرى:

سحبوه من ساقيه إلى مكان ملائم، حيث رُبط، وطُعن في وجهه وجسده بحراب بعض الجنود، في حين جمع آخرون الوقود لأجل محرقة صغيرة، وحين أصبح كل شيء جاهزاً، أُحرِق الرجل حياً! كان ثمة بريطانيون يشاهدون، ورأى ذلك أكثر من ضابط. لم يعرض أحد أن يتدخل! تفاقم رعب هذه الوحشية الجهنّمية بمحاولة البائس التعس الفرار وهو شبه محترقٍ حتى الموت. فقد قفز، إذ استجمع قواه فجأة، بيد أنهم أعادوه ثانية إلى النار وثبتّوه هناك بالحراب حتى فنيت بقاياه.

كتب رسل عن احتلال بريطانيا الهندَ:

... لا أشكّ البتّة أن القوة هي أساس حكمنا؛ لا أرى شيئاً آخر سوى القوّة تُستخدم في علاقاتنا بالرعيّة... ويجثم على تفكيري شكّ تعس فيما إذا كانت الهند أفضل لحكمنا...

عُنيت معظم رسائله الإخبارية الطويلة (وقد كانت طويلة بالفعل، إذ كانت 2500 كلمة إيجازاً آنذاك) بجهود البريطانيين لاستعادة كناو، وبقمع الثورة، وبالغارات المفاجئة (حيث أُنقذ رسل المصاب بفضل حسنُ تدبير خادمه)، وبالاجتماعات مع المسؤولين. استمتع رسِل بهذه المخادنات، ذلك أنه، بصرف النظر عن آرائه المتقدمة، لا يمكن أن يوصَف أبداً بأنه مناهض للمؤسسة، نزعةٌ أثبتها العام الذي تلا عودته من الهند بتأسيسه صحيفة لجيش والبحرية، صحيفة طبقة الضباط الفيكتوريين. وكان ذلك تصرّفاً مدمِّراً نوعاً ما، ولم يكن رسِل قد شرع فعلياً في تأسيس المطبوعة الجديدة عندما طلبت منه التايمز السفر إلى أمريكا، حيث كانت التوترات بين الشمال والجنوب تجرّ البلاد أكثر من أي وقت مضى إلى حرب أهلية. وصل رسِل بتاريخ 16 آذار 1861، ولم يلبث أن أخذه وزير الدولة سيورد إلى البيت الأبيض للقاء الرئيس المنتخب حديثاً.

... دخل رجل طويل ونحيف بمشية متثاقلة ومرتخية وغير نظامية، تكاد تكون مترنحة، يتجاوز طوله ستة أقدام، ذو كتفين محدَودِبين، وذراعين متدلّيتين، تنتهيان بيدين ذات أبعاد استثنائية، كانتا على أي حال، أصغر بما لا يقاس من قدميه. وقد ارتدى بزّة سوداء مجعّدة وغير ملائمة تذكّر المرء بحفّار قبورٍ في مأتم... وفوقها... تنصب

الوجه الغريب اللافت للنظر والرأس المغطى بشعر أشعث فوضوي. كان ذلك الشخص هو الرئيس لنكولن. إن أي امرئ يلتقي الرئيس لنكولن في الشارع لم يكن ليعده «جنتلمان»... لكن، في الوقت ذاته، ما كان بمقدور أكثر المراقبين لامبالاةً أن يمرّ به في الشارع دون أن يلتفت إليه.

...أخذني السيد سيوارد بعدئذ بيدي، وقال: اسمحوا لي، سيدي الرئيس، أن أقدم لكم السيد رسِل من التايمز اللندنية؛ وبناء عليه مدّ السيد لنكولن يده بطريقة بالغة الودّ، وقال: «سيد رسل، سعيد جداً بمعرفتك وبرؤيتك في هذه البلاد. التايمز اللندنية واحدة من أعظم القوى في العالم -والحقّ، إني لا أعرف أي شيء آخر يفوقها قوّة- باستثناء المسيسبي، ربّما».

مـيحٌ سياسي طبعاً، ولعل لينكولن كان يأمل أنه بإشاعة البهجة في قلب أشهر مراسلي التايمز، ثمة فرصة لقلب دعم الصحيفة النافذة للانفصاليين. لكن وكما تبيّن لاحقاً، لم يكن ثمة فرصة؛ وكان هذا، مضافاً إليه صدق رسل في أرض تثمّن الموالاة أكثر من الحقيقة، سيسبب له متاعب جمّة.

كـن أول عمل رئيس يقوم به هو أن يطوف الجنوب. إذ حضر مزاداً لبيع العبيد، الأمر الذي أثار ثائرته، والتقى جيفرسون ديفيز، زعيم الكونفدرالية، وبعد شهرين عاد إلى نيويورك، وقد تعلّق بالقضية الاتحادية تعلقاً متميزاً، على عكس صحيفته. لم يلبث أن صار لديه أول حادث مهم يرسله: معركة بُل رَن، صراع يُنظر إليه الآن على أنه هزيمة اتحادية. بيد أن ذلك، على أي حال، لم يكن كيف رأت بعض الصحف الشمالية المعركة. فبالرغم من أن الـ وورلد وتريبيون النيويوركيتين نشرتا تقارير عن انسحاب اتحادي فوضوي، إلا أن المبادرة الفدرالية السباقة في نشر تقرير عن نصر عظيم ضلّلت صحفاً كثيرة. ولذا، فعندما وصل إلى المدينة تقرير رسِل عن فرار الشمال من المعركة، في عرضٍ مشوّش بدايةً، ومن ثم في تقرير موسع (...انسحاب جبانٌ، هلعٌ بائسٌ غير مبرّر -على الرغم من أنه حذّر القراء ألا يعلقوا وزناً كبيراً على الهزيمة)، ذمّوه هو، بوصفه ممثلاً لصحيفة أجنبية تدعم الانفصال. كتبت شيكاغو تريبيون:

...ليس لأي حادث مما يرويه أساس في الواقع. وقالت مجلة كينكر بوكر: إن رسل قاد فعلياً الانسحاب، ووافقتها في ذلك نيويورك هيرالد. وبصرف النظر عن نيويورك تايمز وإقرار الجنرال شيرمان بتقرير رسل، فقد نبذه المجتمع، وتلقى تهديدات بالقتل، وأهانوه ودفعوه بالمناكب في الشارع. التمس الحماية في السفارة البريطانية، وحاول التواري عن الأنظار بعض الوقت في إيلينوي (حيث اعتُقل وحوكم بإضلاقه النار يوم السبت)، وأمضى إجازة في كندا. لكن ذلك لم يتوقف. فبعد انقضاء سبعة أشهر على معركة بُل رَن، كانت الهيرالد تصفه بأنه «أوضع رجل في العالم، أخلاقياً وذهنياً»، مضيفة بعد ذلك بأسبوع أنه كان سيُقتل أو يُشنق لو أنه عُثر عليه يتسقط الأخبار على مقربة من معسكراتنا؛ بل لقد زعمت، بتاريخ 22 آذار، أن رسل استخدم معلومات سرية من السفارة البريطانية للمضاربة في أثناء فضيحة ترينت. حرَمه خمسة جنرالات من تصريح دخول إلى الجبهة، ولخوفه أن يُقتل غدراً حتى لو نجح في ذلك، فقد قرر إلغاء المهمة. وقد لعبت صحة زوجته السيئة دوراً في ذلك (توفيت بعد ذلك بخمسة أعوام)، وهكذا، بالرغم من الالتماسات من لندن بأن يبقى، أبحر عائداً إلى الديار في نيسان عام 1862.

وسَمَتْ هذه المرحلة الحزينة ذروة نجاحه في مسيرته المهنية بوصفه مراسلاً. وحلول عام 1870، والحرب الفرانكو - بروسية وكومونة باريس، كانت أمارات التقدّم في السن قد بدأت تظهر على رسل. وكانت ثمّة سلالةٌ جديدة من المراسلين الشباب، أمثال أريغباند فوربس من الـ ديلي نيوز، برعت في الاستفادة استفادة كاملة من التلغراف، وفي إرسال صورة مجعدة عن خبر عاجل من أول مكتب تلغراف يصلونه. أما رسل، في هذه الأثناء، فقد فضّل تقاريره التي تروّى فيها، والمكتوبة بخط اليد، والمرسلة بالبريد. وعلى الرغم من أنه كان لا يزال بمقدوره تقديم رسائل إخبارية حرّيفة تلهب العواطف (من الإسكندرية كتب أن المصريين أحقّ بسيادتهم الوطنية، مذكّراً قرّاءه القابعين في دَعة)، بيد أنه لم يعد بمقدوره المنافسة بوصفه مراسلاً إخبارياً. ولذا بعد أعوام قليلة، لم يعد رسل مراسلاً بدوام كامل. فترشّح للبرلمان، وتزوج كونتيسة، وقدّم للتايمز مراجعات لكتب وأخباراً منوعة (حيث جال

أنحاء الغرب الأمريكي في ستينياته)، واستمر في تحرير صحيفة الجيش والبحرية. وقد رُفع إلى رتبة فارس عام 1895 للخدمات التي قدّمها للجيش، وتوفي بعد اثني عشر عاماً، قبل شهر واحدٍ من عيد ميلاده السابع والثمانين.

يبدو رسل الآن شخصاً من عهدٍ سحيق، بوصفه راوية لحقائق تقضّ المضاجع، ومتحدياً الأهواءَ التي نتشبّث بها، ورجلاً قلّ نظيره. وتذكّرنا تقاريرُه من القرم والهند والولايات المتحدة أن المراسلة المهمة حقّاً هي عملٌ ليس قوامه البحث والدقة ورباطة الجأش فحسب، وإنما هي فوق ذلك كله، عملٌ ينطوي على شجاعة أخلاقية.

obeikandl.com

إدنا بوكانان

2

إدنا بوكانان

1939 -

أفضل مراسلة مختصّة بالجرائم

كان ياما كان في أربعينيات القرن العشرين، وفي نيوجرسي، عاشت فتاة صغيرة تعشق القصص. لم تهوَ قصص الأميرات والمهور والحكايات الخرافية، وإنما أغرِمت بقصص الصحف، التي تحكي عن أناس لم يحاولوا أن يختاروا النهايات السعيدة جداً. أناسٌ مثل جورج متسكي «المفجّر المجنون»، والمجرم لوسيانو «المحظوظ»، وويلي سوتون «الممثل» لصّ مصرف بالغ المهارة ميت الضمير. كان هؤلاء، كما كتبت بوكانان لاحقاً، أمراء الظلام في طفولتها، وقد وجدت في حكاياتهم دائماً نوعاً من الرومانسية والمغامرة، افتقدتها في حياتها الفتية. فقد فرّ والدها من المنزل وهي في السابعة؛ تاركاً إياها ووالدتها تكافحان للبقاء؛ وقد افتقدت الانسجام في محياها، إذ إنها أطول كثيراً من بنات سنّها وترتدي ثياباً مستعملة. ولم تكن جيدة قطّ في الحساب. «لن تحصّلي أي شيء على الإطلاق»؛ قالت لها معلمة الرياضيات في المدرسة الابتدائية ذات مرّة أمام الصفّ برمته، «حتى إنك لن تصبحي ربة منزل صالحة». ضحك الصفّ، واضطُرت الفتاة الصغيرة إلى الجلوس وهي تُعمِل التفكير، تُرى ماذا سيفعل المفجّر المجنون بالمعلمة لو عرف فقط كيف أهانت معجبته الصغيرة؟

ولحسن الحظّ كانت هناك معلمة أخرى اسمها إدنا ماي تونيز، تعلّم الفتاةَ عاشقة القصص اللغةَ الإنكليزية. وذات يوم عندما كانت الفتاة في سنّ الحادية عشرة، كتبت قصة من تأليفها. راقت القصة كثيراً للآنسة تونيز، فاستدعتها وجعلتها تقطع وعداً أمام الصفّ

برمّته أن تهدي كتاباً إليها ذات يوم. شبّت الفتاة، واتّضح أنّ معلمة الرياضيات كانت على حق. إذ سرعان ما وقعت الفتاة في المتاعب، فظهر اسمها لدعسها رجلاً كهلاً بسيارتها على الصفحة الأولى من صحيفة محلية في باترسن، موطنها نيوجرسي. وتتالت أخطاؤها اتباعاً واحداً تلو آخر، وبمرور الوقت، ووفقاً للتنبؤات، كادت أن تغدو نكرة تماماً. لكنها عندئذٍ، في عشرينياتها، قصدت ميامي واكتشفت مدينة جديدة تعجُّ بأمراء الظلام. وهذه المرة كان هؤلاء الأمراء قصصها التي ترويها؛ ذلك أن فتاة العصابات التي عُنّفت أمام الصف برمّته لكونها تخلو من خصال الفتاة الناجحة غدت، ببعض الالتواءات والمفاجآت غير المتوقّعة، صحفيّة أولاً، ولاحقاً، ربما أفضل مراسلة مختصة بالجرائم.

كان اسم إدنا بوكانان على قصة في ميامي هيرالد، خصوصاً على الصفحة الأولى في صحيفة يوم الأحد الحافلة بما يمتع، إشارةً للقراء ليسكبوا لأنفسهم بعض القهوة ويستريحوا في كرسي ويدخلوا عالماً أدّت فيه الغيرة أو الشهوة أو الجشع أو ثلاثتها مجتمعةً إلى تشوهات مستديمة وجثث حتماً. ولأجل الساعين وراء الإثارة والتشويق في فلوريدا، تمكّنت بوكانان من احتلال صدارة الملذات التي تجعل الشفاه تتلمظ، مثل قصة استُهلّت في العام 1985: «أمورٌ مريعة تحدث لأزواج الأرملة إلكن» وطالب مدرسة في سن الثانية عشرة لديه كل ما يرغب فيه أعدم أخاه البالغ من العمر تسعة أعوام، ثم كَمِنَ لوالدته سيدة المجتمع المخملي وأرداها، (1983)؛ «أسموها عملية بياض الثلج؛ لأن المخدر هو الكوكايين، ومن بين المتهمين سبعة رجال شرطة من ميامي»، (1982)؛ رأت إنجل أغوادا غريباً يمرّ في غرفة مكتظّة بالناس. التقت عيناهما. بيد أن اللحظة أُفسِدت عندما أطلق زوجها النار عليها ثلاث مرات، (1985)؛ كان في معصمها رولكس مذهّبة ومرصّعة بالألماس، وفي رأسها رصاصة (1984)؛ والأكثر شهرة من ذلك كله، في آذار 1985، المحكوم السابق الذي أرداه حارس أمنٍ قبل أن يطلب وجبته في مطعم الأطعمة السريعة: «غاري روبنسون قضى جائعاً».

لم تبدأ قصصها جميعاً مثلما تبدأ رواية ما، بيد أن معظمها عَمِل لإقناع القراء أنهم كانوا بصحبة مراسل متسلح بحسّ إخباري بقدر ما هو متسلح بعينٍ نهمة تتوق توقاً شديداً إلى حبكة واعدة. وفي ميامي في السبعينيات والثمانينيات، لم يكن ثمة نقصٌ في خامات

القصص. فقد كانت هناك المرأة التي خططت لجريمة اغتيالها، فاستأجرت مهاجماً، وزرعت أدلة؛ كي تلفّق التهمة لشابين كانا على عداء مع ابنها؛ وضحية الاغتصاب التي كانت تجري محزونة في الشارع، صادفت ضحية اغتصاب أخرى تجري في الاتجاه المعاكس؛ والرجل الذي ملأ منزله بغاز البروبان من صهريج سعته 50 غالوناً، ثم انتظر حتى عادت زوجته، فأشعل عود كبريت ونسف المنزل فصُرِع وزوجته؛ والرجل ذو الاثنين والسبعين عاماً الذي فرّ من المنزل؛ لأن والدته ذات المئة والأعوام الثلاثة لم تشترِ له سيارة؛ والرجل الذي قتل جاره في شجار على قصاصات شجيرات السور الفاصل بين منزليهما؛ والرجل الذي قتلته رصاصة أُطلقت قبل أحد عشر عاماً؛ والأم التي لفّقت لابنها البالغ عامين تهمة قتل رفيقه في اللعب؛ والرجل العاري الذي رشق الشرطة برأس صديقته المقطوع؛ وطالب المدرسة الثانوية قارئ الكتاب المقدس الذي حَسِبَ أن جدّته هي الشيطان فقتلها؛ وياسينتو روس الذي قتل رجلاً ليكتشف أن باب أمان حديدي قد انصفق وراءه حابساً إياه مع الجثة.

رأت إدنا أول مرة مسرح هذه القصص جميعها عندما كانت تقضي إجازتها صيف عام 1961. دعته مكاناً «وردياً كلّه، متألقاً ومستحمّاً بضوء الشمس»، وكان ذلك، لدى بوكانان، حبّاً من النظرة الأولى. ما كانت زخرفة كعكة الزفاف والمناخ المعتدل ليكونا أكثر اختلافاً من مسقط رأسها الشديد البرودة والمألوف في نيوجرسي. كانت قد تركت المدرسة الثانوية في سن السادسة عشرة، وعملت على الحصّالة في مخزن وولورث، ثم في مخزن آخر، وفي استوديو تصوير، وفي مؤسسة للبيع بالبريد، وفي مؤسسات التنظيف الجاف، وعلى خط التجميع في وسترن إلكتريك، وأخيراً، في وظيفة مكتبية بدوام جزئي في مقرّ الشركة. وبالنظر إلى شخص حَلَمَ بالكتابة، كان ذلك ضرباً مأساوياً من الوجود ومراوحاً في مكانه، لا يعاش إلا بأكثر الطرق تمحّلاً. باختصار وبطريقة غير متوقّعة أخبرت زميلةٌ في العمل بوكانان أنها أرادت تعلّم فنّ تصميم القبعات النسائية في المدرسة الليلية. انطوى ارتداء القبعات، وبدرجة أقل من تصميمها وتصنيعها، على قليل من الإثارة، لكن فور سماعها أن ثمة مقرراً دراسياً في الكتابة الإبداعية متوافراً، وافقت بوكانان على مرافقتها. وهناك استمعت، وكتبت قصصها، ونالت إحدى هذه القصص

ثناء الأستاذ أمام الصف. انتهى المقرر واستأنفت حياتها، بيد أن ذلك كان أول مؤشر على أنها، بوصفها فتاة راشدة، قد تغدو شيئاً ما.

في ميامي، بينما كانت تنزل في فندق مواجه للمحيط، رأت أن قصتها إن كانت ستصير قصة كئيبة، فربما يجدر بها أيضاً أن تعيشها في مناخ دافئ. وإذ عادت إلى بيترسن فقط لترحل عنها بصورة نهائية، فقد أسرعت ووالدتها عائدتين إلى ميامي واتخذتاها مستقراً لهما. لم يمضِ وقت طويل قبل أن تنضم إلى مقرّر كتابة ثانٍ، وقد حقق لها ذلك شيئاً ما هذه المرة. فقد التحق أيضاً بالمقرر محررٌ في صحيفة صغيرة تدعى ميامي بيتش ديلي صن، وإذ تأثر إما بكتابتها أو بإصرارها ومثابرتها أو بسحنتها الشقراء، اقترح عليها أن تتقدم إلى وظيفة مراسل صفحة المجتمع الشاغرة. وكان الأمر، حيث أعطوها مادّة صحفية عن مناسبة اجتماعية في الكنيسة؛ كي تعيد صياغتها، فحولتها إلى مادة يمكن الاستفادة منها، وحصلت على الوظيفة. وبالطبع، الصحف التي توظّف عاملاً سابقاً في الويسترن إلكتريك غير مؤهّل وتمنحه وظيفة مراسل لم تكن صحف الصفّ الأول، وبالتأكيد لم تكن الـ صَن كذلك. فقد كان عدد النسخ التي تبيعها 10,000 نسخة فقط، والأجور التي تدفعها أخفض من أيّ حدّ أدنى تحدّده النقابة، وعدّت الوقت الإضافي شيئاً لا يحصل إلا في المباريات الرياضية. ولم يكن هناك أي تخصص متقن في الـ صن. بل تكتب، وتدق على الآلة الكاتبة، وتنضد الصفحات، وتضع العناوين العريضة، وإن لزم الأمر ترشو متشممي الأخبار وتكتب أيضاً رسائل للمحرّر. وبعبارة أخرى، كانت الـ صن، لدى شخص مثل بوكانان جاهل بكّل شيء بيد أنه جاهز للعمل كالمسعور، مكاناً مثالياً.

كانت رئيستها الأولى مود مَسينغيل، نوع من لويلا بارسونز لكنها أخلاقية ذات ضمير. أشرفت مسينغيل، بوصفها محرّرة صفحة المجتمع، على تغطية مآدب الغداء والحفلات الراقصة الخيرية وحفلات السواريه ومآدب العشاء وحفلات الاستقبال. كلّ ذلك مجتمعاً حيث تمر سيدات المجتمع المحلي بالصحيفة ويدعون مود إلى مأدبة عشاء قائلات: «تعالي بوصفك صديقة فحسب. دعي دفتر ملحوظاتك في المنزل. نرغب في حضورك؛ لأننا نحبك». وإذا ما أخبرتهن مود أن لديها مواعيد سابقة، ردّت مضيفة الحفل خائبة الرجاء: «هلا

أرسلتِ مصوراً على الأقل؟ وهو ما فعلته مود في الغالب. وهو أحد الأسباب في أن أدهى لصوص المجوهرات نظروا إلى عمود مود وما فيه من معلومات إيضاحية كمن يودّ تقديم هدية إلى كاتالوج بعض المخازن، وقد أخبروا بوكانان بهذا بعد سنوات.

في منتصف الستينيات، انتقلت بوكانان إلى المراسلة العامة والسياسة والجريمة والمقابلات ومراجعات الأفلام. وفي ثمانية أشهر غدت وحدها طاقم المراسلة بأسره في الصحيفة دفعة واحدة. تقول فيما يلي:

ذات ليلة، في الساعة الواحدة صباحاً، انتصب فوق مكتبي محرّري تِد كريل، رجل لطيف لكنه سهل الانقياد، وقد لاحت على وجهه أمارات المحتاج بشدّة [كتبت لاحقاً]. طلبَ ما يطلبه الجميع. مزيدٌ من المواد المعدّة للطبع، مزيد من الأخبار وَمزيد من القصص. كان لا يزال ثمة فراغ يتعين ملؤه. وكنت أعمل منذ الساعة السابعة صباحاً، ولم أتناول العشاء بعد، ويجب عليّ العودة إلى الصحيفة عند الساعة السابعة صباحاً. «لا أستطيع»؛ جأرت. تهاويت، وقد هدّني التعب، على آلتي الكاتبة القديمة البالية وطفقت أبكي. بيد أنه لم يرحل. «قصة واحدة فحسب»؛ توسّل إليّ، «قصة واحدة فقط». كانت قبضتاه السمينتان مضمومتين بقوّة، وركبتاه مثنيتين، وأخذ يهتف بعبارات التشجيع كما لو أنني ملاكم أسكرته اللكمات على الحلبة. «قصة واحدة فقط». جلست منهكة، أقلب بأصابع مخدورة صفحات كرّاسي، ووجدت قصة أخرى.

على ي حال، لم يكن حماسها المشبوب موضع شكّ. فعندما كان كالفن تريلينغ يقوم عام 1986 ببحث في سيرة بوكانان لصحفيّي نيويوركر، روت له امرأة عملت ذات مرة في الـ صن عن يوم ظهرت فيه جثة متآكلة على الشاطئ: «كان لدي كاميرا... فقال المحرر التنفيذي: «اذهبي والتقطي صوراً للجثة». فقلت: «لن ألتقط صورة لجثة متآكلة!». عندئذٍ تناهى إلى أسماعي صوت من الطرف الآخر للغرفة يقول: «أنا سأفعل». كان ذلك الشخص هو إدنا.

وإذ بدا أنّ عقد الستينيات ينقضي ببطء، كانت إدنا تنضج أكثر فأكثر للقيام بنقلةٍ إلى صحيفة لا يكون فيها ملء الثغرات في صفحات الأخبار معتمداً عليها اعتماداً كلياً. كانت

قد قامت بتحرياتها من قبل بشأن الانتقال إلى ميامي هيرالد، وفي عام 1970 كتبت إلى محرّرها جورج بيبي:

عزيزي السيد بيبي،

قبل خمسة أعوام اتصلت بالهيرالد لأسأل عن كيفية التقدم إلى وظيفة مراسل. قيل لي ألا أزعج نفسي بهذا السؤال ما لم أحصل على درجة جامعية في الصحافة أو خبرة خمسة أعوام في صحيفة يومية. ولأنه بحلول 14 آب 1970 أُتمُّ خبرة خمسة أعوام في ميامي بيتش، فماذا عن ذلك؟

إدنا بوكانان

بيد أنها لم تتلقّ أي ردّ طوال أسابيع، ولأن القرار عائدٌ إلى محرر أخبار المدينة ستيف روجرز، لذا، كتبت إليه:

عزيزي السيد روجرز،

قدّاسات؟!

إدنا بوكانان

فما كان منه إلا أن اتصل بها في اليوم الثاني ليسألها متى تبدأ.

كان للهيرالد التي انضمت إليها في أواخر صيف عام 1970 غرفة أخبار في الطابق الخامس بدت لها بحجم قاعة كارنيجي. بيد أن بوكانان، على أي حال، أخذت معها إلى الـ هيرالد عادات صحفية مغمورة، فانتزعت قصّة تلو أخرى، وكتبت كثيراً منها إلى درجة أن زملاءها الجدد رأوا فيها تهديداً لمعدّلات إنتاجيتهم المنخفضة. وشيئاً فشيئاً، تعلمت المرأة التي أدارت بمفردها غرفة الأخبار ذات مرة أن تضبط إيقاعها. وكان أحد نجاحاتها المبكرة قصة عن أمير الظلام الكهل ذاك في طفولتها، ويلي سوتون «الممثل»، الذي تدرّج في الأربعينيات من عامل تنظيف للنوافذ إلى عامل توصيل للورود، ليُريح في النهاية المصارف من سيولتها. وفي حين كان قد حُكِم عام 1952 بالسجن ثلاثين عاماً على الأقل، فقد أُطلِق سراح صاحب الذوق الرفيع والأسلوب المميز في عيد الميلاد عام 1969 لأسباب صحيّة، ونُقِل من السجن على كرسي متحرّك، وقد أمسى أشيب الشعر ضعيفاً ومصاباً بانتفاخ

الرئة كما قيل. سَرَت شائعات أنه يعيش مع ابنته في سراسوتا، وعلمت بوكانان من مراسل تلفاز ثرثار أن سوتون وافق على لقاء معه يُصوّر في فندق محلي. ساعدها ما قرأته عنه في الماضي، وتذكرت بوكانان أن من عادات سوتون الاستيقاظ باكراً. لذا، قصدت الفندق في الوقت المناسب، وحين توقفت سيارة إلى جانب الطريق، قفز منها سوتون مرتدياً سترة قشيبة، وبدا أنه استعاد عافيته بأعجوبة. سمح لإدنا بوكانان أن تقوده إلى المقهى، وهناك روى لها كل شيء، وفي ذلك مشروعاته لتصوير إعلانات تلفازية لشركات بطاقات الائتمان. كتبت بوكانان القصة على آلة كاتبة قديمة وراء طاولة الاستقبال في الفندق، ثم أرسلتها للنشر، وكانت في أكشاك الصحف قبل زمن طويل من بثّ محطة التلفاز تلك المقابلةَ «الحصرية».

في هذه الأثناء، كانت بوكانان تبني شيئاً فشيئاً صيتاً يقوم على استمرار النوعية، أمرٌ لم تقدّره حقّ قدره إلا عندما دلف أحد المراسلين متمهلاً إلى غرفة الأخبار، وقال إنه رأى للتوّ سيارة فولسفاغن تضطرم فيها النيران على الطريق السريع، وتساءل من باب الفضول فقط هل يرغب أحد في الاتصال لمعرفة هل هناك إصابات؟ ثارت ثائرة المحرر وسُمِعَ، في أثناء الهرج والمرج الذي تلا، يقول إنه لو شاهدت إدنا بوكانان السيارة المحترقة «لكانت الآن على ذلك الهاتف تتصل بألمانيا، تتحدث إلى العامل على خط التجميع الذي جمّع تلك السيارة!». في عامها الثاني، بدأت بوكانان بتغطية جلسات المحكمة، فأجرت لقاءً مع سحاقية من خبدة الشيطان طعنت صديقها الكهل 57 مرّة، من بين مجرمين آخرين مشهورين. جعلت أعمالٌ من هذا القبيل بوكانان تدرك أن الصحيفة، بافتقارها إلى مراسل جريمة متفرّغ تماماً، لم تكن تحصل إلا على الخاتمة القانونية لهذه القصص، لا على بداياتها التي غالباً ما تكون مشوقة. لذا، اقترحت عام 1973 على القسم المختص بأخبار المدينة أنه يجدر بأحدهم إجراء اتصالات يومية بأقسام الشرطة، فيتوثق من التقارير، ويمرّ من حين إلى آخر بالمشرحة للاطلاع على آخر الواصلين. «يبدو هذا جيداً»؛ قال محرّر أخبار المدينة ستيف روجرز، وهو لا يكاد ينظر إليها، «لم لا تقومين به؟». وهكذا غدت بوكانان مراسلة الجريمة في مدينة ستغدو، في أثناء السنوات القليلة القادمة، مهرجاناً مستمراً للجرائم والجنايات الخطرة.

كانت جريمتها الأولى هي إدوارد بيتشر، وهو تاجر كتب دينية متقاعد قُطعت رحلة عودته من عطلة في نيوجرسي بوحشية عندما ضُرِبَ حتى قضى نحبه على الرصيف بعد أن نزل من سيارته التي ركنها للتوّ. وازداد عدد جرائم القتل كثيراً بعد ذلك وغدت أكثر حماقة بكثير. ومن بين قصصها كانت قصة الرستفاريين[1] الذين كانوا يقودون سيارتهم بسرعة 63كم/سا عندما قرر واحدٌ منهم يجلس في المقعد الخلفي أن من المناسب إطلاق النار على رأس السائق؛ والرجل الذي قُتل وهو في طريقه لاستشارة عرّاف بشأن مستقبله؛ وآخر قتل ابنته بسبب فاتورة هاتف؛ والعريس في شهر العسل الذي تسلل، بينما كانت زوجته نائمة، لمواعدة بائعة هوى، فسلبته ما معه وقتلته؛ والصبي ذو الأعوام الخمسة الذي دفع عامداً رفيقه ذا الأعوام الثلاثة من الطابق الخامس ليلقى حتفه؛ والشابة التي أحسّت أن صديقها «استغلها» فضربته حتى قضى بالأوزان التي كان يستخدمها كي يبقى رشيقاً؛ ومقتل وإصابة مشاهدين أبرياء لا يحصرهم العدّ، وتجار مخدرات منافسين، وضحايا سرقة وأزواج وزوجات كُثُر. وقد ضمّت مدينتها بالتبني أمراء ظلام جدداً، ظلامٌ بعضهم كان دامساً بالفعل. وكان أسوؤهم روبرت كار، المريض النفسيّ الأشعث الشعر النَّمِشَ الوجه الذي قام بمساعدة سيارة، جُهِّزت بطريقة لا ينفتح فيها باب المسافرين من الداخل، على اختطاف خمس عشرة ضحية واغتصابها وتعذيبها، وقتل أربعاً منهم (ثلاثة أطفال وأمٌّ لثلاثة أطفال). كان، كما كتبت، أكثر مخلوق شرير قابلته قطّ، وهو حُكْمٌ لم يأت من فراغ؛ لأنها توصلت إليه بعد أن قضت في زنزانته 120 ساعة أجرت في أثنائها لقاءات معه لمصلحة صحيفتها؛ ولأجل أوّل كتُبها: خمسة أعوام من الاغتصاب والجريمة، الذي نُشِرَ عام 1979.

بحلول عام 1981 كان قد ارتفع معدّل الجريمة في إقليم ديّد إلى 621 سنوياً، بعد أن كان 211 قبل أربعة أعوام فحسب. وكان على الفتاة التي لم تعرف العدّ أن تتعلمه الآن. «معدّل الجريمة في ديّد يبلغ مستويات جديدة»، هكذا استهلت واحدة من قصصها في حزيران العام 1980، «بعد أن خلّفت موجة من العنف غير المبرر أربع عشرة ضحية وخمس إصابات

(1) Rostafarians: جماعة دينية في إفريقيا والكاريبي تبجّل إمبراطور إثيوبيا السابق هيلاسيلاسي، تحرّم الشعر وتشدّد على ثقافة السود وهويتهم. (م)

في أثناء خمسة أيام». وفي أثناء عامٍ واحدٍ بلغت الأمور مبلغاً كانت فيه، كما كتبت بوكانان في قصة اشتهرت في أنحاء العالم، مشرحة إقليم دّيد غاصّة بالجثث إلى حدّ اضطر معه المسؤولون لاستئجار شاحنة تبريد من برغر كينغ لاستيعاب الفائض. حتى عندما كانت الغوصى العارمة في ذروتها، إبّان التداعيات المباشرة التي سببها وصول الدفعة الأولى من المهاجرين بحراً من كوبا عام 1980، عقدت بوكانان العزم على تسجيل كل جريمة. قالت لتيريزا ويفر من أتلانتا جورنال كونستيتيوس في مقابلة عام 2003: كان المحررون يقولون: «لا تغطّي سوى الجريمة الرئيسة لهذا اليوم». لكن كيف لي أن أختار الجريمة الرئيسة لليوم؟ رأيتُ أنه يجدر بهؤلاء الناس جميعاً أن يكونوا في الصحافة الرسمية وأن نحملهم، بالأبيض والأسود، في وعينا إلى الأبد. كنا ندين للضحايا بذاك القدر، عنى ذلك الدخول في جدالات مع المحررين (قواعدها الثلاث في المراسلة: «لا تتقي قطّ بمحرّر، لا تتقي قطّ بمحرّر، لا تتقي قطّ بمحرّر». وعنى حشرُ ستّ جرائم أو سبع أخرى في كلّ قصة؛ لكنها قامت بذلك. وعنى أيضاً الاتصال بمئات الأقارب، مهمة عافتها نفسها، بيد أنها قامت بها على الرغم من ذلك، بإحساسٍ مفاده أنها كانت، في الغالب، تمنح الأسرة فرصة رؤية محبوبها قد عاش حياة تستحق أن تُسَجَّل، وأن وفاته تستحق أيضاً أن تُذكر في الأخبار. كانت طريقتها، التي أخذها عنها مذّاك جيلٌ من المحررين الشباب، طريقة بسيطة؛ تتصل، وإذا ما أغلق أحدهم السمّاعة أو شتمها، انتظرت دقيقة واحدة ثم تتصل ثانية وتقول: «أظن أن الاتصال انقطع». وهذا الوقت الفاصل كان يسمح للشخص أن يفكر ثانية، أو يسمح لقريب آخر، ثرثار أكثر، بالرد على الهاتف.

ارتبط كثير من الجرائم بالمخدرات، هذا الموضوع الذي يجري في مقالاتها كما يجري جدول مسموم. عندما قصدت بوكانان ميامي أول مرة، كانت المخدرات تعني بضع سجائر مبهجة. بيد أن موادَّ أخرى تسلّلت، وبدأ الناس يجنون أموالاً طائلة، وسرعان ما أخذت خصرمات العمل تُسوّى بما هو أكثر من تبادلٍ حادّ للرسائل. في مطلع السبعينيات، جرّتها تغطية أخبار الجريمة إلى أول غارة لها على المخدّرات. كان ذلك في قاعة بلياردو في أوبا-لوكا، منطقة صغيرة شمال غرب دّيد، وقبل أن تذهب، رتّب المحرر الليلي الأمر لطبيب مقيمٍ شاب يدعى هيرب؛ كي يراقب لاسلكي الشرطة ويخبر المكتب إن حصل أمرٌ غير

متوقع. وبينما كَمِنَتْ بوكانان برفقة رجال الشرطة في الأكمة خارج القاعة، بانتظار اللحظة المناسبة للتسلل، كان هيرب في المكتب يتنصت على اللاسلكي، ولا يسمع شيئاً. وإذ خشي أن يكون قد أضاع دليله، اتصل بالشرطة ليتحقق هل الغارة قد وقعت. «أيّ غارة؟» أجابوه، كما هو متوقّع، ولذا اتصل هيرب المتشوق أن لا يفوته أي شيء في القاعة، وسأل: «ألم تصل الشرطة بعد؟». نعود إلى بوكانان ورفاقها المتخفّين الذين رأوا، من وراء الأكمة، أناساً يلقون أنفسهم خارج أبواب القاعة ونوافذها كما لو أنهم أُحرِقوا توّاً. ومن داخل البناء، تناهى إلى أسماعهم صوت دورات المياه، وهي تُغسَلُ بالماء المتدفّق مرة إثر مرة.

عام 1979 تورّطت عصابات المخدرات في منافسة إجرامية إلى درجة صار معها من الأنسب وصفُ بوكانان بأنها المراسلة الحربية في الـ هيرالد. لنسمع هذه القصة التي كتبتها في شهر تموز من ذلك العام عن عصابة الكوكايين الذين قادوا شاحناتهم المصفحة المغلقة إلى مجمّع ديّد لاند عند الظهيرة، ومن فتحات البنادق التي انفتحت على جانبي الشاحنة، أمطروا المكان بنيران بنادقهم نصف الآلية، مخلّفين وراءهم ليس عدداً من القتلى والجرحى فحسب، وإنما أيضاً عدداً من شاحنتهم. كانت الشاحنة تحتوي صدريات مضادة للرصاص، وما يزيد على دستّة بنادق، وآلاف من مظاريف الذخائر، ومن ضمنها طلقات بنادق الخردق المعدّلة لتحمل أشرطة طلقات. وعلى جانب الشاحنة كُتب بخطّ جميل: «تجهيز حفلات أفراح كاملة». لم تلبث بوكانان، التي لم تعتمد في قصصها قط على تصريحات الشرطة للصحافة، أن دخلت مسرح الجريمة، حيث لاحظت مُلصَق التاجر على جانب الشاحنة، فعادت إلى المكتب واتصلت به قبل أن تفعل الشرطة، واقتفت أثر الكولومبي الذي اشترى الشاحنة أخيراً ودفع ثمنها نقداً. تكرّرت قصص مخدرات مشابهة في أثناء عقد الثمانينيات: عصبة مدمنات المخدرات ومن بينهن روزي روي، التي هتف لها الجمهور وحيّاها بوصفها الفائزة في ماراثون بوسطن عام 1980 إلى أن عُلِمَ أنها دخلت إلى المضمار قبل ميل واحدٍ من خط النهاية؛ وبغل المخدرات الذي قضى عندما رَشِحَ بعض من الاثنين والثمانين واقياً ذكرياً المملوءة بالكوكايين التي ابتلعها (بدأت قصّتها بـ: «كانت وجبته الأخيرة بقيمة 30,000 دولار وقتلته»)؛ من عام 1983: «تمّت يوم الجمعة مصادرة ما يكفي من حبوب الهلوسة القوية لتغيير مزاج مليون شخص...»؛ ومن كانون الثاني

عام 1984، قصة تبدأ على النحو الآتي: «أسهم في إرساء صفقة كوكايين ضخمة، ويجيد الإنكليزية والإسبانية. اكتشفَ المفتشين المتخفيّن في الخارج وأطلق تحذيراً، مسبباً تبادل إطلاق نار بين المشتبه فيهم والشرطة. صبي في السادسة من عمره».

ومن ثمّ كان هناك مرتكبو جرائم الاغتصاب في المدينة: المنديل، المصباح، مغتصب حي كورال غيبلز، ذو السن الفضي، المظلة وكيس المخدة. رأت شرطة ميامي نشاطات بعض هؤلاء بوصفها سرَّ دولة، الأمر الذي كان مثار صراع حقيقي بينهم وبين بوكانان. خذ مثلاً عصفور الطريق الذي لفتت اعتداءاته الستة عشر نظرها لا بسبب التماس رسمي للشهود، وإنما بسبب كلمة حصلت عليها من مصدر سريّ في الشرطة. وعندما بدأت تستقصي معلومات، اعترضت الشرطة، واتصل ضابط مسؤول بمحرّرها طالباً منه وأد القصة. بيد أن القصة انتشرت، وتقدمت النساء بإفادات شهود، وكان المتهم في السجن قبل انقضاء الأسبوع. الشيء نفسه حصل لكورال غيبلز المغتصِب، فقد علمت بوكانان أن لدى الشرطة رسماً مركباً له. طلبت الرسم، فقيل لها: إنها لا تستطيع الحصول عليه. كتبت بوكانان هذا، فاعترضت جماعات النساء، وأُرغمت الشرطة على نشر الرسم، مرفقاً بوصفٍ لقميص الرجل المميز الذي طُبعت عليه من الأمام كلمة جوجو. صباح ذلك اليوم، دلف شابٌ إلى مخفر شرطة على بعد عدّة أميال من كورال غيبلز، واعترف بسرقته محفظة فتاة الليلة الفائتة. كان يرتدي قميصاً كُتب عليه جوجو. أخذ الرقيب المناوب التفاصيل ومن ثمّ خرج في دورية. وعندما عاد إلى منزله، فتح صحيفة ذلك اليوم ورأى قصة بوكانان مرفقة بوصفٍ لقميص. وفي أثناء ساعة، أُلقي القبض على كورال غيبلز المغتصِب ووُجّهت التهم إليه.

وعلى الرغم من أن عمل المراسلة المتطفّل الذي قامت به بوكانان كان بلا شك ذات العمل الذي قام به المراسلون في السابق ممن كانت لديهم بطاقات صحفية مدسوسة في شرائط قبعاتهم، إلا أن بوكانان عملت بطريقة مختلفة جداً. لعلها صرفت وقتاً في الجدال مع رجال الشرطة ومضايقتهم؛ كي تلقي نظرة على تقاريرهم والتسكع خارج مخافرهم وخارج المشارح، بيد أن بوكانان اعتادت أيضاً التنصّت على لاسلكي الشرطة، وكانت تتصل بالهاتف على نحو دائم («مرحباً، أنا إدنا، ما الذي يدور هناك؟»)؛ وبالطبع، لم يكن لديها

طاولة في ركن المخفر، وعندما يتورط بعض رجال الشرطة أنفسهم في مشكلة صغيرة كان يعني هذا طمس المعلومات. فكانت إدنا تفشي المعلومات ما إن تحصل عليها، سواء كانت كشف قضية شرطي الدورية الذي تحرّش بفتاة في الحادية عشرة داخل سيارته وخرج من القضية بلا سجل إجرامي وبتعليق للعقوبة فقط، وتفاصيل الكارثة التي جرى طمسها (إذا ما كان القاضي قد تناول قصّتها بالنقد الشديد، فإنّ تحقيقاً مستقلاً أثبت صحتها لاحقاً وتمّ سجن الشرطي)؛ وكتبت عن الفساد الذي استشرى بين السلالة الجديدة من محققي الجرائم المتأنقين (تعلّمت ألا أثق قط برجلٍ أظافره مدرّمة أفضل من أظافري)، وقد أدّى تحقيقها إلى أسوأ أحداث شغب عنصرية تشهدها ميامي.

بدأت تلك القصة بتاريخ 21 كانون الأول عام 1979. عندما رن هاتف بوكانان وسُرِّب إليها أن رجال شرطة بيض من قسم السلامة العامة، طاردوا آرثر ماك دوفي، تاجر تأمين أسود يركب دراجة آلية، فألقوا القبض عليه وضربوه. نُقل ماك دوفي إلى المستشفى بسرعة، بيد أنه لم يلبث أن فارق الحياة. أصرّ رجال الشرطة أنه قضى في حادث سير. بيد أنه لم يفعل، قال مصدر بوكانان، بل ضُرِبَ حتى الموت بمصابيح رجال الشرطة المعدنية الثقيلة، ثمّ لفقوا مسرح الجريمة؛ كي يبدو كما لو أنه قضى في حادث.

اتّصلت بوكانان بالمشرحة، ثم بقسم الشؤون الداخلية في قسم السلامة العامة (حيث قالوا: إنه مجرد حادث بسيط)، وعاودت الاتصال بالمشرحة ثانية. بعدئذٍ قصدت قسم السلامة العامة فاستمعت إلى أشرطة المطاردة، وقرأت تقارير رجال الشرطة. تـرّفت بعضهم بوصفهم متورطين في دعاوى سلوك وحشي في الماضي. وتفحصت أيضاً غرفة القَطْر التي أزالت الحطام وطافت في أرجائها. أروها دراجة ماك دوفي ولاحظت كيف تحطم زجاجها جميعه (المعدات، الأضواء... إلخ). قصدت المشرحة أيضاً لحضور فحص الجثة. لم يُسمح لها بالدخول، بيد أنها انتظرت النتائج التي كانت ملتبسة: إما اصطدامٌ عنيف بـ«جسم صلب»، أو أن المصابيح هي ما حطم جمجمة ماك دوفي. ثم قصدت موقع الحادث. لم يكن هناك أي إشارة على وجود «جسم صلب» قد يكون ماك دوفي اصطدم به. زارت أسرة ماك دوفي، واتصلت بجميع رجال الشرطة المتورطين. بيد أن أحداً منهم لم يعاود الاتصال بها. تحدثت إلى رجال الشرطة الذين تعرفهم، بيد أن أحداً لم يبلّغ عن القضية بعد.

عندئذ كتبت قصتها، التي كاد محرّرٌ عصبيّ المزاج أن يحيّدها تماماً، بيد أن ما يكفي منها يقي ليوحي لأي شخص مطّلع أن من كتبتها هي مراسلة من غير الممكن أن يذهب فضولها سدى. نُشرت القصّة عشية عيد الميلاد. وفي أثناء ساعات معدودة، طلب رجل شرطة مقابلة رئيسه ليخبره أنه شَاهَدَ الضرب. في اليوم الثاني، جرى وضع اليد على دراجة ماك -وفي بوصفها دليلاً، وعُلّق بعض رجال شرطة عن العمل. بعدئذ اعترف الشرطي الذي كتب تقرير الحادث إلى نقيبه بأن تقريره مزوّر. وانهار السدّ. فقد بدأ تحقيقٌ كامل بالجريمة، وهو ما فعله أيضاً التوظيف العنصري والسياسي في محصلّته. وبعد أربعة أشهر، في تامبا، خضع أربعة رجال شرطة للمحاكمة، ثلاثة منهم بجريمة القتل، والرابع بجريمة قتل من الدرجة الثانية. بيد أن هيئةً محلفين جميع أعضائها من البيض برّأتهم من التُّهم. وفي أثناء ساعات، كانت القضية قد ألهبت المشاعر ثم أججّتها نتيجةُ المحاكمة، فثارت نوبة عنف في شوارع ميامي. وعندما انقضت كانت قد خلّفت 18 قتيلاً وما يزيد على 350 مصاباً و600 معتقل. بيد أن أحداً لم يُدَن قط بمقتل آرثر ماك دوفي. وهو يُذكر اليوم بمسيرة ليلية على ضوء الشموع، ومركز خيري أسري يحمل اسمه.

لعلّ رجال الشرطة أفلتوا من القانون، غير أنّ بوكانان ظلّت تلاحق قضيتهم. فبعد أربعة أعوام أوردت تقريراً عن تعليق الشرطي الذي أوقف آرثر ماك دوفي تلك الليلة عن العمل بسبب سلوكه الوحشي، وتابعت تحقيقها في ملابسات الحادث. وعلى الصفحة الأولى بتاريخ 28 آب 1983، ظهرت قصّتها عن إطلاق النار على أحد المشاهدين الأبرياء:

أطلق أحدهم النار على مايكل جونسون. يقول الشاب إنه شرطي من ميامي. وتقول الشرطة إنه شرطي من ميامي. بل ويقول بعض رجال الشرطة، تحت القسم: «معروف من أطلق النار على مايكل جونسون».

...اختفت الأدلة وتلاشت الوثائق واستقال رجال الشرطة، بيد أن أحداً لم يُتّهم قطّ. ثمة الآن اتهامان بالتستر وحديث عن تقرير «ملفق».

وإذ يقف واحدهم إلى جانب شريكه في موقع الحادثة، يخفق رجال الشرطة في تذكّر الأحداث ذاتها. يقسم أحدهم أنه لم يسمع إطلاق نار؛ يقول شرطي آخر برفقته: إنه

سمع ما يقارب عشر طلقات. ترفض النائب العام جانيت رينو النقاش في المسألة، وتقول: إن مساعديها أيضاً لا يزالون يحققون في الأمر. بيد أن هذا ليس ما قالته مساعدة رينو، آبي ليزر، أمام الشرطة قبل أشهر خلت...

استمرّت القصة، واستمرت معها في ملفّات الشرطة تقاريرُ قضائية مطوّلة وإفادات وطردٌ من العمل. لا عجب أن يقول لويد هيو، وهو تحرّي جرائم في ميترو ديد، لصحيفة نيويوركر: «إنْ حدث وارتكبت أمراً ما، فلا أريد أن تحقق في قضيتي إدنا بوكانان. لست أخشى شعبة الشؤون الداخلية، أما إدنا بوكانان...». قال إيميت ر. باركر، ضابط الشرطة، ببساطة: «إدنا هي ألطف محقق قابلته على الإطلاق». وباختصار شديد، كان باركر زوجها الثاني. أما الأول فكان محرراً في صحيفة الـ صن يُدعى بوكانان. كانت النهاية سريعة لكلتا العلاقتين، نتيجة انغماسها بطريقة أو بأخرى في عملها على مدار الساعة، واعترفت لاحقاً. وفي مقابلة عام 2003 قالت: «أدركتُ في أواخر السبعينيات أو مطلع الثمانينيات أن عملي هو الشيء الوحيد الذي جلب لي لذّة حقيقية».

كانت إدنا بوكانان في ذروتها في مطلع الثمانينيات، وفي أثناء السنوات القليلة اللاحقة تتالت قصصها الرئيسة. إحداها من كانون الأول عام 1982:

سرق جيرالد إيوجين ستانو مالاً؛ كي يدفع لفريق الجري خاصته ليركض خلفه عندما كان تلميذاً بديناً. وعندما كان عروساً شاباً، خنق كلب زوجته البودل. وبوصفه مجرماً مُداناً، فهو غير مؤهل لإطلاق سراح مشروط حتى يبلغ المئة والأعوام الثلاثة.

إن كان جيرالد إيوجين ستانو كما يزعم، فإنه يكون أكثر القتلة إنتاجاً في أمريكا. فبلوغه الآن الحادية والثلاثين، يقول إنه قتل 93 امرأة منذ عام 1969...

جمعت بوكانان أجزاء قصّة الصبي المُتبنّى الذي لم يُظهِر أي مشاعر تجاه الناس، وإنما تجاه الأشياء فحسب، مُستخدمةً تقارير أربعة متخصصين بالأمراض العقلية ومحلّل نفسي، إضافة إلى إفادات ستانو نفسه إلى الشرطة. اعترته ثورات الغضب بمجرّد تحريك قطعة أثاث من مكان كان يعده مكانها الصحيح، وأطلق إنذارات الحريق في المدرسة، وحطّم سيارة الأسرة في السادسة عشرة من عمره، وبنى بمراهقةٍ معُوقة، وطُرِدَ على نحو متكرر

نتيجة الكذب أو السرقة، وتزوج، فقتل حصان والد زوجته، وضرب مسافراً متطفلاً حتى فارق الحياة بعد شهرٍ واحدٍ من زواجه، وانغمس في فورة قتلٍ لم تنته إلا باعتقاله. انتهت قصتها- كانت بوكانان قد استعدّت بفقرة أخيرة بارعة بقدر براعة افتتاحيتها- باقتباسٍ عن رجل شرطة: «فيما يتعلق بجيرالد، فإن القتل حاجة. ولو أُطلق سراحه غداً لعاد إليه مباشرة. ليس مجنوناً، وإنما هو شخص وضيع. هوايته القتل». عندما أُعدِم عام 1998، كان ستانو قد اعترف بإحدى وأربعين جريمة.

و قصّة أنثى قاتلة من آذار 1983:

جميلة وودودة ومتشوقة إلى العودة إلى المنزل برفقة معارف ذكور جُدد. إنها قاتلة. تريد الشرطة أن تعثر عليها قبل أن تقتل أحداً آخر.

يمكن أن تكون إنجي أو جيني أو ديبي أو ماري. تلك هي الأسماء التي استعملتها مع أربعة من ضحاياها. فقد اصطحبتهم إلى المنزل ودَسَّت في شرابهم مسحوقاً أبيض مُرّاً. انهاروا فجأة، ولم يقووا على الحركة، ثم غطّوا في نومٍ عميق لا أحلام فيه، ليستفيقوا جميعاً بعد تسع إلى أربع عشرة ساعة، بأوصالٍ مرتعشة وقد جرّدتهم نقودهم ومجوهراتهم وأشياءهم الثمينة الأخرى.

بعد أقلّ من أسبوع، اعتُقِلت ماري غونزاليس برفقة صديقها ريتشارد كاريرو. وكان أحدهم قد قُتِلَ فعلاً: امرأة في السادسة والسبعين، خنقها كاريرو عندما سئما انتظار أن يفعل المخدّر فعله. ومن أيار 1984، مؤامرةٌ شبه كاملة:

لولا زلّة لسان واحدة لكانت «الجريمة الكاملة»... فقد قُتِلَ رجل غني ووالدته الهرمة ودُفِنَا عميقاً في باحة منزله الأمامية. يضطلع أحد القتلة، إذ يتصرف على أنه المتوفى، بأعماله فيبيع زورقه وأسهمه وسنداته ومنزله وممتلكاته. دون أن يسأل أحد عن الضحايا. ويحيا القتلة في المنزل بحرية، على ما يبدو...

غير أن أحد المتآمرين حكى لأحد الأصدقاء، الذي حكى لصديق آخر، الذي بدوره حكى لصديق ثالث، ومن ثم اتصل أحدهم بالشرطة، التي اقتحمت المنزل واعتقلت المجرمين. وبعد مدة قصيرة كتبت بوكانان القصة الكاملة.

ومن تشرين الثاني 1984، جريمة لواط:

كانا زوجاً غريباً: مصفف الشعر الخبير وحاشيته من زبوناتٍ مخلصات، ورجل ذي شعر أشقر أشعث وسخ، معقوصٍ وراء ظهره في تسريحة هواةٍ كانت لتوقع الرعب في قلب أي محترف.

كان ذلك تصديراً كلاسيكياً عُرفت به إدنا بوكانان: استخدامها التفاصيل كي تعلّق، قصة شوّقت القراء في البداية وعذّبتهم في الوصول إليها ثم قُدّمت لهم. لم يكن التفصيل شيئاً لقّمها المحسنون في الشرطة إياه بالملعقة، بل كان شيئاً انتقته ببحثٍ استحواذيّ شديد العناية بالتفاصيل. ماذا كانت الضحية ترتدي؟ ماذا وُجد في جيوبهم؟ هل كان هناك أي وشم؟ ما الأغنية التي كان المذياع يبثّها؟ ما الفيلم الذي شاهده قبل مقتله مباشرة؟ هل كان يرتدي ساعة يد؟ هل هناك أيّ نقش أو كتابة؟ فعلت هذا لكتابة قصّة آسرة، بيد أنها آمنت أيضاً إيماناً ملتهباً بأن تفصيلاً كهذا يمكن أن يسهم في حلّ القضايا. في تموز 1983، على سبيل المثال، استهلّت إحدى قصصها كما يلي: «كان ثمة وشم زهرة على كتفه وقد مات ميتة عنيفة. ذلك هو كلّ ما تعرفه الشرطة عن رجل تعمل على حلّ جريمته». و كتبت بعد خمسة أسابيع: «الرجل المجهول صاحب الوشم، الذي ألقى به قاتله في مصرف مياه يقع مباشرة على جانب طريق ترابيّ منعزل ومملوء بالحفر، تعرّف إليه أقارب له كانوا قد قرؤوا في الصحيفة وصفاً لرسم الزهرة المعقّد على كتفه الأيمن. وفي آذار 1985، استهلّت قصّة عن لغزٍ قُدّر له أن يُحلّ بسرعة: «كان العرض المزدوج هو علاقات عامة وَرغبات أمريكية. وكن ذلك آخر عرض سينمائي يحضره رجل مجهول عُثر عليه ميتاً في زقاق بالقرب من مسرح بوسي كات إكسريتد قبل وقت قصير من استعراض فيفي رويال. سردت إدنا بوكانان قصّة تاريخه الطبي (مشكلات في القلب وجراحة في الدماغ ويعاني عسر هضم)، والمبلغ الموجود في محفظته (62.37 دولاراً)، وعمره وطوله ووزنه وملابسه وصفاته الجسدية (مدوّر الكتفين)، وماركة سجائره (سالم)، وعلكته المفضلة (ريغلي بالنعناع)، وعدد المفاتيح في حمّالته (خمسة)، وساعة وصوله إلى لسينما، ومن اللافت للانتباه قارورة دواء باسم شخص آخر. ومن غير المستغرب أن تعرّفَ ذوو الرجل إليه في أقل من يوم.

ثمّة قصص أخرى لا تُعدّ ولا تُحصى: سائق سيارات السباق المليونير الذي انقلب إلى قاتل متسلسل، ولغز الهيكل العظمي في غيلدز عام 1986، والمليونير الذي تزوج أربع مرات والذي خُنق في جناحه في فندق فاونتن بلو هيلتون، وكثيرٌ من هذه القصص التي تحمل تلك العلامة الفارقة: تصديرٌ من سطر واحد. كانون الثاني 1985: مَن الرجلُ الذي يرتدي ثياباً سوداء؟ ولِمَ كَمِنَ لقذيفة المدفع البشرية؟ شباط 1988: «دام زواج فينسينتو كوينتو الأول 62 عاماً. أما زواجه الثاني فانتهى بعد ستة أيام». ومن تموز عام 1985، قصّة لعلها الأكثر تميّزٌ بين قصص بوكانان، تقرير خاصٌ بصحيفة صباح الأحد :

أمور مريعة تصيب أزواج الأرملة إلكن. أحدهم قتل الزوج الرابع، سيسيل إلكن، بدا رأسه مهشّماً بمقلاة في أثناء مشاهدته ضفينة أسرية على شاشة التلفاز. الزوج الثالث، ساموبل سميليتش، أُغرق في قناة معشبة جنوب ديد. الزوج الثاني، لورنس مايزر، لا يزال مفقوداً... الزوج الأول، واين وايز، طُلّق منذ قرابة 52 عاماً خلت، ولا يزال حياً وبصحة جيّدة.

المرأة التي تزوجها هؤلاء هي مارغريت لوسيل لفينغستون وايز مايرز سميليتش إلكن. إنها، إذ تبلغ الآن السادسة والأربعين، أنيقة بتكلّف، تتردد على كنيسة من أتباع الطريقة الميثودية، أصلها من كارولينا الجنوبية. تخبز فطائر التفاح، وتخيط وتتدرب في نادي فيتال ليدي في هومستيد... وتروي لصديقاتها ربات البيوت قصص العنف والشذوذ الجنسي التي تُدهشهنّ. بل لقد ألمحت ضمناً لإحدى الصديقات أن الكوكلوكس كلان مسؤولة عن مقتل زوجيها الثالث وَالرابع.

ومقاومة إغراء الاستمرار بالقراءة تطلّبت قوّة شخصية تفوق ما لدى معظمنا. انتهت القصة باقتباس من الزوج رقم واحد: «إنها سيدة غاية في الرقة والفتنة والإيمان، والخجل أيضاً. وأُلحّ على كلمة سيدة. لم تكن لتقتل ذبابة...».

لم ينفك أمراء الظلام أولئك عن الظهور فجأة وبطريقة غير متوقعة، بيد أنها تعلّمت ألاّ تجد فيهم بعد الآن ذاك القدر الكبير من الرومانسية. ثمة رجال مثل جاك، «ميرف ذي سيرف»، موريغ، الطفل المعجزة عازف الكمان السابق مع أوركسترا بتسبرغ السيمفونية

الذي صادفته أول مرة في مطلع الستينيات عندما ارتدى ثياب مهرّج البلاط؛ كي يسلّي السيّاح بحركاته البهلوانية الجريئة في الغطس. انحرف بعدئذ إلى الرذيلة، فسرق نجم الهند من متحف التاريخ الطبيعي في مدينة نيويورك، وسُجِنَ. وعندما أُطلِقَ سراحه، كانت بوكانان حاضرة لتغطي لصحيفة صَن عودة لصّ المجوهرات المزّاح المظفّرة إلى الديار. وقد كانت حاضرة أيضاً، بعد سنوات عدّة، عندما اعتُقل هو ذاته وحوكم واتُّهم بالسطو المسلح وبجريمة قتل من الدرجة الأولى لشابتين وقعتا في درب طمعه. وحضرت أيضاً، في منتصف الثمانينيات، إطلاق سراح هذا اللص من حكمين رئيسين بالمؤبد. وكتبت لاحقاً: «ميرف ذا سيرف اهتدى إلى المسيح في السجن. هذا ما يحصل عادة».

وفي حين كان ميرف يهتدي إلى الإيمان ويعثر على أساسٍ لاهوتي لإطلاق سراحٍ مشروط، كان العالم وراء ميامي يشرع في اكتشاف بوكانان. قدّم كالفن تريللنغ لمحة مختصرة عن حياتها في الـ نيويوركر في شباط عام 1986، ووقّعت معها راندوم هاوس عقداً لتأليف كتاب عن تجاربها بوصفها مراسلة مختصة بالجريمة. ثم نالت، في نيسان 1986، جائزة البوليتزر للمراسلة العامة. قالت بوكانان: إنها تقدير لجميع المرسلين الباحثين عن سبق صحفي، بيد أن هذا كان واحداً من تعليقاتها التي لا يمكن الوثوق بها. فقد كانت الجائزة، بدل ذلك، اعترافاً بمراسلٍ يعيش وظيفته في مختلف أوجه حياته، اقترن جمعه الدؤوب للتفاصيل (اطرح سؤالاً واحداً بعدّ، واطرق باباً واحد بعد، وأجرِ اتصالاً واحداً آخر. فقد يكون ذلك السؤال أو الطرْقة أو الاتصال هو الأهم..) بمقدرته على الإمساك بتلابيب القارئ في التصدير بموهبة قصٍّ نادرة. وهذه مهارة فائقة وظّفتها منذ ذلك الحين في كتابة قصص الجريمة، فأنتجت إحدى عشرة رواية بحلول ربيع عام 2004.

كان الكتاب الذي ابتدأت فيه مسيرتها هذه بوصفها مؤلفة متفرّغة (لا تزال تكتب بين حين وآخر صفحة الجريمة لصحيفة الـ هيرالد) هو مجلّدها الأول من حكايات المراسل. وقد عنونته «للجنّة وجهٌ مألوف»، تصدير كانت استخدمته لجريمة قتل بائعة الهوى نيولا كونفينغتون، في آذار 1986. وبهذا الكتاب، حفظت وعداً قطعته قبل قرابة أربعين عامٍ. فقد

كانت معلّمة الرياضيات مخطئة، بخلاف معلّمة اللغة الإنكليزية التي كانت على حق. حيث خطّت على الصفحة الآتية لصفحة العنوان، إهداء إلى إدنا ماي تونيز، التي شجعتها على الكتابة، والتي توفيت بعد مدة قصيرة في سن الثامنة والأربعين. وهذه لمسة تميّز بوكانان تماماً المراسلة التي عرفت على الدوام كيف يجدر بالقصص أن تنتهي مثلما عرفت كيف يجدر بها أن تبدأ.

obeikandl.com

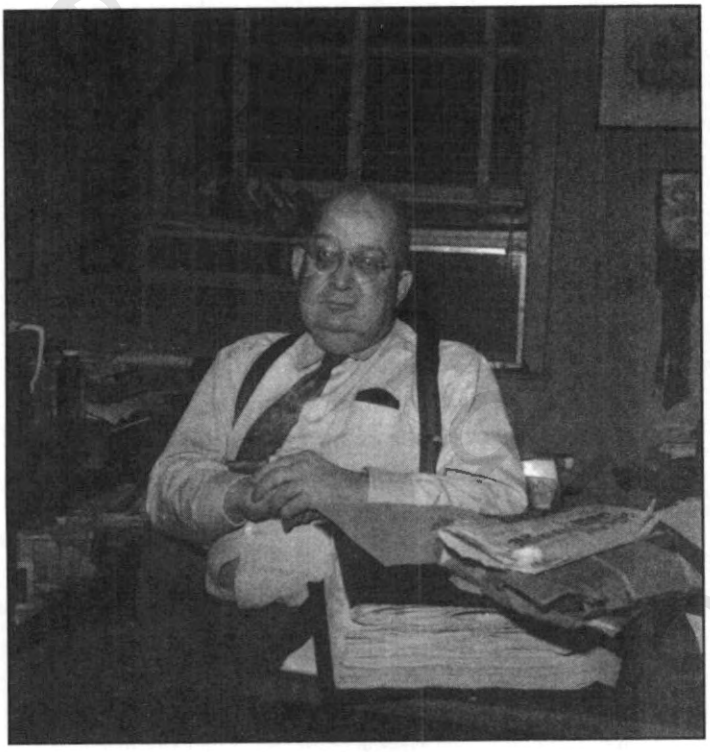

أ.ج. لايبلنغ

3

أ.ج. لايبلنغ

1904 - 1963

الظريف المشهود له وفقاً لمعايير الكتابة

يقول المثل، داخل دُرج كل مراسل ثمة رواية نصف مكتوبة، معظمها لا ينجز أبداً، بل يبقى قابعاً في الدُّرج (وفي عقل المراسل) شأن نصيحة قديمة. يُنشر بعضها، وقلة من هذه تصيب ضرباً من الخلود: ساعي البريد يدقّ دوماً مرتين (جيمس م.كان، فقيد نيويورك وورلد)؛ ذهب مع الريح (مارغريت ميتشل، مراسلة سابقة في أتلانتا جورنال)؛ إوزة الثلج (باول غاليكو، كاتب عمود الرياضة في نيويورك ديلي نيوز)؛ سلسلة جيمس بوند (يان فلمنغ، مدير العلاقات الخارجية سابقاً في صنداي تايمز)؛ حكايات ديمون رنيون (مراسل نيويورك أمريكان)؛ جاك لندن (مراسل كوليير بين مجلات أخرى)؛ توم وولف (مراسل نيويورك هيرالد تريبيون).

لكن سواء أُنجزت هذه المخطوطات نصف المكتوبة أم لم تُنجز، ففي نهاية المطاف ما يكمن خلف سعي المراسلين الحثيث لتسلّق أقل منحدرات الأدب ارتفاعاً ليس فكرة كسب المال، إنما فكرة أن أدب الخيال كتابة أسمى من الصحافة. لذا، يكتب أولئك ممن يقدرون على الكتابة؛ أمّا من لا يقدرون فيكتفون بالعمل الصحفي. وفي بريطانيا، يُنظَر إلى مهنة المراسلة التي قضيت حياتك فيها بوصفها مجرّد رسم دخول، وحين يصل الأمر إلى الكلمات، لا يعود بمقدورك تماماً استجماع قواك لقطع مسافة كتاب. حتى في أمريكا، حيث بمقدورك أن تحصيب شهرة ثقافية على الأقل من هذا الضرب أو ذاك في اللا-أدب، تبقى فكرة تجميع مادّة كتاب هي عمل أرفع مقاماً من محاولة أسر الواقع.

إن ذلك لمفهومٌ متناقض تعتنقه الديمقراطيات بإصرار عظيم، وأكثر غرابة منه ما يعتنقه أولئك الذين يعيشون بيننا ممن فضّلوا القبض على الحياة كما تُعاش، في مقابل الحياة المُتخيّلة. وليس هو المفهوم الذي يقوم على أي أساسٍ عقلاني، كون الصعوبة التي تنطوي عليها محاولة البحث في الواقع وتصويره هي تحدٍّ يساوي على الأقل إعادة ترتيب «الوقائع» أو «الشخصيات» التي أوجدها الكاتب. ففي النهاية، ليس على الروائيين سوى أن يلتزموا بحقائقهم هم، وقلّما يتعين عليهم إصدار تصويبات. وواضحٌ أن أي واحدٍ يحاول السجال بأن المَلَكة الأدبية التي تعمل عملها في الرواية العادية هي أرفع مقاماً من المقالة الصحفية العادية لم يَزُر أخيراً مخزن الكتب في أيّ مطار، ولم يقرأ أعداداً لا تُحصى من المراسلين ممن يُظهرون يومياً مهارة مع كلماتٍ يجد فيها معظم الروائيين عائقاً حقيقياً.

ومع ذلك، يتشبّث كثير من الصحفيين بمُعتقدِهم الدونية. لنتأمّل هذا، من صحيفة نيويوركر، يصف سول ستاينبرغ زميلاً موهوباً متميّزاً، يخشى خوض غمار الأدب: كان شديد الشبه براقصة باليه تفضّل أن تمشي»، وبعبارة أخرى: «اختار الطريق الأسهل ولم يختبر نفسه؛ على الرغم من أنه أتقن تلك الخطوات الصعبة جميعها دون أن يتعلّمها». وهذا هراءٌ، بالطبع، خصوصاً أن الرجل الذي يكتب عنه ستاينبرغ هو أ.ج.لايبلنغ، الذي لا يعوزه البتّة أفضل قلم في تاريخ الصحافة. «لَم لا تكتب رواية؟»، كان الناس يسألونه، فيجيبهم: «ماذا؟ وهل تريدون أن ألفّق قصصاً؟». وعندما دُعي؛ كي يعلّق على صديقه ألبرت تامو، هزَّ رأسه وقال: «لقد بدّد طاقاته في الكتابة الإبداعية وخسرنا صحفياً عظيماً».

ولم يكن يخطر في باله قط أن الكتابة يمكن أن تكون بمستوى الناس السخفاء والأحداث السخيفة في العالم الحقيقي. لذا، فقد أفسد لايبلنغ مواهبه في وصف ما وجده هناك: الحياة الوضيعة في نيويورك، الحرب، تفاهات صناعة الترفيه، باريس، الخطباء الشعبيون الذين يدّعون ما ليس عندهم بغية اكتساب النفوذ السياسي، الأفّاقون، الملاكمون ومن يزلّف إليهم، الأطباق المليئة بأصناف الطعام الباهظة الثمن. وقد فعل ذلك بخفّةِ ظلٍّ ميّزته بين من كتبوا للصحافة. فقد دعى، على سبيل المثال، جامعة كاليفورنيا «أكبر مغناطيس للشباب المصاب بالعصبيّ منذ حملة الأطفال الصليبية»؛ وقال إن جلسات استماع لجنة مجلس النوّاب حول النشاطات غير الأمريكية «تذكّره بمجموعة معوقين يلعبون مثل لعبة

ولصوص». ودحض حجة أدولف هتلر بثلاثة أسطر: «لا يمكن عدّ أي رجلٍ زاهدٍ هو رجلٌ عاقٌ. لقد كان هتلر النموذج البدائي للرجل المعتدل. عندما رآه الآخرون يشرب الماء في حانة بير هالي، كان عليهم أن يعرفوا أنه ليس أهلاً للثقة».

لقد فهم لايبلنغ أن المراسلة لا تتطلب خيالاً كخيال الأدباء، بل تتطلب ضرباً مختلفاً من الخيال. ولأنه اقتنع بذلك، فقد كانت المراسلة هي ما كتبه. لذا، لم يكن في دُرج لايبلنغ رواية نصف منتهية، وبدلاً منها مراسلة عالية الجودة، جُمِعت حصيلة مسيرتها التي امتدت قرابة ثلاثين عاماً في ستة عشر كتاباً حتى الآن، ووضع حداً لها موتٌ مبكر. وكما قال الرجل نفسه، في سطرٍ يودّ كل مراسلٍ لو أنه قاله أولاً: «بمقدوري أن أكتب أفضل من أي شخص بمقدوره أن يكتب أسرع مني، وبمقدوري أن أكتب أسرع من أي شخص بمقدوره أن يكتب أفضل مني».

وُلد بوت جوزيف لايبلنغ لأسرة ثرية في مدينة نيويورك يوم 18 تشرين الأوّل عام 1904. كان والده يعمل بتجارة الفرو، تجاوز جشعه في كشط جلود الحيوانات، في تعاملاته التجارية، ليشمل جلود البشر أيضاً. فقد استأجر رجال عصابات لفضّ الاجتماعات الإضرابية، وعندما لاحت له إمكانية تجميد العقارات في الشارع 26 غربي الذي تقطنه المومسات بغالبية عظمى، انضمّ إلى جماعة مناهضة للرذيلة وزوّدها سراً بمعلومات عن أوكار البغاء في الشارع 26، وشاهد أسهم استثماراته تتصاعد عندما تدخّلت الشرطة وطردت المومسات. ونتيجة كانت منزلاً كبيراً في الحي الشرقي الأعلى ومجموعة من الخدم الألمان ورحلات إلى أوروبا وزيارات منتظمة إلى الأوبرا وابناً لا يطلب سوى القليل. ردّ الابن الوحيد هذا السخاء بالتهام ما وقع في طريقه من كتب وثقافة، وبات طالباً نموذجياً في المدارس العامة التي رتادها. في سنّ السادسة عشرة، كان في دارتماوث، وفي السابعة عشرة عُرِف بطرده مرتين لعدم حضوره الكنيسة، وفي المرة الثانية طُرِد نهائياً.

وفي عام واحد التحق لايبلنغ بمدرسة بوليتزر للصحافة في كولومبيا. كانت كتابة القصّة القصيرة طموحه عندما انضم إلى تلك المدرسة؛ لكنه عندما غادرها، بعد عامين، كان قد اكتشف المراسلة. لم يكن اكتشافه هذا عبر تعليم ملهم (عَنوَن ذات مرة فصلاً من كتاب عن كولومبيا «كيف تتعلم لا شيء»)، وإنما عبر طَرْق الدروب واشتمام رائحة قصة بمنخريه. كتب لاحقاً:

راقني صعود سلالم المباني والدخول فجأة على أسر اضطُربت لوقوع بليّة مفاجئة. أعطاني ذلك فرصة الاحتكاك بأناسٍ لم أكن لولا ذلك لألتقيهم قطّ، وسرعان ما تعلّمت ما يعرفه كلّ مراسلٍ، وهو أن معظم الناس يتشوقون إلى الحديث عن مشكلاتهم. ويحسّون بالإطراء فعلاً لوصول الـ وورلد أو الـ جورنال.

كان معلّمه الخاصّ، في تغطيته الصحفية دروبَ الأحياء الفقيرة والرجالَ الذين قام أيضاً بتغطيتهم الصحفية، هو المراسل الأسطوري المختص بالجرائم ماكس فيشل من إيمننغ وورلد النيويوركية.

أنهى لايبلنغ مدّة دراسته التي استغرقت عامين وشَغَل مباشرة وظيفة لم تكن لتتناسب موهبته. كان الجانب الجيّد فيها أنها في قسم الرياضة في صحيفة نيويورك تايمز أما الجانب السيئ فقد كان تحرير المقالات -وهو ما عدّه لايبلنغ صحافة مستعملة. يجد نفسه، كما كتب لاحقاً، «بين مراسلين محبطين عرفوا بالضبط كيف يجدر بهم تغطية قصّة؛ لأنهم لم يغطّوا قصة قطّ». أفعم لايبلنغ بالنشاط والحيوية مدة الضجر والملل تلك بطريقتين؛ الأولى، كانت عندما فشل مراسلو دوري كرة السلة للجامعات في الحصول على اسم الحَكَم، فاخترع حَكَماً اسمه «إيفنوتو»، التي تعني بالطليانية مجهول؛ وكانت الثانية، عندما استدعاه مراسل مغرور ليعطيه مقالة قصيرة عن ترشحه لمنصب ثانوي مع رابطة كتّاب الملاكمة، فأرسل تلك المقالة للتنضيد وقد أعطى الرجل اسماً أو سيطاً جديداً دا وقعٍ فخم وغير حقيقي البتّة. لم يكن محرر الرياضة مسروراً. «الله يعرف ما ستفعله بعدئذٍ أيها الشاب»؛ قال له ذات ليلة في آذار عام 1926، «فأنت شخص غير مسؤول. لست مناسباً لـ تايمز. ارحل».

كانت رود آيلاند، بروفيدانس هي المكان الذي قصده بوصفه مراسلاً في إيفننغ هولتين بأجرٍ أسبوعي قدره أربعون دولاراً، وبعد ساعات قليلة من وصوله إلى عمله الجديد. وجد قصّة مُضارب في العقارات شنق نفسه في زنزاته، فاقتفى أثر أسرة الرجل وأجرى لقاءً معهم وأرسل للنشر أول قصة رئيسة من تأليفه. بعد أسابيع قليلة قضاها في تصيّد الأخبار. خطّ لايبلنغ السطر الذي حدّد اتجاه مسيرته المهنية القادمة. فقد كان يغطي محاكمة سيموند راند، وهو تاجر ألماني يعمل في تجارة الخمور المهرّبة. وعندما داهمت الشرطة منزله تبيّن

أن معملاً للتقطير موجود في القبو. راند، الذي اعتقلته الشرطة عندما كان يقطع شجرة في حديقة منزله الأمامية، زَعَمَ، بطريقة غير مقنعة، أن لا علم له بمعمل التقطير. كتب لايبلنغ: «لعلّه قطع شجرة، بيد أنه ليس جورج واشنطن». ميّزه تعليقه البارع ذاك كاتباً ذا لمسة خفيفة الظلّ، وجرى نقله إلى شقيقة بوليتن اليومية، صحيفة جورنال، حيث حظي بمزيد من الحرية والوقت؛ كي يصقل قصصه.

كان لا يزال في الثانية والعشرين فقط، وكانت خطوته القادمة، بفضل عناية والده الإلهية، أبعدَ من رود آيلاند. فقد قدّم لايبلنغ الأب لابنه مبلغ 2000 دولار؛ كي يدرس في أوروبا. زعم لايبلنغ لاحقاً، بنبرة شبه جادة، أنه كان قد أقنع والده بدفع المال حين أخبره أنه على وشك الزواج بامرأة تكبره بعشرة أعوام كان يتردد عليها، بيد أن الحقيقة كانت، على الأرجح، أن آبوت جوزيف ظلّ الولد الوحيد المُفسَد لرجل متسلّط، وكان ببساطة يجمع ما رآه كلاهما بوصفه حقه الشرعي. لذا أخذ المال، وصرف 800 دولار منه قبل أن تبحر سفينته، ولوى ذراع العجوز ليحصل منه على راتب شهري مقداره 200 دولار. ثم قصد باريس، وهناك حقق في التاريخ، وفنّ العمارة، والأدب الفرنسي في القرون الوسطى، والطعام الشهيّ، والنسوة المتكلفات بأناقتهنّ، ليس بهذا الترتيب بالضرورة. ووقع هناك أسير باريس ومطبخها الشهيّ.

عاد في مطلع صيف عام 1928 للعمل لحساب جورنال، فكتب مزيجاً من التحقيقات والأخبار والمقالات القصيرة. كتب لاحقاً: «عصرتُ النثر حتى استحلبته فسكبته فوق كل ناحية من نواحي الحياة في رود آيلاند». وبحسب السيرة الرائعة التي كتبها ريموند سوكوف، المراسل الضالّ، حياة أ.ج.لايبلنغ، فقد فضح لايبلنغ متخصصاً بعلم الأمراض يحمل أوراقاً ثبوتية مزيّفة، وطاف على قارئي الطالع جامعاً منهم تنبّؤات سخيفة وغطى الزيارة التي قام بها إلى بروفيدانس زارو آغا، رجلٌ تركيّ حافظ على وجهه نضراً على الرغم من ادعائه أنه يبلغ من العمر 156 عاماً. وتحت عنوان: «معمّر يبلغ من العمر 156 يصل بروفيدانس طالباً زوجة وأسناناً ومالاً»، استهلّ لايبلنغ مقالته: «رشيق مثل شاب في التسعين، وصل إلى بروفيدانس من تركيا البارحة زارو آغا ومعه شهادة ميلاد جديدة وجميلة تحيل تاريخ ولادته إلى عام 1774».

وفي صيف عام 1930، وقعت ثلاث نقاط تحوّل في حياة لايبلنغ: فقد استقال عندما عُيّن شريكه في الغرفة؛ ليفسح المجال أمام ابن رجل نافذ على الصعيد المحلي؛ والتقى المرأة التي ستغدو زوجته في المستقبل، فتاة تعمل في مكتب بيع تذاكر السينما اسمها آن ماك غين؛ وانتقل عائداً إلى نيويورك.

سرعان ما اكتشف، شأن كثيرين سبقوه وجاؤوا بعده، أن الشهرة الكبيرة في صحف صغيرة هي سيولة مالية بمعدّل فائدة منخفض في المدن الكبيرة. فقد رفضه محرر تلو آخر. كان أشهرهم ستانلي ووكر من صحيفة نيويورك وورلد. كتب لايبلنغ: «قيل لي إنكم تبحثون عن مراسلٍ جيد. أنا مراسلٌ جيد»، فردّ عليه ووكر بحدّة، لكن بصورة ملتبسة: «إن ما قيل لك خاطئ». حاول أن يُكرِه محرري أخبار المدينة على الاستماع إليه في الحانات، وقام بزيارات طموحة إلى المكاتب، إلى أن قصد أخيراً رسّام لافتات هنغاري، وطلب منه أن يرسم لافتة تقول: «وظّفوا جوي لايبلنغ»، بأحرف برتقالية كبيرة، ثم دفع مالاً لبحّارٍ نرويجي كهلٍ كي يحملها جيئة وذهاباً خارج مكاتب الـ وورلد. لم يكن هذا، كما تبين لاحقاً، أفضل عملٍ حقيّ قام به لايبلنغ. إذ استخدم محرر أخبار المدينة المدخل الخلفي للمكتب، ولذا لم يرَ قط البحّار الكهل الملتحي ولافتته الإعلانية. على أي حال، باع لايبلنغ بالفعل قصّة مناورته تلك إلى محرر وناشر، وإلى قسم أخبار المدينة في صحيفة صنداي وورلد ميترو بوليتان. وشرع في مزاولة مهنة محدودة ومستقلّة: فكتب عن حياة الليل وعن صناعة الترفيه والملاكمة وسباقات المضمار، وأجرى لقاءات مع كتّاب وممثلين طموحين يتوقون إلى الشهرة، مثل شاب اسمه أوغدين ناش. كانت بعض هذه المقالات لحساب صنداي وورلد، حيث حالفه الحظّ بلقاء محررَين قال عنهما إنهما «فعلا الكثير لتخليص كتابتي من الزيادات والزخرفة ولجعلي أُحكِم أسلوبي...».

وما إن خطا لايبلنغ هذه الخطوة حتى بيعت الـ وورلد لـ روي هوارد، الذي دمجها في الـ تلغرام التي يملكها. كتب لايبلنغ أن هذه الأخيرة كانت «صحيفة سخيفة، مكتوبة في قسمها الأعظم بلغةٍ وصفتُها ذات مرة بأنها لغة بيزنطية، بحسب إملاءات مالكها الذي علّق على لوحة الإعلانات بملحوظةٍ تقول: «تذكّروا أن نيويورك هي بغداد تستقل قطار الأنفاق!». بيد أن هذا كان عام 1931، حيث الرضى عن أرباب العمل هو ضربٌ من الرخاء والترف، خصوصاً لدى رجلٍ تتزايد تكاليف علاج زوجته الجديدة التي تعاني اضطرابات عقلية. انضمّ لايبلنغ إلى وورلد-تلغرام بوصفه مراسلاً بأجرٍ أسبوعي قدره 75 دولاراً،

وبدأ يكتب مقالات قصيرة أظهرت افتتانه بالمرضى النفسيين والمجرمين وغريبي الأطوار؛ وهذا ما أعطاه بصمةً خاصة. في كتابه: عودة إلى مسقط رأسي، وهو مجموعة مقالات كتبها في أثناء عمله في الـ وورلد- تلغرام وفي السنوات الأولى من عمله في نيويوركر، نقرأ عن: آي.بيركوفيتز، تاجر العَلَق (العلقة... مقياسٌ لما يطرأ على المجتمع من تغيرات. لو أن الحظر نجَحَ لقلّ عدد السكارى وعدد المشاجرات، ولانخفض الطلب على العلق. ولكن لا، فتجارة العلق مزدهرة)؛ المدرب لويس فان دايكه، مدّرب حيوان الثيتل الإفريقي في سيرك بارنوم وبايلي؛ ساموبل ج.بيرغر، متعهد سباق الصراصير الذي أجّر قردةً لمرضى العصاب في المدينة حيث يمكنهم البوح بمشكلاتهم إلى ثدييات متعاطفة معهم بدل أن يحمّلوها لأطباء نفسيين ذوي أجور باهظة؛ الملقب بـ عمدة شارع ميلبري، الذي أخذ على عاتقه ضبط الرحلات التي يقوم بها الناس إلى جزيرة كوني؛ لأنه ظنّ أن الغطس الزائد في البحر يسبب الروماتيزم. لقد تحلّى لايبلنغ بعين ثاقبة تعرف كيف تنتقي هؤلاء الناس الظرفاء، وبموهبة فريدة منحه الله إياها في الكتابة وصياغة الجملة، وفوق كلّ ذلك، تحلّى بموهبة الإصغاء. وقد لاحظ ذلك زملاؤه واحداً إثر آخر: إذ كان يعرف متى يصمت ويترك موضوعه يتكلم.

كانت النتيجة أن سَكَنَ مقالاته أناس حقيقيون، لم يبرزوا من تصوّر المراسل عن كيف يجد بهم أن يتحدّثوا:

> بطل العالم الأكثر تواضعاً بين جميع من سبق لي مقابلتهم كان شاباً اسمه روبن فيشر من 412 شارع بروم، كان قد قرأ حتى تاريخه 164,444 عدّاد غاز دون أن يرتكب أي خطأ. لقد دعاه مسؤولو شركة إديسون المتحدة ليلقي حلقة بحث لغيره من قارئي العدادات.

قال البطل إن أهمّ نقطة في قراءة العدّادات، هي أن تعثر على العدّاد. وهذا أمر بالغ السهولة... يرى قارئ العداد أموراً كثيرة، بيد أنها ليست من شأنه. ليس هذا الشاب شاباً لعوباً. قال لي: «عندما أعود إلى المنزل أحب أن أرتاح فحسب».

كان هناك أيضاً آخر شاب يثب عن ظهر الفيلة في أعظم استعراض للإخوة رينغلنغ، وقد أوقفه المشرفون عليه الفقرة منذ عام 1908 بسبب عدد الأعناق التي دُقَّت:

جلس تشارلي بِل على خرطوم أحد الفيلة عند أحد مداخل حلبة السيرك، يراقب الفيلة. «لم يقفز أحدٌ من فوقها منذ أربعة وعشرين عاماً»، قال بنبرة إشفاق. «لا أفهم كيف يتعاملون معها. لا شيء يبقي الفيل ساكناً كالقفز من فوقه. إنّ ذلك يجعلها تحسّ أنها ليست بتلك الضخامة».

كان هناك توم ويلسون، سيد زوارق القَطْر:

أنا في الرابعة والسبعين الآن وبمقدوري القفز خارج تلك النافذة ثم أعود قافزاً داخلها. عندما جمّعوني، جمّعوني بصورة صحيحة... عملت في قوارب القَطر عندما كنت في الثامنة عشرة... كان قباطنة قوارب القطر زبدة المجتمع آنذاك. اعتمروا قبعات عالية وحملوا ساعات بسلاسل ذهبية ولبسوا معاطف الأمير ألبرت وارتدوا سراويل مخطّطة، ولم يلمسوا قط الدفّة دون قفازات من جلود الماعز.

وكان هناك بِن غرين، المحترف الأسرع:

ليس مجرّد مُضربٍ سلبي عن الطعام، بل يصوم خمسين يوماً دفعة واحدة...؛ كي يقوم بإعلاناتٍ لأحواض السباحة والمخازن التجارية، على مبدأ من يجلس على سارية العلم نفسه... كان وزني 872 عندما كنت في الثامنة والثلاثين، قال لي ذات مرة: «كنت في طريقي إلى أن أصبح جذع شجرة ضاحك. جربت الحمية ثم جربت التمارين، بيد أن أياً منها لم يساعد، لذا، قررت تجربتهما معاً. وعندما دعتني زوجتي إلى تناول العشاء ذات يوم، ارتديت قبعتي وقلت لها: «بدل تناول مزيد من الطعام، سأخرج في نزهة جميلة مغذّية لاثني عشر ميلاً. وخرجت ثم ذهبت للنوم دون أن أتناول الطعام. صحوت في اليوم الثاني وأنا أشعر بالنشاط، وبدل الإفطار خرجت في نزهة خمسة أميال. وعلى الغداء تناولت نزهة شهية ثمانية أميال، وعلى العشاء ركضت ماراثوناً حلو المذاق على طريق روكواي السريع.

كان الاستثناءان الوحيدان لهذه المصداقية آسا وود وإلمر شبلنغ، شخصيتان خياليتان تماماً ظهرتا في عدة مقالات بوصفهما ضرباً من كورسٍ إغريقي تتفوهان بكلام عاميّ يقوله رجل الشارع. ولحسن الحظ، أقلع لايبلنغ عن هذه العادة السرعة بنفسها التي تعلّم فيها سرّاً آخر تنطوي عليه المقالات النَّوعية: البحث الموسّع، والمفرط كما يراه بعضهم. ولقد أكّد له جمعُه مادةً

تزيد على ما يظنّ أنه بحاجتها لمقالة في صورتها النهائية، أنّ ما يتبقى هو مادة جيدة، وأن بحثه في الموضوع يجب أن يكون على قدرٍ أكبر من الدقة. فعلى سبيل المثال، بدأ ذات مرّة لقاءً مع الممثل الهزلي إدي أركارو بسؤاله: لمَ كان ركابه الأيسر أطول من الأيمن-سؤال قُورن على نطاق واسع بسؤال استهل به مراسلٌ آخر لقاءه مع الممثلة فيفيان لي: «قولي لي، آنسة لي» استهل اللقاء متشوقاً، «أيّ دور تلعبين في ذهب مع الريح؟»، وبهذا السؤال أُفسد اللقاء مباشرة.

في عام 1934، رأى لايبلنغ أنه يستحق أكثر مما يدفعونه له في الـ وورلد-تلغرام، فطلب علاوة، وعندما رُفضت غادر. فقد كانت تكاليف الشيزوفرينيا التي تعانيها زوجته تضغط عليه، وكان قد لمح حياة صحفية مختلفة وأحلى مذاقاً عندما قدّم بين فينة وأخرى مقالاتٍ تقسم «حديث في المدينة» في الـ نيويوركر. وفي أثناء أشهر قليلة، عمل في أثنائها لحساب مؤسسة صحفية يملكها هيرست، كان قد توصل إلى اتفاق مع المجلة التي يملكها هارولد روس. وقد بقي معها، بمعزلٍ عن مشاحنة بسيطة واحدة، ما تبقى من حياته المهنية.

كانت مقالته الأولى للمجلة أقرب ما تكون إلى كارثة. فقد كانت تحقيقاً عن حياة فازر ديفاين، مبشّر أسود ومؤيد مبكر الحقوقَ المدنية، حيث استعمل، بصرف النظر عن أعماله المجيدة جميعها، تبرعات مريديه من الطبقة العاملة ليحيا حياة لا تتميز بإنكار الذات. قام لايبلنغ ببحث سلّط شكّاً عظيماً على حجم مُريدي ديفاين، وتضمّن مقابلات مع متبرعين قليلي الحظ. ثم جلس ليكتب مقاله، فكتب ما وصفه لاحقاً بأنه «كتاب ضخم في الدّين المقارن». حتى لو أخذنا بالحسبان اهتمام لايبلنغ بالموضوع، فقد بدا الأمر مثل حالة تقليدية عن الفتى الجديد في مطبوعة من الوزن الثقيل وقد عمرته فكرة أولئك القراء ذوي الرؤوس الفارغة جميعهم. أنقذت المقال سان كلير ماك كلوي؛ وقام المحررون المشرفون على لايبلنغ بتوجيهه إلى إقليم أكثر ألفةً من الخلاص ومعنى الحياة.

صوال الأعوام الثلاثة الآتية، مسح لايبلنغ الأفق باحثاً عن شخصيات سليطة اللسان وخفيفة الظل، تبعهم إلى حلبتهم بإحكام، ثم دفعهم ليتحدثوا بطريقتهم على صفحات نيويوركر. كان من بينها أوغستين ج.غرينيت، صانع الأعاجيب في مضمارات السباق (معدّل ما يعرفه ناشر الكتب عن الخيول يساوي ما يعرفه أي حيوان عن الجنة)؛ والسيدة سِلمى براتز، بطلة ألعاب الخفة. كانت مهاراتها تلك حصيلة تدريب يستغرق اثنتي عشرة ساعة يومياً (عندما أجلس أحياناً في مطعم، أشرع، وأنا شاردة الذهن، في اللعب بالسكين والشوكة،

وبعدها مباشرة بالصحن - أمرٌ محرجٌ جداً...)؛ وويتني بمستين، أفضل حكم زاوية في الملاكمة؛ والدكتور مارتن أ.كَني، الذي عرض أطفالاً خدّجاً داخل حواضنهم في جزيرة كوني؛ ورسامٌ يدعى أخيل رسم مشاهد للكنائس من الكتاب المقدس، واستخدم الممثلة غير العذراء ميرلي أوبيرون نموذجاً يستعين به لرسم العذراء؛ والبروفسور ألكسندر ماير، بطل العالم في التمايل على الكراسي غير الهزازة (ومخترع البزّة أحادية القطعة رباعية القطعة، لباسٌ ثَبُتَ في النهاية أنه لم يعد رائجاً شأنه شأن التمايل على أرجل كرسيين)؛ وهايمي كاتز، الدلال والمغني السابق ومتعهد نواد ليلية لم يُكتب لها النجاح، الذي رأى أن استثمار أمواله الخاصة في مشروعات كهذه هو أمرٌ لا أخلاقي (هايمي غير متزوج حالياً. فالزوجات عند هايمي بعضٌ أعراض رفاهية، شأن القمصان الأنيقة)؛ ومهرّج السيرك لوتش لاندوف (صعوبة أن تكون مهرجاً مشهوراً في سيرك أمريكي تماثل صعوبة أن تكون مهنياً متميزاً في مصنع سيارات). وجورج أ.حامد لاعب خفة سابق من سوريا، الذي أعاد إلى مسارح المدينة استعراضات متسية مثل لاعب الخفة ألبينو سنسيشن ودببة بالنبرغ العجيبة وفيلة فير وكلاب آلف لويد الممثلة.

وكان هناك أيضاً إيزي بيرشفسكي ومتجره الشهير لبيع السيجار في برودواي، القاصّ بالزبائن أمثال شارلي ثلاثة -ل- اثنين، مقامرٌ كَرِه المباريات الطويلة:

معظم ضيوف إيزي المسائيين -من الخطأ أن ندعوهم زبائن؛ لأنَّ مشترياتهم غير منتظمة البتة- يعتمرون قبعاتٍ لبادية بيضاء، ويرتدون معاطف من طراز يدعونه إنغليش دراب. رجالٌ قصار القامة يطلّون برؤوسهم من بين الأكتاف العريضة لهذه المعاطف، كما لو أنهم أُنزلوا فيها بحبلٍ، وهم الآن يحاولون الخروج منها.

في متجر إيزي، كما في جزيرة بورو في الهند الشرقية وبين شريحة معينة من سكان أستراليا الأصليين، يُعدّ من غير اللائق أن تتفوه بالاسم الحقيقي لأي شخص لئلا تمكّن قوة شريرة من السيطرة على مستقبله. ثم إنه تصرّف فظّ أيضاً أن تسأل زبوناً غاب بعض الوقت أين كان، فلعله كان في هوليوود أو ربما في السجن. فإن كان في هوليوود، فسيقول ذلك من تلقاء نفسه.

بيد أن لايبلنغ لم يكن بارعاً في دراسات الشخصية الغريبة الأطوار وحسب. فقد أطلق عليه شون «أستاذاً في مصطلحات الصحفي». وعندما اندلعت الحرب عام 1939 لم تتردد

نيويوركر في إرساله إلى أوروبا. وصل لايبلنغ باريس بتاريخ 12 تشرين الأول، وطوال الأشهر السبعة التي تلت جمّع ملفات عن الحياة هناك، حياة الناس والمسرح في مدينة تستعدّ بنفسها لهجوم ألماني. أتى أخيراً في أيار 1940:

أُعلنت المرحلة الجديدة من الحرب العالمية الثانية لسكان باريس فجر يوم الجمعة. قصد الناس أسرّتهم ليلة الخميس وهم تنتابهم حالة القلق واللا-يقين المعتادة... ومع انبلاج الفجر اندلع صوت صفارات الإنذار، فأجفلت مدينة لم تكن قد سمعت صوت إنذار نهاراً منذ الأسبوع الأول للحرب. لم تلبث كل واحدة من الساحات السكنية التي لا تُحصى أن غدت شبيهة بمسرح إليزابيثي، وقد احتشدت صفوف من النظّارة في نوافذ المباني جميعها. بيد أنهم بدل أن ينظروا إلى المنصة في الأسفل، نظروا جميعاً إلى الأعلى. ارتدوا جميعهم قمصان نوم تتناسب عكساً مع ارتفاع مساكنهم، فهي أرخص بما لا يقاس في الدورين السادس والسابع مقارنة بالثاني والثالث.

لم تلبث الحكومة الفرنسية أن أخلت باريس، ساحبةً في إثرها لايبلنغ الذي كره المغادرة، وفي أواخر شهر حزيران عاد إلى نيويورك. وبوصفه كاتباً صحفياً فقد غدا عمله أن يصوّر المناخ العام والشخصيات، وأن يقلع عن كتابة الأخبار، وقد شكّلت قوامَ الحرب خاصته سلسلةٌ من القصص تدرّجت من مانهاتن إلى حيث كانت الحرب تدور. وفي تموز 1941، أُرسِل إلى لندن ليغطي الغارات، فاستخدم ذلك قاعدةً لكتابة مقالات أخرى، وعاد بعدئذ إلى الوطن. وبعد نصف عام كان مرة أخرى في لندن، ومنها أبحر، في تشرين الثاني عام 942 ، برفقة فرقة المشاة الأولى؛ ليغطي غزو شمال إفريقيا. عاد إلى نيويورك في أيار عام 943 ومكث فيها ستة أشهر، ثم عاد إلى لندن ثانية. كانت مهمته هذه المرة أن يلتحق بأسطول الغزو النورماندي، الأمر الذي فعله مكرهاً، حيث عبر القناة الإنكليزية على متن مركب إنزال كتيبة المشاة رقم 88، وتعرّض لنيران كثيفة عندما أُنزلت القوات التي كانت على متن مركبه على شاطئ أوماها. كتب بمصطلحات نموذجية عن تبخيس الذات:

... نظرت أسفلَ إلى ظهر المركب، ورأيت رجال كتيبة الشاطئ يمضون قدماً، فعرفت أن الشاطئ يجب أن يكون في الأسفل. تناهى إلى أسماعي صياحٌ طويل: تقدموا الآن! تحرّكوا، كما لو أن صاحبه يفرغ حمولة مركب في جزيرة كوني. بيد أن الرجال لم يكونوا بحاجة إلى التشجيع، فقد كانوا يتقدمون دون أي إحجام. لم نعد مضطرين

الآن إلى البحث بعيداً عن الطلقات الخطاطة، فألصقنا ظهورنا أنا وكالام قيالة حجرة القبطان وابتلعنا بطوننا، كما لو أننا نعطي بذلك الطلقات بضع إنشاتٍ زائدة. دغدغ شيء ما مؤخرة رقبتي فصفعته بيدي واكتشفت أن معظم حبال المركب قد تنت حول رقبتي وكتفيّ، مثل شخصية في فيلم قديم عن معمل سباغيتي، أو مثل الكايتن هوراشيو هورنبلوَر. كانت الطلقات قد مزّقت الحبال...

لم ينزل لايبلنغ إلى الشاطئ في ذلك اليومَ، بل عاد إلى لندن وأرسل تقريره، ثم عَبَرَ إلى فرنسا بتاريخ 24 حزيران؛ كي يلحق بالركب المتوجّه إلى باريس. كان واحداً من أوائل المراسلين الواصلين إلى المدينة، حيث قصد مباشرة الفندق الذي غادره قبل بضعة أعوام. كتب يقول: كانت مِلّ إيفون جالسة وراء المكتب تراجع حساباتها. قالت لي، دون أن ترفع نظرها: «صباح الخير، سيد لايبلنغ». بدا الأمر كما لو أنني خرجت في نزهة وحسب. كان ردّ فعلها أكثر استخفافاً من البقية بما يجري في باريس. كتب يقول: «المرة الأولى ولعلها الأخيرة، كان أن عشتُ في مدينةٍ عظيمة جميع من فيها سعداء».

لعلّ حرب لايبلنغ انتهت، بيد أن الصراعات الشخصية التي عصفت به لم تكن لتحلّ بالبراعة ذاتها. فمنذ بداية زواجهما تقريباً، كان سلوك زوجته المصابة بالشيزوفرينيا سلوكاً غريباً متقلباً. ومع انقضاء عقد الثلاثينيات ازدادت الأمور سوءاً، ولم يعرف زوجها قطّ متى تنقلب من رفيق مؤنسٍ إلى امرأة عصبية المزاج تنطلق فجأة من الحانات والمصاعم لتغيب دون أثر أياماً عدة. ولا يعرف إن عادت وحدها وقد تشعّث شعرها أو تمزقت ثيابها، أم عُثِرَ عليها وأُخِذَت إلى مستشفى بيليفو، حيث تعيّن عليه الذهاب لاستعادتها. صارت مدد الإقامة في المشفى أطول، وغدت مدد عودتها إلى الحالة السوية أقل، وتصاعدت الفواتير الطبية. في أواخر الأربعينيات، ضاق لايبنغ ذرعاً بالوضع وتاق إلى الرحيل. طلّق زوجته وتزوج ثانية، وترك الـ نيويوركر وصار يعمل مستقلاً، وانتقل إلى شيكاغو؛ كي ينجز بحثاً لحساب كولبير عن حياة ناشر تريبيون روبرت ماك غورميك. لم يُكتب لهذا البحث أن يتم. بل كتب، عوضاً عن ذلك، ثلاثية عن شيكاغو عنوانها «مدينة ثانية» لا تزال تعتمل في داخلها ضغائن بعض أكثر مواطنيها حماية لها. وصفها بأنها منبطحة على ضفة البحيرة مثل حية فاكهة مشبعة بالماء، وانغمس فيما رآه عقدة الدونية التي تتصف بها هذه المدينة، وتمجيدها الروحَ الإجرامية وقبحها.

في المسائل التي تتعلق بالمظهر، لم يكن لايبلنغ في أواخر أربعينياته في موقع يسمح له أن يرمي الآخرين بالحجارة. على الرغم من أنه لم يكن من المحتمل أن يعترض طريقه فنانون يبحثون عن أدونيس يخلدونه، إلا أن لايبلنغ كان قد انتقل الآن من مرحلة القوام الممتلئ الذي عرفه في صباه إلى مرحلة البدانة. بلغ وزنه قرابة 246 ليبرة، ووقع ضحية الحصى الكلوية والنقرس. والسبب وراء ذلك كان ولعه بالطعام الدسم المطهو بالسمن الذي قارَب الإدمان. كتب عنه من نعاه في نيويورك تايمز أنه «حمل علامات خبير الأطعمة»، بيد أن الحقيقة كانت أنه جشع بقدر ما هو خبير. «كنت أشعر بالخجل كلما طلبت شريحة لحم بعد انتهائي من واحدة سابقة، لكني بمرور الوقت اعتدت على ذلك الخجل»، كما كتب عن هذه الهواية المصحوبة بانعدام حقيقي للإحساس بالخجل في سلسلة مقالات عنوانها «ذكريات رجل نهم في باريس»، وغدت هذه المقالات لاحقاً أساس كتاب عنوانه «بين الوجبات»، وكان ذلك، بالنسبة إلى لايبلنغ، فاصلاً لم يدم طويلاً. وكان من الطبيعي تماماً عندما غادر لايبلنغ، في أواسط الخمسينيات، إلى منتجع برتشر بنر في سويسرا الشهير الخاصّ بمساعدة البدناء في التخلص من الوزن الزائد، أن يعود أثقل وزناً مما كان عليه عندما قصده.

وبصرف النظر عن حياته الشخصية (إذ انهار زواجه الثاني عام 1955)، فقد كان لايبلنغ الآن في ذروته بصفته كاتباً. كتب عدة مقالات رئيسة عن الشرق الأوسط ومعسكرات اعتقال الفلسطينيين (وقد فعل ذلك باتزانٍ عظيم أثار سخط اللوبي اليهودي المستعدّ دائماً للإحساس بالإهانة)؛ وكتب لـ أوبزرفر اللندنية في الرياضة والسياسة؛ وغطى الحرب الجزائرية؛ وبحث بتفصيل عظيم في سيرة حياة هنري ويتنبرغ، بطل المصارعة الأولمبي الذي غدا مفتشاً في نيويورك (مزّق لاحقاً المقال عندما أصر قسم شرطة نيويورك على مراجعة المقال النهائي)؛ ومن ثم عالج شخصية غاية في الهمجية والتعقيد إلى درجة أن المقالات غدت كتاباً. كان ذلك الشخص هو إيرل لونغ، شقيق عضو حزب الشعب الأمريكي هيوي، الذي اقتفى لايبلنغ أثره، بعد اصطاع دام نحو عقد، عندما غدا حاكم لويزيانا. لم تكن السياسة موضوع لايبلنغ الأثير، لكن عندما قُبض على لونغ حين كان يلقي خطاباً في الهيئة التشريعية للولاية، وزُجّ به في سيارة كانت في الانتظار وسيق إلى مصحّ عقلي للمجانين في تكساس، حيث شهدت زوجته بلانش كما يجب على جنونه، كان عندئذ قد اتّجه جنوباً.

كتب لايبلنغ في المقال النهائي: لويزيانا هي «الأقرب شبهاً إلى الدول العربية بين ولايات الغرب جميعها، سياستها انفعالية ومعقدة ولا نظير لها، بحسب خبرتي، سوى جمهورية لبنان». لم يُثر هذا التطابق دهشَه؛ بل كان ما أثاره هو لونغ نفسه. فقد رأى لايبلنغ هذا الحاكم، المتعصّب الفاسد بالاسم (لا تكتب أي شيء بمقدورك أن تحكيه على الهاتف لا تحكِ على الهاتف أي شيء بمقدورك أن تقوله مباشرة، لا تقل مباشرة أي شيء بمقدورك أن تهمس به، لا تهمس بأي شيء بمقدورك أن تومئ برأسك إليه، لا تومئ برأسك إن كان بمقدورك أن تغمز بعينك) بوصفه تقدمياً نظرياً: مجنونٌ، بيد أن بعض عقله لا يزال في مكانه الصحيح. وفي حين سُعِدَ لايبلنغ لمقدرته أن يكتب عن لونغ في مواجهة ميله الفصري إلى السخرية من كل شيء تقريباً، فقد وجَدَ تسليته في الكتابة عن العادات الجنوبية وردود الفعل الشمالية حيالها، كما يحدث هنا في مأدبة عشاء في منزل حاكم لويزيانا:

جلست امرأة شمالية من الضيوف دون قصد على سترة كان أحد الساسة المدعوين قد وضعها جانباً. كانت السترة أعجوبة في فنّ الحياكة: فضيّة اللون من الدّعرون والأكريلان – نايلون مرصّعة بنجوم زرقاء اللون. صدرت عنها شهقة وقامت عمودياً، مثل مروحية. فقد جلست على مسدسه، قطعة زينة تُعدّ في لويزيانا ضرورية مثل سحّاب البنطال. ارتفعت الحواجب عندما صدر عنها ذلك، وعندما جلست كانت قد قررت أن تعدّ أي تعليق بمنزلة إطراء.

في فقرة سابقة من المقال، وصف لايبلنغ سلوك لونغ الغريب عندما كان أحد زملائه المرشحين يخطب في حملة انتخابية:

.... أخذ إيرل، إذ جلس وراءه مباشرة، يلوي قسمات وجهه ويتصيد الذباب، مستحطباً الانتباه مثل نجم فودفيل كهل في مسرحية تضم عصبة من ممثلي المنهج.

تزوج لايبلنغ ثانية عام 1959. كانت زوجته هذه المرة جين ستنافورد، روائية وكاتبة قصة قصيرة حائزة على جائزة البوليتزر. كان ماضيها الأدبي مختلطاً فلم يُعرف عنه سوى القليل. فقد كان زوجها الأول الشاعر روبرت لويل، أما والدها فقد كتب قصصاً مستوحاة من الغرب بعناوين مثل «الجولة الأخيرة لسموذر مودي»، و«مرغمون على القتال»، و«حوريات بانهاندل»، واستخدم اسمين مستعارين هما جاك وندر وبن ديلايت. ومثّل والد زوجته المتوفى موضوعاً لمقالة رائعة لـ نيويوركر. التقى لايبلنغ جين في إكلترا

وخطب ودّها بجولة من سباق السيارات في الأقاليم في سيارة رولز رويس مُسْتَأجَرة، وشمبانيا وافرة، ومحتويات سلة طعام مملوءة على الدوام. قلّما كان هناك مسحة من الرومانسية في مواعدة لايبلنغ.

كانت الملاكمة عِشقه العظيم الآخر. فقد كتب سلسلة من جزأين عن محبوبته قاعة ستلمان الرياضية بعنوان: «جامعة الجادة الثامنة»، ولم يكن أي نزال ليعدّ نزالاً مهماً ما لم يصل لايبلنغ لتغطيته. وهنا تبرز مقالتان اثنتان، الأولى، عن نزال آرتشي مور وروكي مارسيانو عام 1955. ففي معرض تمهيده للمشهد، يصف لايبلنغ نزالاً وقع في لندن بين ملاكم الوزن الثقيل الكوبي نينو فالديز وملاكم الوزن فوق الثقيل الإنكليزي دون كوكل، وانتهى على النحو الآتي... «تهالك الرجل البدين في أحد أركان الحلبة بتثاقل مثلما يستقر السجق الدسم في جهاز هضمي غير معتاد على وجبة كهذه». ثم ينتقل إلى الحدث الرئيس، حيث يعلّق في بدايته أن مارسيانو «يشبه كلبَ دانٍ ضخم سمع كلمة «عظمة»... ثم يتابع:

... في هذه اللحظة توجّه مارسيمو إليه متهادياً وقد ضمّ قبضتيه بلا مبالاة عظيمة بالعواقب، راغباً في أن يصيب منه مرفقاً أو عضداً أو كتفاً أو رأساً. هتف الحشد، الذي تألفت غالبيته من كارهي الثقافة، بعبارات التشجيع. وقف مور هناك، يتلقى اللكمات وينتقيها ويفر منها ويلتفّ معها ويتفاداها، ويكشف برشاقة عن مهاراته الدفاعية بلكمات حادّة متقنة - وهو لا يكاد يحافظ على التعادل بالنقاط في هذه المحاكاة الساخرة. بدا وجهه، إذ لاح لثوانٍ من تحت إعصار الأذرع -ذراعاه وذراعا روكي- شبيهاً بوجه فقمة سابحة. عندما انتهت الجولة، رأيت أنه كان يستغرق في التفكير. أما مارسيانو فقد عاد إلى ركنه بمشية رشيقة مكبوتة. لم يكن ثمة ما يشغل باله البتة.

كانت المقالة الثانية عن المباراة بين فلويد باترسون الملقّب بالعيش الطاهر والسويدي انغمار يوهانسن الملقب بتشارلي الباحث عن اللذة الذي حرمه من لقبه هذا:

لم يتسنّ الوقت لباترسون كي يقلّب التفكير بجوائز الفضيلة -فقد كان أكثر اشتغالاً بحصدها. لَكَمَ باترسون الهيدونيّ[1] لكمة خطافية يسرى أصابت منه البطن ثم حولها

(1) Hedōism: مذهب اللذة. في الأخلاق: معيار الخيرية هو اللذة، بمعنى أنّ العمل الفاضل هو ما يؤدي إلى اللذة أو يزيدها أو يقلل من الألم أو يزيله. وفي علم النفس: فإن الدافع إلى السلوك هو الحصول على اللذة وتجنب الألم. (م).

إلى الرأس. انتصب السويدي في ذات المكان عندما أصابته اللكمة كما كان عندما بدأ، ثم تهاوى على الأرض مثل قطعة كبيرة من فطيرة سويدية محشوة بثمار العليق وقشة حامضة؛ بيد أنه نهض. إذ لم يكن ليستسلم؛ بل ظل، من الناحية المعنوية، متشوقاً إلى القتال. لوّح باترسن بيسراه ثانية، مثل رجل يمسك بفرشاة وينظف شجيرة ورد. أصاعت لكمته ذقن البطل، وانقذف رأسه إلى الوراء على رقبة مرتخية، وتهاوى على البسط محدثاً صوت ارتطامٍ أقسم أني سمعته على مسافة لا تقل عن ثلاث مئة ياردة.

كان لايبلنغ قد بلغ الآن أواخر خمسينياته، وقد تفشى داء النقرس في مفاصله حتى لم تعد يقوَ على الحراك دون أن تعتريه آلام مبرحة. لم تمنعه حالته هذه من السفر - حتى في صيف عام 1963 عندما سافر لجمع موادٍ في الجزائر وفرنسا ولندن، غير أنها أبطأت في آخر الأمر نتاجه من المقالات. صحته السيئة هذه عنت أنه غدا هدفاً ساكناً لأي عدوى. ففي أوخر كانون الأول أصيب بفيروس ذات الرئة، حيث نُقِل بداية إلى مشفى الأطباء في نيويورك. ومن ثم، عندما تدهورت حالته، نُقِل إلى جبل سيناء. لكن لم يكن هناك كثير مما يمكن فعله، وفارق الحياة يوم 28 كانون أول عن عمرٍ يناهز التاسعة والخمسين. بعد أشهر قليلة من وفاته، أغرقت آن زوجته الأولى نفسها في نهر بروفيدانس، التي طالما أحبها وأحبته.

خلّف لايبلنغ وراءه أعمالاً تفوق ما يخلفه معظم الصحفيين. فقد خلّف مراسلته، التي يقع قسم عظيم منها في كتب لا يزال معظمها يُقرأ بعد عقود عدّة على وفاته. وثمّة أشياء أخرى: كتاباته النقدية عن الصحافة التي صانها ودافع عنها في عموده «صحافة ضالة» ما يقارب من ثلاثة عقود. لم يكتب أي مراسلٍ آخر من مرتبته هذا القدر العظيم عن حرفته، وكانت النتيجة حكمة تفوق مثيلتها في مكتبة كاملة. لقد صبّ لايبلنغ جام ازدرائه المرير على القصص المبالغ فيها، تلك القصص المتحيّزة، خصوصاً إن كانت ضد النقابات أو الأفراد المستفيدين من الرفاه، وتلك التي أفسدها المراسلون تماماً؛ وهذا الضرب أو ذاك من المراسلة الأجنبية التي أثّرت في أحد أبواق السلطة دونما سبب وجيه. حيث كتب، على سبيل المثال، عام 1953:

بعد أقلّ من أسبوع على إعلان وفاة ستالين، علم الشعب الأمريكي أنه توفي على نحو طبيعي أو قُتِلَ ببراعة، إما في التاريخ الذي أشارت إليه البرافدا أو قبله

ببضعة أسابيع؛ وأن سكان موسكو خرجوا في مسيرة حداد لكن (بحسب وجهة نظر جورنال-أمريكان) كانت المسيرة مفبركة بعناية؛ وأن وفاته أنذرت بحلحلة السياسة أو تصعيدها تجاه الغرب، الذي بدوره يقلل أو يزيد احتمالات حرب مفتوحة؛ وأن وفاته إما تعجّل بصراع مباشر على السلطة بين الزعماء الباقين أو تحملهم على الوقوف معاً إلى أن تستتبّ لهم الأمور...

هاجم لايبلنغ محرري الصحف التنفيذيين (...إن سلطة هؤلاء اللا-كتّاب تجعل قراءة صحفنا أشبه بمذاق الطعام في كافيتريا نيويورك تايمز)، وباستخدام كتابة جيدة لَفَتَ النظر إلى الكتابة السيئة، كما في قوله، موجزاً سيرة حياة مالك صحيفة نيويورك تلغرام روي هوارد، إن قرّاء الصحيفة... «كشفوا عن هلوسات أصيبوا بها من قراءة نثر الصحيفة، وصدرت تجرهم خارج قطارات الأنفاق وهم يصفعون بأيديهم صفاتٍ قالوا: إنهم رأوها تدبّ عليهم». وأسدى كثيراً من النصائح الواضحة لمن يريدون أن يتعمّقوا في مجموعة مقالاته «صحافة ضالة»، مثل النصيحة الآتية:

أفضل طريقة لوصف مدى تفاهة حدث هي أن تحكيه مباشرة؛ مشكلة الكتابة عن هذه الأمور بطريقة جدية هي أنك تجعلها تبدو جدية، ومشكلة أن تحكيها بطريقة مسلية هي أنك تجعلها تبدو مسلية.

خلّف لايبلنغ وراءه شيئاً آخر. فبعد بضعة أيام على وفاته، دخل أحد زملائه من الـ نيويوركر مكتبه الفوضوي ووجد طاولته قد غُطّيتْ كلُّها تقريباً بأكوامٍ من الكتب والأوراق التي كان يدلي برأيه فيها. كان من بينها الأعمال الكاملة لألبير كامو، ودليل عن صناعة الشراب، والتقرير السنوي لجمعية التاريخ في نيويورك، وثلاثة كتب عن الملاكمة، وأعداد الشهر الماضي من لاس فيغاس صن، ودليل سفر إلى تونس، ونسخة من دليل السباقات في أمريكا. وهذا كله صورة عن عقل باحث واسع الاطلاع عوّقه المرض في بحثه عن المادة الخام أو الإحصائيات أو تراصف الحقائق الذي جلب إلى الحياة كل مقالٍ عمل عليه. أما ما لم يحتوِ عليه المكتب، حتى في دُرجه السفلي، فهو رواية نصف مكتوبة. فقد ترك لايبلنغ للعالم كثيراً عن القصص؛ صادف أن كانت جميعها حقيقية تماماً.

جورج سِلدِز

obeikandl.com

4

جورج سِلدِز

1890 - 1995

مراسلٌ أثار حنق المسؤولين والعتاة

من بين جماعة المشاكسين الصعب مراسهم الذين مروا في تاريخ الصحافة الطويل، غير المفقود تماماً، يبرز مراسلٌ واحدٌ سبب مشكلات لذوي الشأن، والقطط السمينة، والدجالين، وباعة السموم، وأفراد العصبة المسيطرة على العالم تفوق ما سبّبه أي مراسل آخر: إنه جورج سلدز. قوام سيرته هو تقديم حقائق مزعجة ومحرجة للمسؤولين والعتاة. ففي أولى مقالاته، ولم يكن قد تخطّى سن المراهقة بعد، أثار بالفعل حنق الشركات المحلية الكبرى، واستمر ما تبقى من حياته الطويلة بإضافة أسماء جديدة إلى أسماء من ضايقتهم مراسلته: المسؤولون عن الحرب العالمية الأولى، والدولة السوفييتية، وجامعة هارفارد، وبينيتو موسوليني، وشركات النفط، والجنرال ماك آرثر وهيئة جنرالات الجيش برمتها، والمعتّقون في الإذاعة اليمينية، ونيويورك تايمز، وجنرال موتورز ومؤسسات أخرى تاجرت بالفاشية، وشيكاغو تريبيون، ووليام راندولف هيرست، ومكتب التحقيقات الفيدرالي، ولجنة مجلس النواب المختصة بالنشاطات غير الأمريكية، وريدرز دايجست، وإدغار هوفر، والحزب الشيوعي، والحزب الجمهوري، والإنجيليين وصناعة التبغ. ضايقه خصومه وهدّدوه وشوّهوا سمعته ونعتوه بأنه «قملة عفنة حقيرة تثير الذعر»، بيد أنهم لم يستطيعوا إسكاته ما يقرب من سبعين عاماً.

وغالباً ما فعل ذلك كله بمفرده. فبعد أن بلغ الثامنة والثلاثين، لم يعد سلدز بحاجة إلى حماية مطبوعة تتمتع باسم عريق، بل عمل بدل ذلك، بعد أن كان مراسلاً مستقلاً، عقداً من الزمن، كاتباً وناشراً لصحيفة مستقلّة حملت على بنيان أمريكا الاتحادية وهاجمته

برؤية تلو أخرى. كان كما قال أ.ج.لايبلنغ: «رقيقاً مثل منزل يتداعى»، بيد أنه تابع النقد الصحفي: «مواطن صالح. في الحقيقة كان شخصاً مزعجاً رائعاً». يوضّح هذا التعليق ما كانت عليه الحال بطريقة لطيفة. فما بين حقبتي مكراكرز ووترغيت، أبقى سلدز رية الصحافة التحقيقية خفّاقة، وكان في ذلك وحدَه تقريباً في بعض الأحيان. بيد أن ذلك لم يكن كافياً له، فقد التقى أيضاً وأجرى لقاءات مع شخصيات حقيقية لعبت دوراً حاسماً في حياة القرن العشرين، بدءاً بتيدي روزفلت وسارة بيرنهارت وتشارلي شابلن، مروراً بلينين وموسوليني وبيكاسو وهندنبرغ وإنشتاين ومارلين ديتريش، وصولاً إلى فورد مادوكس فورد وه. جي. ويلز وإيرول فلين وجو مكارثي والرئيس تيتو. وظهر في فيلم هوليوودي في سن التسعين، وفي برنامج وثائقي عن حياته صُوِّر وهو في عامه الرابع بعد المئة، ورُشِّح للفيلم للأوسكار. قلّة قليلة من الصحفيين، إن حدث ووُجد أصلاً، عاشوا حياة استثنائية كالحياة التي عاشها جورج سلدز.

والحقّ أنَّ قصة شبابه تستحق وحدَها أن تكون فيلماً. فقد أبصر النور بتاريخ 16 تشرين الثاني عام 1890. وفي عامه السادس توفيت والدته، وقضى طفولته متنقلاً بين جدّيه ووالده. كان سلدز الأب مدير مكتب البريد وضوءاً هادياً في مجتمع ألّيانس، نيوجرسي، هذا المجتمع الليبرالي حيث لا أحد يبالي قيد شعرة بالالتفات إلى السيد بايلي، المزارع وفيلسوف البلدة، وهو يقود بقرة بيدٍ في حين يمسك بالأخرى كتاباً مفتوحاً من كتب كانط أو إسبينوزا. انسجم والد سلدز كلياً مع هذه الشخصيات الورعة الغريبة الأطوار، حتى وصفه ابنه بأنه «ليبرتاري[1] ومثالي ومفكّر حرّ وطوباوي وجامع ضرائب، وعابد ثيرو وإيمرسن». بيد أنَّ مجموعته المنتقاة من القضايا التي ناضل من أجلها لم تتوقف عند هذا الحدّ، بل تضمّنت أيضاً أن يعمل سكرتيراً لجمعية أصدقاء الحرية الروسية، وبفضل موقعه هذا كان أن استضاف ذات مرّة مكسيم غوركي، وانهمك أيضاً في مراسلة متواصلة مع الأمير

(1) الليبرتارية: فلسفة سياسية تركّز على حقوق الفرد. تؤكد عقيدتها الحقَّ في ملكية الذات، وتوسعاً الحقَّ في الملكية الخاصة للموارد المادية والملكية. يعارض أتباعها أي شكل من أشكال الضرائب، ويفضلون نظاماً اقتصادياً مخصخصاً. شاعت الليبرتارية في أمريكا في السبعينيات من القرن العشرين. (م).

كروبوتكين والكونت تولستوي. والمحزن في الأمر أن رسائلهما إليه تلاشت ذات صباحٍ قارسٍ عنـدما استعملتها الخادمة وقوداً لموقد الأسرة.

أَبْقَتْ اهتمامات سلدز الأب ومُثُله العليا الأسرة في حاجة دائمة إلى المال، غير أنَّ تحسّناً طفيفاً في الأوضاع المادية لاح في الأفق في سنوات مطلع القرن العشرين. فقد ابتاع صيدلية في سنتر أفينو، بتسبرغ، كان ربحها اليومي، بحسب ما أكده له بائعها، هو خمسون دولاراً. وبمساعدة بعض الأطباء، حصل على رهنٍ. وفي الساعة السادسة من صباح أول يوم من مزاولته التجارة، فتح أبواب الصيدلية ودلف إلى المكان ما يزيد على اثني عشر شخصاً يرتـدون أسمالاً بالية. رمى أولهم دولاراً فضياً على الطاولة وأشار بيده إلى جارور كُتِبَ عليه «بيكربونات الصوديوم» ثم وقف ينتظر مترقّباً. وجد سلدز داخل الجارور صفين من رزم صغيرة محضّرة سلفاً، وقد كُتِبَ على الصفّ الأوّل «هيروين 50 سنتاً» وعلى الثاني «كوكايين دولار واحد». صفَقَ الطوباوي العتيق الجارورَ، وطرد المدمنين من المخزن، وبذهابهم تلاشى كل احتمالٍ بربحٍ فعلي.

ببلوغه سن الرشد، أمسى سلدز قادراً على كسب رزقه من جهة، واكتساب بعض وجهات النظر الليبرالية من جهة أخرى. وإذ أثّرت فيه جلبة المراسلين الذين احتشدوا من حين إلى آخر في مخزن والده طلباً لوجهة نظر محلية بالأحداث في روسيا، فقد دلف إلى مكاتب بتسـرغ ليدر بتاريخ 9 شباط 1909 وسأل عن عمل، فقيل له: إنْ كان يريد تعلّم المراسلة، فليتسكّع خارجاً وليتسقّط الأخبار، وأُعطيَ بالمقابل 3.5 دولاراً أسبوعياً «ثمناً لوجبة الغداء». وبالطبع قَبِل الوظيفة، وعلى هذا النحو بدأ مدة تدريبه تحت رعاية محرر أخبار المدينة صاحب الاسم الأكثر شهرة في تاريخ الصحافة: هاوستون إيغل. لم يمض وقت طويل قبل أن يسلّمه راعيه واحدة من أقل الوظائف حظاً في غرفة الأخبار: طرحُ أسئلة وقحة على مشاهير سابقين بأسلوب يبدو غاية في البراءة. كانت طريدته المرشّح السابق لانتخابات الرئاسة ثلاث مرات وليام جِننغز بريان، كان رجلاً على الدوام الأفضلَ في بثّ الحماسة في مؤتمرات الحزب منه في بثّها في الناخبين. وكان حينئذٍ، بعد أن أفلَ نجمه وتدنّت شعبيته، شخصية مسلية أكثر منه شخصية اعتبارية. قصد سلدز الفندق الذي ينزل فيه الرجل العظيم،

ونقر الباب نقراً خفيفاً، وعندما فتحه بريان -وهو لمّا يزل يرتدي ثيابه الداخلية- بادره بالسؤال: «سلدز من بتسبرغ ليدر. سيّد بريان، هل تنوي خوض انتخابات الرئاسة مرة الرابعة؟». بيد أن بريان استشاط غضباً قبل أن يُنهي سلدز سؤاله. «اغرب عن وجهي أيها الغرّ الصفيق»، صاح قائلاً واندفع إلى مُحاوره. فرّ سلدز هارباً، وفي المكتب، استمع إيفل إلى ما حدث بلذّة متنامية. «هل ضربك؟»، سأله، في حين كان يتخيّل القصّة التي يمكن تأليفها. «لا، بل دفعني عبر الباب وحسب»، أجاب سلدز. وكان الردّ: «عظيم. اكتب ذلك، ولا تمسّ السراويل الداخلي الصوفي». كتب سلدز، وظهرت في اليوم الآتي على الصفحة الأولى قصته الأولى تحت العنوان العريض «بريان يتهجّم على مراسل ليدر».

لم يمضِ وقت طويل قبل أن يخوض سلدز مواجهته الأولى مع قضية ستغدو لاحقاً إحدى موضوعات حياته: سرعةُ استسلام صحف أمريكية كثيرة (آنذاك، وطوال عقود لاحقة) على نحو غير لائق ومُهين بسبب الضغط من الشركات والمصالح التجارية، سواء كان هذا الضغط ضمنياً أم متوقعاً أم فعلياً. ففي عام 1910، شهدت إحدى محاكم بتسبرغ قضية طلاق الملياردير أندرو دبليو. ميلون، واحد من أكثر الأمريكيين ثراءً في ذلك الوقت. وبصرف النظر عن ذلك، وجد سلدز نفسه المراسل الوحيد الحاضر- لغزٌ حيّره إلى أن رأى صحف المدينة خالية من أي تقرير عن الحدث، وقد مُنَّ عليها، بدل ذلك، بإعلانات لا يحصرها العدّ عن البنوك المملوكة لميلون. بعدئذٍ بمدة وجيزة، غطّى سلدز قضية أخرى عن ابن صاحب مجمع تجاري رأى أن من حقه التحرّش بـ -وفي إحدى الحالات، اغتصاب- البائعات في مخزن والده. أرسل المراسل الشاب تقريره، بيد أنه لم يُنشر قط. وبدل ذلك شرعت الصحيفة تنشر إعلانات عن المخزن تفوق بضعفين ما كانت تنشره سابقاً وبسعر أعلى. استُخدِمت ببساطة قصة سلدز لأجل الابتزاز التجاري.

كان المسرح ملاذه، فكتب مراجعات نقدية عن أمثال سارة بيرنهارت وديم نيللي ملبا، كما عمل مراسلاً مستقلاً لحساب فاريتي. لم تكن المنافسة حادة على موضوعات الأسبوع الأدبية الساخنة. كتب سلدز لاحقاً: «كانت ثقافة الكلمة ثقافة ازدرائية... لم يحدث قطّ أن أتت صحيفة مسائية واحدة في عصري على ذكر كتاب. وإن حدث ووجد خريجٌ جامعي

بين زملائي المراسلين الذين يفوق عددهم المئة، كان ذاك الشخص يُبقي إثمه هذا طي الكمان». في عام 1912، انتقل إلى بتسبرغ بوست بمرتب عشرين دولاراً أسبوعياً، ولم يمض وقت طويل قبل أن يتسبب ميله إلى قول الأشياء على حقيقتها بالمشكلات فضلاً على نزوع صحيفته إلى تبنّي وجهة نظر أكثر اهتماماً بالناحية التجارية. تجسّدت هذه المشكلات في شخصية بيلي صنداي النارية. كان صنداي مبشّراً إنجيلياً ذائع الصيت، وتاجراً جوّالاً للحقائق اللاهوتية، ورجل أعمالٍ بعيد النظر، الأمر الذي خَفيَ عن سلدز. قَدِم صنداي إلى بتسبرغ في مهمة لهداية الجماهير الملحدة، فذهب سلدز إلى مقرّ عقد اجتماعه الحاشد. وبينما حمل المبشّر بعنفٍ على الخطيئة وتشارلز داروين، جلس ابن الصيدلاني والمفكر الحرّ يدوّن ملحوظاته. وفي النهاية، بلغت حماسة صنداي ذروتها، فالتمس من الخطأة أن يتقدّموا صوبه ويتوبوا. وقف بضع رجال، يشقون طريقهم نحوه، كان سلدز قد تعرف إليهم. إذ لم يكن هؤلاء أكثر سكان بتسبرغ فسقاً وانغماساً في الملذات، بل كانوا شباباً مؤمنين من جمعية الشباب المسيحي وجمعيات أخرى تم دسّهم بين الحضور؛ كي يحفزّوه فيندفع الآخرون كسيل جارف إلى الهداية. بيد أن هذا السيل لم يأتِ قط. وبدل ذلك، كان معظم الذين تركوا مقاعدهم واتبعوهم هم مدمنو الكحول.

صباح اليوم الثاني، لم يحظَ سلدز بالخبر الرئيس على الصفحة الأولى فحسب، بل حظي أيضاً بما كان آنذاك تشريفاً قلّما حصل: سطر في رأس المقالة يشير إلى كاتبها. على أي حال، لم يدم شعوره بالرضى طويلاً. إذ عَلِم، عقب وصوله إلى عمله مباشرة، أنه طُرِد من وظيفته بوصفه مراسلاً، ونُقِلَ إلى قسم المراجعة والتدقيق حيث تكون المشكلات التي تسببها طبيعته غير القابلة للفساد أقلّ. لم يعلم إلا لاحقاً أن بيلي صنداي لم يكن بالضبط كما بدا: عازف المزمار الأخرق الذي يدعو إلى المسيح. قبل أن يوافق على القدوم إلى أي مدينة وممارسة رقاه الدينية عليها، كان خبراؤه الماليون يعقدون صفقات مع المصارف المحلية يحوّل بموجبها سحرُ صنداي الخطأةَ غير النافعين إلى مستثمرين فيها، وبالمقابل يحصل منها صنداي على تبرعات. كانت صحيفة سلدز مملوكة لمصرف المزارعين الوطني، إحدى المؤسسات الراعية لصنداي. وقد قرّر هؤلاء أن سلدز فاشل في التجارة، وأن حاله، عندما قصد جامعة هارفارد مدة عام، ليست أفضل من ذلك كثيراً في المجال الأكاديمي. في

أثناء عمله لحساب هارفارد إلّستراتيد مَنثلي، كشف سلدز قصّة كيف أن الأستاذ الجامعي نولان وفّر لمجموعة من الرياضيين الحصول على درجات عالية بأقلّ قدرٍ من الدراسة، حيث قام الأستاذ الجامعي بتعليم الطلبة أن يحفظوا عن ظهر قلب أجوبة الأسئلة الامتحانية. أرسل سلدز قصته للنشر، غير أنها رُفِضَت، ولذا باعها لإحدى المجلات في بوسطن.

لم يكن قد مضى على عودته إلى بتسبرغ وقت طويل عندما التقى المرأة التي غيّرت حياته: كومة مشكلات مزعومة تدعى بيغي كيث. التقاها عندما غطى قصة مدير المسرح الذي اختلس إيرادات مسرحيته وفرّ هارباً، مخلّفاً وراءه مجموعة ممثلين مفلسين من بينهم ممثلةٌ لعوبٌ عيناها كعيون المها. أخبرته وهي تنشج أنها مفلسة تماماً، وقد طُرِدَت من فندقها وأُخذَت ثيابها رهناً، وليس لديها من تلجأ إليه، ثم إنها لا تعرف ماذا يجب أن تفعل فتاة بائسة في مدينة كبيرة سيئة مثل بتسبرغ. آتت المسيحية ثمارها. إذ هبَّ سلدز لنجدتها بلمح البصر، فاقتطع أجر نصف أسبوع من محفظته وناولها إياه، ثم اصطحبها إلى شقته وأنزلها فيها. لم يلبث بعدئذ أن انتقل إلى التحرير المسائي في الـ بوست، فصار يغادر منزله في الخامسة مساء ولا يعود إلى الآنسة كيث المخادعة إلا في السادسة صباحاً. وبعد شهور عدة من النعيم الحسي، فتح ذات يوم جارورا فوجده يطفح بالمال. أيقن عندئذ أنه بينما كان يسهر على الصحيفة كانت الآنسة كيث تفعل الشيء عينه مع بعض الزبائن المربحين سحب سلدز مدخراته البالغة مئتي دولار من المصرف، فأعطاها نصفها، وابتاع لها تذكرة قطار إلى نيويورك.

عَمِلَ سلدز مراسلاً مستقلاً لحساب صنداي نيويورك وورلد إلى جانب مطبوعات أخرى، وكان قد شرع في التخلّص من ذكرى بيغي كيث عندما طُرِقَ بابه ذات يوم؛ كانت هي، تجرّ وراءها حقيبة ملابسها وتهمي من عينيها دموع غزيرة. كتب سلدز لاحقاً: «بدت جميلة، وطلبت منها الدخول». دام صلحهما إلى أن سألها كاتب أن توافيه إلى الفندق الذي ينزل فيه ليقضيا معاً عطلة نهاية الأسبوع، ووافقت دون تردد. وإذ خشي أن يضعف فيؤوبها إن عادت مرة أخرى، قرر سلدز أن يقصد مكاناً لا يكون بمقدورها أبداً أن تلحقه إليه. ولذا، حزم حقائبه ويمّم صوب لندن. وفي عام 1917، كان ثمة حربٌ هناك عليه أن يغطيها.

وجدَ عملاً في لندن مع يونايتد برس، وكتب أخباراً عن الحرب لحساب مؤسسة صحفية تبيعها لدول أمريكا الجنوبية، وأجرى مقابلات مع شخصيات مبرّزة مثل جوزيف كونراد. وفي أواخر عام 1917، وظّفت الطبعة المخصصة للجيش من شيكاغو تريبيون سلدز، وانتقل إلى مكتبها في باريس، وتيسّرت له الإقامة في شقة تقع فوق شقة مكسيم غوركي بطابقين وبالقرب مباشرة من الأسطوري بالمثل هاري بار. كانت وظيفته أن يكتب 14 عموداً من أخبار الحرب يومياً، حيث ازدادت صعوبة وظيفته بعد أسابيع قليلة وحسب، عندما فرّ رئيس التحرير برفقة كونتيسة فرنسية وأخذ معه سيارة الصحيفة وجميع مدخراتها. لم يعد لدى سلدز من خيار سوى ترقية نفسه. وبعد أسابيع قليلة على ذلك، قَبِلَ بامتنان عرضاً بالانضمام إلى مؤسسة مارشال الصحفية، التي كانت تمدّ صحفاً بالأخبار مثل أتلانتا كونستيتيوسن، وديترويت فري برس، وسانت لويس غلوب-ديموكرات.

صار سلدز الآن مراسلاً حربياً رسمياً. كان في السابعة والعشرين، قصير القامة، حادّ القسمات، يبدو بشعره المصفف بعناية وشاربه الأنيق، في الصور مع زملائه الأغرار، أقل شبهاً بصحفي منه بأوتوقراطي أُرسِلَ ليضبط نفقاتهم. لم يكن أحد ممن التقاه يحسبه مكتسباً لينّ العريكة وقتاً طويلاً. تقاسم سلدز خيمة واحدة مع القائد الجويّ المتفوق إيدي ريكنباكر، والتقى الكولونيل الشابّ دوغلاس ماك آرثر (رآه سلدز يعيد أسيراً ألمانياً إلى خطوط الجيش الأمريكي وهو يشده من أذنه). ولأجل مقالة يوم الأحد، اصطحبه كولونيل يدعى جورج باتون في رحلة تخلع العظام على متن دبابة، وقد اشتهر هذا الكولونيل في ذلك الوقت بزوج المسدسات ذات المقابض المرصعة باللؤلؤ. أما مغامرته العظيمة، على أي حال، فكانت في نهاية الحرب عندما تجاهل وثلاثة مراسلين آخرين حظر السفر إلى ألمانيا، فاقتفوا أثر هندنبرغ المهزوم وأجروا لقاءً معه. قال لهم إن ألمانيا لم تُهزم بسبب الجوع أو تلاشي الإرادة الوطنية، وإنما هُزِمَت في أرض المعركة، أساساً بسبب جنود المشاة الأمريكيين. وفي نهاية إيضاحه هذا، غمغم هندنبرغ بالألمانية: «آهٍ، يا وطني المسكين. آهٍ، يا وطني المسكين»، ثم أطرق رأسه وبكى.

كان ذلك سبقاً صحفياً مهماً، بيد أن أحداً لم يقرأه. وبدل ذلك، عندما سمعت سلطات الجيش الأمريكي عن رحلة المراسلين إلى ألمانيا، هدّدتهم بمحكمة عسكرية إن كتبوا القصة. وقد لازم هذا القمع سلدز حتى وفاته، لا لأنه حرمه من مقابلة حصرية قد تجلب له الشهرة، وإنما لأنه، كما كتب لاحقاً، عزّز الأسطورة العظيمة عن ألمانيا ما بين الحربين، أسطورة الـDolchstass، والطعنة من الخلف التي جاءت من «الاشتراكيين والشيوعيين واليهـود». كتب سلدز في سيرته الذاتية: «لو سمح رقباء بيرشنغ (الأغبياء) بنشر مقابلة هندنبرغ في حينها، لتصدّرت الصفحات الأولى في كل بلد متحضّر بما يكفي ليكون لديه صحف... لظن أنها كانت ستقوّض الأسس التي جعلت هتلر يرتقي سدّة الحكم...». كانت التجربة قوية لدى سلدز، ولم يحدث أن أذعن لتهديدات إخراسه مرة ثانية قط.

عاد سلدز إلى باريس، بعد إجازة قصيرة في الولايات المتحدة، على رأس فريق خدمة الأخبار الأجنبية في شيكاغو تريبيون. كان هذا بإيعاز من صاحب الصحيفة، الكولونيل روبرت رذرفورد ماك غورميرك، الذي أوضح آنذاك أسس اختياره لكبير المراسلين الجوالين بقوله: «لاري لا يتحدث أي لغة أجنبية، ولا أريد أن يدمر هؤلاء الأجانب الملعونون صيتي الأمريكيين اللطفاء». غطّى سلدز السياسات البريطانية، والمفاوضات التي أسّست الدولة الإيرلندية الحرّة، والاستيلاء على مدينة الفيوم من قبل الشاعر والمدّعي الإيطالي غابريل دانونزيو، الرجل الذي فعل الكثير ليبتدع الزخارف المميزة للفاشية الإيطالية: الأنصار ذوو القمصان السوداء، والتحية الرومانية، وبدّة القائد المزركشة، والظهور على الشرفة، وتقنية القتل الجديدة بصبّ كميات كبيرة من زيت الخروع في أفواه الخصوم. وفي أواخر عام 1919، جُعِلَ سلدز مراسلاً جوالاً في أوروبا كلها، وكانت إحدى مهامه الأولى هي إجراء لقاء صحفي مع دانونزيو والألعوبة الدكتور غروزيتش، عمدة مدينة الفيوم الخَرِف. عندما ألحّ عليه سلدز بالسؤال عن نزاهة الانتخابات الأخيرة، أجاب الأخير: «كانت انتخابات نزيهة وأشرفنا عليها بأمانة. سمحنا لجميع المواطنين الشرفاء بالاقتراع وتخلّصنا من جميع العناصر غير المرغوب فيها -الاشتراكيين جميعهم والعمال مثيري المشكلات- رحّلنا معهم قرابة خمسة آلاف». صادف أن كان هؤلاء جميعهم من الإثنية اليوغسلافية، وعندما لفت

سلدز النظر إلى هذا في قصته التي تدبّر أمر تهريبها، طُلِب إليه أن يغادر البلاد. وهذا ما تفعله على متن أول قطار متوافر، لكن في منتصف الطريق إلى تريستي، دخل مقصورته ثلاثة أعضاء من حلف دانونزيو الدّلماسي وضربوه.

لم يكن قد مضى على عودته إلى باريس وقت طويل عندما استُدعي إلى مدينة تورين، حيث أشارت التقارير جميعها أنَّ عمال مصانع السيارات يعدّون العدّة لثورة شيوعية. كانت صحف هيرست قد عرضت صورة لعمال مدججين بالسيوف والبنادق والحراب، وقد وقفوا أمام جدران كُتِبَ عليها: «يحيا لينين». عندما وصل سلدز، على أي حال، اصطدم مباشرة بصاحب هذه الصورة، أرييل فارغاس، المصوّر في مؤسسة هيرست الدولية للأفلام الإخبارية. أوضح فارغاس أنه بالنظر إلى أن الهدوء الذي خيّم على مدينة تورين يتعارض مع ما أملى عليه مكتبه أن يجده، فقد دفع المال لرجلٍ؛ كي يخطّ الشعار على جدران مصانع فيات، ثم جال على متاجر الأثريات وابتاع كل قطعة سلاحٍ عثر عليها، وأعطاها الرجالَ وطلب منهم ألا يبتسموا ريثما يلتقط الصورة. وفي غياب أخبار حقيقية، ذهب سلدز لمقابلة صحفي إيطاليّ كان قد عمل مراسلاً مستقلاً لحسابه اسمه بينيتو موسوليني.

عام 1920، انتقل سلدز إلى مكتب برلين، ونزل في فندق أدلون الذي اتسم بعمارته وزخرفته المفرطة، وقد تبيّن أنه ذو إطلالة ممتازة على جمهورية فيمار[1]. إذ اعتادت مارلين ديتريش احتساء الشاي في بهوه، وقطن في أحد أدواره مليونير مخيف أحبّ الطعام الريفي، وعبرّ أبوابه دَلَفَ أمثال الأمير يوسوبوف، الذي استدعى سلدز ليحكي له عن دوره في مقتل راسبوتين، وصائغ مجوهرات القيصرة الروسية آرون سيمينوفيتش، الذي قال: إن لديه الدليل على أن راسبوتين كان عميلاً لألمانيا. طلب كلاهما مبالغ طائلة مقابل قصتيهما، بيد أنهم في شيكاغو رفضوا الدفع؛ تماماً كما فعلوا في كل مرة طلب منهم إنشتاين، ردّاً على اتصالات سلدز الهاتفية؛ كي يدلي بتعليق على آخر المستجدّات، أن يتبرعوا بالمقابل بمبلغ زهيد للقضايا اليهودية. على أي حال، كانت الإدارة مستعدّة للدفع مقابل أمور معينة، كأن

(1) مصطلح يستخدم للإشارة إلى الجمهورية الألمانية عامي 1919 و1933 عندما علّق الزعيم النازي أدولف هتلر العمل بالقانون وتربّع على السلطة.

تدفع 25.000 دولار لسيغموند فرويد؛ كي يعلّق على أعظم محاكمة في جريمة قتل شهدتها أمريكا آنذاك (تصرّف فرويد بحكمة وامتنع عن التعليق)، أو 5.000 دولار مقابل رسائل الغرام التي تخصّ الراقصة إيزادورا دنكان، التي وجدها سلدز تعيش في شقة رخيصة في فريدريك ستراس، وقد بلغ الفقر منها مبلغاً منعها من الخروج، وازداد وزنها على نحو منعها من الأداء. قبلت المال الذي قدمته شيكاغو وأمّلَت فصلاً، بيد أن كاتبة الاختزال صُدِمت بمحتوياته فقصدت سلدز وأخبرته أنه لم يعد بمقدورها الإصغاء إلى تزّحات مماثلة. عندما استأجر سلدز كاتبة اختزال بديلة، كانت إيزادورا قد غيّرت رأيها. عتب سلدز عن أرنولد بينيت ومأدبة الغداء التي جمعتهما، وعن السخافات والأمور المنافية للعقل التي جلبها التضخّم في ألمانيا (ارتفعت قيمة الدولار مقابل المارك ارتفاعاً غير مكبوح، حيث مكّنت هذه المعدلات سلدز من شراء لوحة لفان كوخ بمبلغ 25 سنتاً، ومكّنت أحد زملائه من شراء قصر مقابل 10.000 دولار)، وعن العشاء برفقة شارلي شابلن. أراد شابلن أن يترك انطباعاً جيداً لدى بولا نيغري فسأل خلسة عن معنى عبارة «أنت أجمل امرأة قابلتها في حياتي» بالألمانية. وبعد أن قيل له ما حسِبَه العبارة الصحيحة، انحنى أمامها وخاطبها قائلاً: «مدام نيغري، du bist ekelhaft» فما كان من الممثلة إلا أن وقفت وصفعته ثم مصت. كان رد فعلها هذا طبيعياً، ذلك أن شابلن المنحوس قال لها أنها مقرفة.

كانت القصة الأهم في مطلع العشرينيات هي المجاعة الروسية، وبعد السبق الصحفي الذي كتبه فلويد غيبونز (انظر الفصل 9)، بعد أن سمح الروس، في مقابل المساعدة الأمريكية، بدخول المراسلين لتغطيتها. و كان سلدز بينهم، وعندما بدأت المجاعة في الجنوب بالانحسار، طُلِبَ منه أن يبقى في موسكو. وهكذا كان أن وجد نفسه، حين أخذ يلتقط الصور لتروتسكي، في أثناء استعراض عسكري في الساحة الحمراء، وهذا أمرٌ غريب، فقد ظنّ أن الثورة ألغت الاحتكارات. وافقه تروتسكي الرأي، وأرسل المصور الآخر ليحزم معداته، وسأل سلدز بأي وضعية يريد أن يصوّره، ثمّ اكفهرَّ تروتسكي كما يجب. بيعت الصور في شتى أنحاء العالم. أما لينين، فتطلب مزيداً من التواطؤ. كان سلدز قد سمعه يخطب (يصفه بأنه «يحرك يده بطريقة ذكية يلحّ بواسطتها على فكرة ما، وفي الآن ذاته يسترق النظر

إلى ساعته...»)، وأجرى معه لقاءً مقتضباً. لكن عندما سمع وأحدٌ زملائه أن فناناً أمريكياً يقدّم اسكتشات عن فلاديمير إيليتش أتخماه بالأسئلة، وبذلك أدار بالتحكم عن بُعد حواراً مطولاً عن الزعيم السوفييتي. إضافة إلى كشف أن ما يقرب من 50.000 «خائن» قد أعدمهم السوفييت (كشفٌ انتُزِعَ من أحد رؤوساء الأمن بالطريقة القديمة، وهي طرح أرقامٍ مختلفة أمامه إلى أن يستقر على أحدها)، فقد احتفظ سلدز بهذه القصص في دفتر ملحوظات؛ كي تتسنى له كتابتها بعد مغادرة موسكو أو محاولة تهريبها كرسائل في الحقيبة الدبلوماسية بحيلة بسيطة، وذلك بإضافة: «عزيزي جون... أطيب الأمنيات، جورج». وفي آب عام 1923، كُشِفَ أمر الخدعة وطُرِدَ سلدز وثلاثة آخرون.

عاد إلى مكتب شيكاغو بقصد التخلّص من السموم الفكرية، وهو إجراء إلزامي آنذاك على أفراد فريق تريبيون العامل في الخارج. إذ تعيّن عليهم العودة إلى القاعدة مرة كل ثلاث أعوام مدة من الوقت يقضونها في العمل على تغطية الجرائم، أو «إعادة الأمركة» كما كان يُدعى. قضى سلدز مدته تحت أنظار ألفرد «جاك» لينغل - صلة وصل تريبيون الرئيسة بالشرطة، وكما تبيّن لاحقاً، اندراج اسمه في جدول رواتب آل كابوني. كان حزامه المرصع بالألماس والأوراق النقدية تلمّح إلى شيء ما، بيد أن حقيقة المراسل الذي وصفته تريبيون بداية بـ«شهيد الصحافة» لم تظهر إلا بعد عدة أعوام عندما أُردِيَ الرجل. في هذه الأثناء، كان سلدز قد عاد إلى إيطاليا، التي بات يحكمها الآن مراسله المستقل القديم، موسيليني. لم يكن قد مضى على وصوله إلى إيطاليا سوى مدة قصيرة عندما تناهت إلى سمعه شائعات مفادها أنّ إل دوسي قد أمر بقتل زعيم الحزب الاشتراكي جياكومو ماتيوتي. وبصرف النظر عن التحذيرات من مخاطر ما يقومان به، بدأ سلدز ومساعده كاميلو كيانفارا بحثهما المحفوف بالمخاطر ولم يلبثا أن عثرا على الدليل. ومن وجهة نظر أمريكية كانت الملحوظة المضافة إلى القصة: القاتل الذي قام بالعدد الأكبر من الطعنات أمر تو دوميني هو من سكان سانت لويس الأصليين.

أرسل سلدز القصة مرفقة برجاء ألا تنشر في نسخة باريس. وبالطبع، نُشِرَت في الصحيفة الباريسية في اليوم الثاني مباشرة، إلى جانب تصدير مُسهب عن كاتبها. رافقت السلطات

الإيطالية الحانقة سلدز حتى صعد على متن أول قطار مُغادر. وعندما توقف القطار في مودينا، صعدت إليه عصابة بقمصان سوداء تناديه بالاسم. استطاع سلدز أن يجد ملاذاً في مقطورة أربعة أدميرالات من البحرية الملكية البريطانية، الذين طردوا الفاشيين بعد أن أوسعوهم ضرباً. كان مساعد سلدز، كيانفارا، أقل حظاً، فقد ضُرب ضرباً مبرِّحاً ولم يتعاف قط. كان واحداً من لائحة طويلة من المساعدين وتقنيّي التصوير والمعلّقين، وأحياناً الكتّاب. الغُفَّل الذين قضوا خدمة لقصص المعلقين، دون أن ينالوا أي مجدٍ أو جوائز تعويضية أو وظائف ثانوية برواتب مغرية. ففي حين صار كيانفارا معوقاً إلى الأبد، على سبيل المثال، عُنِيَ سلدز، في أثناء عامٍ واحد، الوظيفة الأهم: وظيفة مراسل متجول في أوروبا الشرقية، وكانت الوظيفة تقتضي زيارة مدفوعة التكاليف، مرتين في العام، لكل بلد يمرّ فيه قطار السرق السريع، بالإضافة، طبعاً، إلى زيارة بغداد ودمشق بالسيارة. كان هناك على الأقل، ضربٌ من العدالة تجلّى في إصابة سلدز بالملاريا، وإن كانت إصابةً طفيفة، فقد حُرِمَ من العود إلى الولايات المتحدة، وأُرسلَ مباشرة إلى المكسيك، وهناك وجد القصة التي أنهت مسيرته مع التريبيون قبل الأوان. فقد سُرِّبَت إليه وثائق توحي بأن السفارة الأمريكية تورطت في اغتيال الرئيس المكسيكي عام 1913، وأرسل قصة يقول مطلعها: «كان لدى السفير الأمريكي في المكسيك، هنري لين ويلسون، علمٌ سابق بمؤامرة يخطط لها جنرال يدعى هويرتا للإطاحة بالحكومة وزجّ رئيسها، الزعيم الليبرالي ماديرو، في السجن». أحجمت الـ تريبيون عن نشر القصة، واستقال سلدز اشمئزازاً، ولم يعمل ثانية قط مع الصحف على نحو رسمي. كان قد غدا في التاسعة والثلاثين.

ارتحل سلدز إلى باريس ليعمل على كتاب، والتقى المرأة التي ستغدو زوجته، واختلط عبر علاقات شقيقه جيلبرت، الذي كان رئيس تحرير مجلة فنية رائدة، بألدوس هكسلي، وجي. هـ.ويلز، وبيكاسو، وريبيكا ويست، وكيرنسكي، وتيودور دريسه، وكول بورتر (اعتراضات سلدز وغيره من مرتادي الحفلات الذين كان بورتر يختبر عليهم كلمات أغنيته الجديدة، هي ما حال دون أن تتضمن سطراً يقول: «أنت القمة، أنت موسوليني»). وغدا سكلير لويس صديقه المميز، إذ أقرضه 5000 دولار؛ كي يسدّد ثمن منزله الأول، وهذا ما مكّنه من الزعم أن حائزاً على جائزة نوبل يدير مدخراته وشركته. إذاً، وفي حين استقرّ على

الصعيد الأسري لكنه بقي منشقّاً على الصعيد المهني، شرع سلدز في إخراج الحقيقة بالطريقة الوحيدة المتاحة الآن، ألا وهي الكتب. كان كتابه الأول «لن تنشر هذا»، قد استند إلى مقالات لم يستطع قطّ أن يقنع محرّريه بها، ثمّ تبعته كُتُب الفاتيكان: «الماضي والحاضر والمستقبل»، تأريخٌ للكنيسة الرومانية الكاثوليكية موضوعيّ بما يكفي ليختاره نادي الكتاب الكاثوليكي كتاب الشهر، وليُنظر إليه على نطاق واسع بوصفه عملاً يدحض حجة جناح اليسار؛ و«حديد ودم وأرباح»، وهو تحقيق في صناعة التسليح؛ و«قيصر نشارة الخشب»، عن موسوليني، و«حرية الصحافة» و«أسياده الصحافة»، وكلاهما يبيّن كيف أن القائمين على الصحافة لم يسمحوا سوى بقسط صغير من الحرية؛ و«لن تفعل هذا» و«صيد العرافات»، الذي تفحّص القيود المفروضة على الحريات المدنية، والاضطهاد الذي يتعرّض له الحمر، والأزمة الكاثوليكية عن صلات الكنيسة بالجماعات الفاشية.

قلّة من هذه الكتب راجعتها الصحافة السائدة، ورفضت، في حالة الكتابين عن الصحافة، الإعلانات عنهما. بل لقد كان ذِكرُ اسمه ممنوعاً منعاً باتاً في بعض الصحف، وبالأخصّ نيويورك تايمز. وفي عام 1943، أدلى سلدز بشهادته في مجلس العلاقات العمالية القومي لمصلحة نقابة الصحافة، وكان يحاول آنذاك أن يكسب الاعتراف به في الـ تايمز. بيد أن مدير تحرير الصحيفة اقترب منه بعدئذٍ وقال له: «أظنّ أن اسمك لن يُذكَر ثانية في الـ تايمز»؛ وهذا ما حصل على مدى عقود عدّة. من حُسنِ حظه أن كان هناك صحيفة ليبرالية وحيدة في نيويورك، الـ بوست، مملوكة لديفيد سترِن، وفي أواخر عام 1936 أقنع سلدز الصحيفة بإرساله وزوجته هيلين إلى إسبانيا ليغطي الحرب الأهلية. وهناك أجرى لقاءات مع جنود المشاة الإيطاليين الأسرى، وبذا تمكّن، في مواجهة إنكارات الفاشيين، من إثبات أن موسوليني أرسل إلى هناك فرقاً عسكرية كاملة. وكتب تقارير صحفية عن قصف مدينتي غيرنيكا وبرشلونة، حيث سوّت القوى الجوية أحياء برمتها بالأرض كما لو أن مارداً دعسها في سَورة غضب. ففي إحدى الغارات على برشلونة، على سبيل المثال، قُتِلَ 2000 شخص في حي و حد. عاد سلدز مقتنعاً أن بإمكانه سماع وقع خطى حرب عالمية تقترب.

وعدت نظرته الباحثة عن أي علامة على وجود شخصية عسكرية في الوطن أكثر حدّةً. ففي عام 1938، عثر على كتيّب ألّفه الجنرال ماك آرثر عنوانه «التدخل العسكري

في الاضطرابات الأهلية». كان هذا الكتيب الدليل الرئيس للجيش والحرس الوطني في المواجهات مع المُضربين. وقد تبنّى، من بين علاجات أخرى، أن نيران المروحيّات يمكن أن تبعد مثيري الشغب عن الأسطحة، وبحسب ما جاء في دليل المعركة الرئيس، المجلّد VII. القسم3، الاضطرابات الأهلية، توجيه الغوغاء ضمن أو عبر قسم من المدينة لا تكون فيه عمليات السلب والنهب مربحة، وحيث يُختَزَل الدمار في الأملاك الناجم عن العمليات العسكرية إلى حدوده الدنيا، ويستحسن أن يتأثّر به مثيرو الشغب أو تلك الطبقة من الناس التي تمثل قوام مثيري الشغب.... اقتبس سلدز من أعمال ماك آرثر بإسهاب وعلى نحو مدمّر، ولوحقت مقالته من قبل صحيفتي نيويورك بوست و وورلد-تلغرام، وأُرغمت وزارة الحربية على سحب الكتيّب.

كان سلدز، إذاً، مجنّداً بالفطرة لحساب كِنْ، مجلة راديكالية كان يخطّط لها آنذاك ديفيد سمارت، صاحب إسكواير. كانت «خطوة إلى اليسار بعيداً عن المركز»، كما خطّط لها مالكها، كان سلدز وإرنست همنغواي من بين المحررين المجندين، ولم يلبث سلدز أن باشر العمل على عمود يدعى «باطلةٌ تلك الكذبة» يلفت فيه النظر إلى الأكاذيب التي تروجها الصحافة السائدة، وباشر تحقيقاً داخل الجيش الأمريكي ودوره في فضّ الاضرابات. لكن في حين كان سلدز يحشد هذه الطاقة الراديكالية، كانت قوى أخرى تعمل عملها. لم يقتصر الأمر على أن المعلنين لم يحجزوا إنشاً واحداً على صفحاتها، بل أعلمت أيضاً الوكالات الكبرى سمارت أنه إن كانت كِنْ يسارية بطريقة أو بأخرى، فإن الإعلانات التي تحتل صفحات كاملة ستبدأ بالاختفاء من إسكواير. جَبُنَ سمارت، وأخبر سلدز أن يترك الجيش لشأنه، فاستقال الأخير عندئذٍ. وكانت كِنْ خلواً من أي مضمون ليبراليّ عندما انطلقت. صارعت بعض الوقت ثم اختفت. بعدئذٍ بمدة قصيرة وُجِدَ سلدز مذنباً بتهمة استخدام أسهم الشركة لغاياته الشخصية وزُجّ به في السجن عقب هذا الكارثة. أدرك سلدز أنه ليس ثمة سوى سبيل واحد لنشر وجهة نظره الخاصّة كصحافة مشاكسة، ألا وهو أن يتولى نشرها بنفسه. كان البحث عن تمويل لمجلّة أو صحيفة تقليدية أمراً غير وارد، وهكذا ولدت فكرة رسالة إخبارية أسبوعية من أربع صفحات، على طول خطوط ذا ويك، صحيفة مكتوبة بخطّ اليد على هيئة مذكّرة دبلوماسية تنطوي على أهم القضايا

الدولية الراهنة أشرف على إنتاجها كلود كوكبورن، ابن عمّ إيفلين واغ، ووجدت السلطات البريطانية أنها غير ملائمة البتة فحظرتها. أراد سلدز أن تركّز صحيفته بطريقة أقل على القضايا الدولية، بيد أنه تعيّن عليها، مثل ذا ويك، أن تعتمد في تمويلها على مبيعاتها فقط. وكل سلدز إلى صديقه الشيوعي بروس مينتون أن يحثّ النقابات العمالية على الاشتراك، وعاد كما يجب بـ 6.000 اسم و 3.000 دولار في المصرف، وبذا صارت الأمور جميعها جاهزة في «إن فاكت»، كما أسمتها هيلين سلدز. قُدِّر لهذه الصحيفة أن تكون أطول إسهامات سلدز بقاءً في الصحافة، وأن تنشر واحداً من أهم الأخبار في القرن العشرين، وأن يقتبس منها عدد من النشطاء اللاحقين، بدءاً بـ آي.ف.ستون وصولاً إلى رالف نادر، بوصفها مصدر إلهامهم.

ظهر العدد الأول بتاريخ 20 أيار 1940 تحت شعار «ترياقٌ ضد الزيف في الصحافة اليومية»، وهذه المرة الأولى ترقى مطبوعةٌ إلى مستوى شعارها. عُنونَت المادة الأولى «قَسَمٌ على السرية»، وبدأت:

اجتمعت ثماني عشرة شخصية بارزة سرّاً بتاريخ 29 نيسان، وقرروا أن يبذلوا ما في وسعهم لإلغاء قانون الحيادية القائم. وتوصلوا إلى نتيجة مفادها أن أمريكا لا بدّ أن تكون جاهزة لتقديم أي عون يطلبه الحلفاء –حتى الجيوش.

وكان قد دعا إلى هذا الاجتماع فريدريك ر. كودرت، مستشار قانوني في السفارة البريطانية بين عامي 1915-1920. وحضر الاجتماع عدد من زعماء الكنيسة ومنظمات السلام، إضافة إلى هنري ل. سمبتون، وزير الدولة في عهد هوفر، ووينديل ويلكاي، رجل الاستثمارات والحصان الأسود في الحزب الجمهوري، وتوماس دبليو. لامونت، شريك مورغان.

تضمّن العدد أيضاً مواداً عن اتحاد المستهلكين الذي أُلّف حديثاً، وعن العرق ومعاداة السامية. لم يلبث سلدز بعدئذ أن كشف «حقيقة ويندل ويلكاي»، وأدرج بتاريخ 15 تموز 1940 آراء أقصى اليمين الجمهوري التي عبّر عنها أفراده في خطابات ليست للنشر، وفضحَ منظمة فاشية أمريكية تدعى القمصان البيض، والحملات الرجعية، واجتماعات الضغط

التي تقوم بها رابطة الصناعيين الوطنية. ضمّ مؤيدوه ومصادره هاري ترومان، ونائب الرئيس هنري أ. والاس. وإليانور روزفلت، ووزير الداخلية هارولد ل. إيكيس، وعدداً كبيراً من أعضاء مجلس الشيوخ والنواب، وعدداً لا يُحصى من الصحفيين الذين زوّدوه بقصص عرفوا أنّ صحفهم تجد نشرها غاية في الخطورة. وبحسب تقديرات سلدز، فقد زوّده قرابة مئتي مراسل بالقصص، من بينهم أعضاء من فريق هيرست العامل في البيت الأبيض. ومحرران في سكريبس - هوارد، ومحرّرون من صحف هيرست أرسلوا إليه نسخاً أصلية من مذكّرات دبلوماسية صادرة عن الرئيس ويحتفظ بها مديرهم؛ رأوا أنها تستحق أن يطلع عليها جمهور أوسع؛ وكان لهم ما أرادوا. وسرعان ما قفز عدد النسخ المبيعة من إن صاكت إلى 100,000 نسخة ويزيد.

لم تكن معظم القصص التي كتبها سلدز مجرد قيل وقال إعلامي، بل كانت تقارير حدية وخطرة لم تكن الصحافة السائدة لتقربها خشية أن تمسّ مشاعر المعلنين. وحده سلدز وقلّة أخرى من الصحف الليبرالية غطّوا، على سبيل المثال، تغطية شاملة مداولات لجنة الكونغرس في عهد ترومان حول الإفادة من الحرب تجارياً. وهو ما كشف النقاب عن الاتفاق بين جنرال موتورز وستاندارد أويل وإيثل غاز من جهة، وآي. جي. فاربن الألمانية من جهة أخرى، التي كانت مسؤولة عن تزويد هتلر بأسرار تصنيع الرصاص رباعي- الإيثيل لأجل البترول (اللازم لسلاحه الجويّ)، وسلعته تقنية تصنيع مطاط صناعي. هذه الفضيحة التي كانت اليوم ستؤجج سخط المراسلين وكتاب الأعمدة ونقمتهم أشهراً عدة، شاعت على نطاق واسع عام 1943، وأُغفلت عمداً -مثل العلاقات بين النازيين وبرات وويتني ودوعلاس لصناعة الطائرات وآلكوا وجنرال إلكتريك ودو بونت- وجميعها مذكورة في كتاب سلدز «حقائق وفاشية».

بلغ قمع الحقائق المناهضة للمصالح التجارية أشدّه في القصة التي شنّ سلدز عليها حملة شخصية عنيفة لما ينيّف على عشر سنوات: العلاقة بين التدخين والإصابة بالسرطان. ففي شباط عام 1938، قدّم الدكتور ريموند بيرل من جامعة جون هوبكنز نتيجة دراسة عن المدخنين استغرقت أربعة أعوام وخلصت إلى نتيجة مفادها أن التدخين يُنقِص احتمالات

بقاء الإنسان حيّاً- وخصوصاً لمن تراوح أعمارهم بين 30 و60 عاماً، إذ توفي 61% زيادة من المدخنين المدمنين مقابل غير المدخنين. قدّم الدكتور بيرل دراسته هذه أمام أكاديمية الطب في نيويورك، وكان حاضراً هناك مراسلو الصحافة والإذاعة. كتب سلدز لاحقاً: «ستّ من بين الصحف اليومية الثمانية في نيويورك آنذاك لم تورد الخبر، واكتفت وورلد تلغرام وتايمز بإيراد بضع فقرات». بيّن بحثٌ موسّع أن واشنطن بوست هي اليومية الرئيسة الوحيدة التي أوردت الخبر؛ ذلك أن إعلانات السجائر كانت تدرّ آنذاك ما يزيد على خمسين مليون دولار سنوياً.

نشر سلدز مقالته الأولى عن التدخين في إن فاكت بتاريخ 13 كانون الثاني عام 1941، تحت عنوان «التدخين يقصّر العمر»؛ ولم يستسلم. ففي أثناء العقد الذي تلا، نشر ما يزيد على خمسين مقالة عن الموضوع، مهاجماً بعنف، وعلى نحو متكرر، ما ذهب إليه، وكان رأيه مبرّراً، بوصفه فضيحةَ تركِ خمسين مليون مدخن أمريكي جاهلين المخاطرَ التي تنطوي عليها عادتهم تلك. أورد سلدز تقارير من خبراء مثل الدكتور إدوين ج. غريس، واحدٌ من أولئك الذين نوّهوا إلى التدخين بوصفه سبباً لسرطان الرئة، وحذّروا من آثاره في الجنين. وأورد مقالات مطولة عن تقرير الجمعية الطبية الأمريكية عام 1944 بعنوان «آثار التدخين»، الذي تجاهلته الصحافة عموماً، باستثناء ستة إنشات في نيويورك تايمز. وكتب تقريراً مفصلاً عن الرقابة التي فرضتها الصحافة على قصة التدخين. ففي عام 1948، على سبيل المثال، قدّم الدكتور ألتون أوشسنر، أستاذ الجراحة في جامعة تولين، دليلاً جديداً على العلاقة المباشرة بين مبيعات السجائر والوفيات بسرطان الرئة. غطّى الخبر مراسل الـ أسوشيتيد برس، إليوت تشيز، واستهل تقريره بالقول: «لن تحبذ شركات التبغ ما يلي، بيد أن رجلاً عارفاً يرى أن مواطنين كُثُراً إنما يحفرون قبورهم برئاتهم»، بعد مضي ساعة على إرسال هذا التقرير، أرسلت الـ أسوشيتيد برس رسالة «حذف»، قائلة إن القصة «إشكالية». كشفت إن فاكت لاحقاً أن القصة التي تلت بعد تسعين دقيقة حذفت كل إشارة مواطنين «يحفرون قبورهم برئاتهم»، و«وجهة النظر المعادية لإعلانات السجائر» و«ازدياد نسبة الإصابة بالسرطان بين النساء»، وإقبال النساء على نحو متزايد على التدخين، والوفاة، وحذفت الخاتمة التي تشير إلى «التفكير ملياً في الأمر». وفي أيلول عام 1952، أي بعد مرور

أحد عشر عاماً على مقالة سلدز الأولى، نشرت ريدرز دايجست (من المفارقة الساخرة أنها كانت هدفاً دائماً لسلدز) مقالتها «السرطان في العلبة»، ثم تبعتها تايمز ونيوزويك، لتصل أخيراً حقيقة التدخين إلى جمهور عريض.

وتحلّى سلدز بالشجاعة لفضح لجنة مجلس النواب المختصة بالنشاطات غير الأمريكية، ورئيسها مارتن دايز، وخليفته صائد الساحرات السيناتور جوي مكارثي. فضح سلدز هذا الأخير بوجه خاص؛ لتقديمه أدلة زائفة، ولسياسته الصارمة القائمة على الاغتيالات واستخدامه عائدات الضرائب بطريقة غير قانونية لحسابه الشخصي. حيث أوردت إن فاكت، على سبيل المثال، بتاريخ 14 شباط 1948:

سناتور أمريكي «يتجاهل» الإبلاغ عن 43,000 دولار وعن أرباح في تعاملات البورصة، والمؤسسات الإعلامية تحذف فضيحة الضرائب.

بل لقد كان تردد الصحافة السائدة في نشر هذه الأخبار أكثر وضوحاً بعد عامين. فقد وجد الدكتور ليون بريكهيد، من جمعية أصدقاء الديمقراطية، أن بعض المعلومات التي وردت في خُطَب مكارثي حملت تشابهاً رهيباً بمعلومات يتضمنها كتيّب ألفه جوي كمب، الناشر المساعد لـ ذا أويكنر، أول مجلة فاشستية صريحة في الولايات المتحدة، الذي زُجَّ به في السجن عام 1948 لازدرائه الكونغرس. كتب الدكتور بريكهد إلى مكارثي يسأله إيضاحاً، ولما لم يصله أي إيضاح، وزّع ما بين يديه من أدلة للصحافة. بيد أن كلمة واحدة عن الموضوع لم تُنشر، إلى أن اتصل الدكتور بسلدز. وكانت النتيجة، بتاريخ 17 نيسان 1950، عدداً من إن فاكت خُصِّص برمّته للقصة، تحت عنوان:

خطاب مكارثي في وزارة الخارجية «يدعو إلى القضاء على الحمر» عبارات ملّخوذة بالحرف من كتيب يسيء إلى معاداة السامية.

في هذه الأثناء، كان أعداء سلدز يقومون بما هو أكثر من مجرد التطويح به، فقد انطلقوا الآن للنيل منه؛ وصلته تهديدات بالقتل، وهاجمه بضراوة معلّقو الإذاعة اليمينية مثل وستبروك بغلر (الذي كان صديقه في الماضي، وانتهى به الأمر أن صار يمينياً متشدّداً حتى في نظر جمعية جون بيرش)، وجورج سوكولسكي وفولتون لويس جونيور. «كانوا أولاد زنى»

قال سلدز: «كتبوا أن عميلاً روسياً كان يمرّ بمكتبي أسبوعياً؛ كي يدفع لي مرتبي. لم يكن بحوزتي مال كي أقاضيهم بتهمة القذف. وقال لي محاميّ: إن التوصّل إلى تسوية يستغرق أعواماً، وإنني، حتى إن كسبت القضية، لن أحصل على فلس واحد أبداً. أُعدِمتُ الوسيلة لمحاربتهم. بل لقد وصفته لايف أنه شيوعي، إلى جانب تهديدات أخرى أنه يمثّل خطراً على الحضارة جاءته من شخصيات مثل إنشتاين والموسيقار آرون كوبلاند».

بيد أن الأخطر من هذه التعليقات اللاذعة جميعاً كانت مغازلات البيروقراطية الماكرة بمكتب التحقيقات الفدرالي برئاسة ج. إدغار هوفر. إذ لم يشرعوا في استخدام مكتب البريد لمراقبة بريد سلدز فحسب، وإنما لجمع لائحة بمشتركي إن فاكت. حاول سلدز إرسال الصحيفة في مغلفات خاليةٍ من أي كتابة، لكن ما إن انتشرت شائعة أن قراء إن فاكت هم رجال ونساء موسومون حتى أخذ المشتركون بداية بالانتقال التدريجي، ومن ثَمّ بالفرار الجماعي المذعور. ومن رقم أعظمي بلغ 176,000 مشترك عام 1947، تراجعت لائحة مشتركي سلدز إلى 56,000. وفي تشرين الأول عام 1950، توقفت إن فاكت عن الصدور؛ وكسب المعركة مضطهدو الحمر.

كان الأمر مسألة وقت قبل أن يُستدعَى سلدز للمثول أمام لجنة مجلس النواب المختصة بالنشاطات غير الأمريكية. وهذا ما حدث في عام 1953، حيث جلس المراسل الذي فضح تهرّب مكارثي من الضرائب ونفاقه في مواجهة الرجل نفسه وسُئِل: «هل أنت الآن أو هل كنت سابقاً عضواً في الحزب الشيوعي؟». كان الجواب لا، وظل هو نفسه عندما حاول محامي مكارثي روي كون ثانية طرح أسئلة لم تكن لتخدع محاوراً غرّاً: «ما عدد أفراد الخلية الشيوعية التي انتسبت إليها في كونيكتيكت؟». اتهمه كون ومكارثي بعدئذ بأنه مناهض للكاثوليكية، وبمهاجمة الجيش الأمريكي (أخبره سلدز أن الجيش يسحق الإضرابات، الأمر الذي رأى أنه نشاط غير أمريكي بالقعل)، وبأنه رفيق درب للحزب الشيوعي؛ لأنه يمتدح تيتو (تعيّن على سلدز أن يلفت النظر إلى أن تيتو عارض ستالين وتحدّاه)، وبأنه كان غير مؤيد الحرب الكورية (أحاله سلدز إلى خطابه الذي عدّ فيه أن الشماليين هم المعتدون). ولأن محاولاته جميعها لم تصل إلى نتيجة، صَرَف مكارثي سلدز ثم خرج بعد برهة؛ ليعلن أن المراسل بُرِّئ، وإن لم يُوضّح قط ممّ!

في منتصف ستينياته، غدا سلدز صحفياً منبوذاً بالفعل في هذا المناخ غير الليبرالي الذي دام مدة طويلة بعد سقوط مكارثي. فكرّس نفسه للكتب («الأقوال العظيمة»، الذي باع ما يزيد على مليون نسخة، على الرغم من أن الصحافة لم تراجعه قطّ؛ تبعه «قل الحقيقة واهرب» عام 1953. و«لا تسأم الاحتجاج قطّ» عام 1968). شهد سلدز عصر الستينيات وهو يعصف بأمريكا مثل عاصفة رعدية في نزهة كنسية، وشهد، مغموراً بشعور الرضى، تأثير آي. ف. ستون وصحيفته الإخبارية المتخصصة، التي وضعت مخادعي واشنطن تحت المجهر وقد ألهمتها في ذلك إن فاكت، وورثت عنها بالفعل قائمة مشتركيها (التي دعاها سلدز بـ ليبراليو الدولارات الخمس). عاش سلدز ليشهد تقرير نقيب الجراحين في الولايات المتحدة عام 1965 عن التدخين وسرطان الرئة وهو يثبت صحة ما كتبه قبل عقود حلت. استمر سلدز في مراقبة ما يدور، وقُدّر له أن يحيا ليكتب في ثمانينياته «حتى الآلهة عجز عن تغيير التاريخ»، وليشهد ووترغيت انتصار نموذج الصحافة الذي تبناه. وفي تسعينياته، كتب سلدز سيرته الذاتية «شاهدٌ على قرن»، وظهر ممثلاً لنفسه في فيلم «وورن بيتي حُمّر»، المقتبس عن رواية «عشرة أيام هزّت العالم» لجون ريد، الذي عرفه سلدز في هارفارد وفي روسيا. عاش سلدز ليشهد أفضل ما قدمه بصفته مراسلاً وهو يُبعَث إلى الحياة ثانية ويُنشر في كتاب «قارئ جورج سلدز»، الذي حرّره راندولف ت. هولَهت؛ بل لقد عاش كفاية ليرى اسمه في نيويورك تايمز.

توفي سلدز عام 1995 عن عمرٍ يناهز مئة وأربعة أعوام، أي قبل عامٍ واحدٍ من طلاق فيلم غولد سميث الوثائقي عن حياته بعنوان «قُل الحقيقة واهرب :جورج سلدز والصحافة الأمريكية»، ورُشّح الفيلم لجوائز الأوسكار. نعتته التايمز بلغة مُزدرية حملت في طيات كلماتها هجوماً حاداً عليه. توقفت إن فاكت عن الصدور عام 1950، عندما بدت تحذيراته من الفاشية نشازاً مع تصاعد الاهتمام بالشيوعية. بيد أن هذا ظلّ على الأقل أفضل من افتراء شيكاغو تريبيون، فقد كتبت الصحيفة التي عمل فيها سابقاً: «لم يعترف السيد سلدز علانية قطّ بعضويته في الحزب الشيوعي». على أي حال، نعاه آي. ف. ستون نعياً لائقاً، حيث كتب: «كان عميدنا وشيخنا نحن مراسلي التحقيقات». لقد عاش سلدز ليرى الصحف الأمريكية وهي تتحول من صحف حذَفتْ، لأسباب تجارية، قصة ابن صاحب

المجمع التجاري الذي يفتصب البائعات في مجمّع والده، وقمعت الأخبار عن علاقة التدخين بالسرطان، إلى الصحافة السائدة التي فضحت ووترغيت، وأبو غريب، والإعلام البديل الذي يلعب دور كلب حراسة لا يلين. كان ذلك تحولاً لعب فيه سلدز دوراً ليس بقليل.

obeikandl.com

نيللي بلاي

5

نيللي بلاي

1864 - 1922

أفضل مراسلة متخفية في التاريخ

في أيلول عام 1887، أُحضِرَت شابة أمام محكمة الشرطة في إسكس ماركت في مدينة نيويورك. قالت: إن اسمها هو براون، بيد أن أحداً لم يعرف هل هذا اسمها الحقيقي أم لا؟ ذلك أن الفتاة التعسة، بحسب شهادة سيدة تدعى إيرين ستاندارد، كانت مجنونة تماماً. فقد كانت تتصرف بغرابة جعلت نزيلات الفندق الرخيص الذي كانت تنزل فيه مقتنعات أنها ستذبحهن في أسرّتهن. ثم إنها لا تنفك تحدق في الفضاء، وتغمغم أشياء عن حقيبة ملابس مفقودة. استمع القاضي وأحس أن لا خيار أمامه سوى إحالة الفتاة إلى مشفى بيليفي، ومن ثم إلى جزيرة بلاكويل، بيمارستان المدينة.

و لحال أن القاضي باتريك دَفي كان شخصاً عطوفاً، مقتنعاً أن الفتاة «عزيزة على قلب أحدهم»، كما قال بتلك النبرة الفروسية، وأنهم، على الأرجح، سيطالبون بإعادتها ما إن تُنشَر قصتها. والحق أن كلامه هذا اتّسم بشهامة بالغة واحترام بالغٍ للفتاة أمامه. لذا، وقبل أن تُساق الفتاة المرتبكة إلى المشفى، دَعا القاضي الصحفيين النبلاء (لم يكن ثمة نساء يعملن في الصحافة آنذاك)؛ لإلقاء نظرة على المخلوقة المسكينة وكتابة التماسات لأقربائها كي يحضروا. في اليوم الثاني، حفلت صحف نيويورك بالقصص عن الفتاة الضائعة. سألت صحيفة صَن: «من هذه الفتاة المجنونة؟»؛ ونشرت صحيفة إيفيننغ تلغراف القصة، مضيفة أيضاً أنها «لا ريب مجنونة»؛ وكتبت نيويورك تايمز عن «الفتاة الضائعة الغامضة... ذات النظرة البريئة المكبوتة» التي ما انفكت تكرر: «لا أذكر. لا أذكر».

حَفِلت جميع الصحف بأخبار من هذا القبيل، عدا واحدة: نيويورك وورلد، والسبب في أنها لم تورد النبأ هو أنها عَرفت أن لا فائدة من الالتماسات؛ ذلك أن أحداً لن يحضر

ليطالب باسترداد «عزيزته»؛ لسبب بسيط هو أن الفتاة التي عدها الأطباء في بيلفو مجنونة ولا أمل في شفائها، هي في الحقيقة نيللي بلاي، مراسلتهم العاقلة تماماً في أولى مهماتها الصحفية. فقد كانت تحاول ادّعاء الجنون؛ كي تجعلهم يحيلونها إلى جزيرة بلاكويل فيتسنّى لها إجراء تحقيق عن الأوضاع هناك. كان ذلك كله فكرتها هي، كما كان مؤشراً لمحررها أن هذه الفتاة الشاحبة ذات الثلاثة والعشرين عاماً التي دخلت مكتبه قبل أسبوع واحد فقط إنما هي شخص استثنائي. ففي النهاية، أن تجد مراسلة امرأة كان أمراً نادراً بالفعل في الثمانينيات من القرن التاسع عشر، أما أن تجد مراسلة تعمل متخفية، وتعرّض نفسها لخطر جسدي، ومن ثم تكتب عن ذلك بلغة مباشرة وصريحة، فقد كانت أشبه ببطلة كتاب مغامرات للفتيات منه بأي شيء آخر تصادفه في الحياة الواقعية. وكان ذلك، بطريقة أو بأخرى، ملائماً تماماً لها؛ ذلك أن حياة نيللي بلاي لم تشبه أي شيء آخر كما شابهت حبكة رواية فكتورية يصعب تصديقها. طفولة هنية أفسدها موت مفاجئ. وزوج أم شرير، وضربات حظٍّ مفرطة، وشهرة كمراسلة من العظمة بحيث إن واحدة من قصصها تحولت إلى لعبة، وزواج غريب، وثروة جُمِعَت ثم بُدِّدت، وخيانة، وأخيراً. تنوية كان لها النصيب الأكبر. سنعود إليها فيما يخص «الجنون» لاحقاً، بيد أن قصتها تصلح بالفعل لتُروى بأي ترتيب آخر غير الترتيب الذي حدثت فيه جميعها.

أبصرت النور باسم إليزابيث جين كوكران، في بنسلفانيا، بتاريخ 5 أيار 1864، ابنة قاضٍ ريفي ميسور الحال. كانت أعوامها الست الأولى، التي قضتها في بيتٍ ريفي واسع، أعواماً سعيدة، بيد أنها وصلت إلى نهاية مفجعة عندما توفي والدها فجأة عن عمر يناهز الستين. عندئذ اكتشفت الأسرة أن القاضي، وإن كان رجلاً مرحاً وذا مزاج طيب، لم يكن إلى هذا الحدّ أو ذاك ممن يخططون للمستقبل؛ فهو لم يترك وصية، وهذا بحدّ ذاته تحولٌ حربكٌ في مجرى الأحداث فيما يخص رجلاً لديه زوجة واحدة، أما القاضي كوكران فكانت لديه زوجتان رُزق منهما بخمسة عشر ولداً. تعيّن بيع منزل الأسرة في المزاد، غير أن العقارات توزعت بطرق فاقت قدرة المبلغ الكلي على تحملها، واضطرت إليزابيث ووالدتها وأشقاؤها وشقيقاتها إلى حزم أمتعتهم والانتقال إلى أبولو، حيث أداروا فندقاً متواضعاً في الحي الفقير المجاور لحلبات السباق. ازدادت الأوضاع سوءاً، إذ يدخل بعد ذلك مباشرة شرير القصة، جون جاكسون فورد، الذي أغرى والدة إليزابيث بالزواج منه. وسرعان ما كشف عن نفسه

بوصفه عاطلاً عن العمل عنيفاً سكّيراً وَفظّاً. أخرجه الطلاق من حياتهم، لكن الذكريات السيئة بقيت، وكانت الحاجة إلى المال دائمة. فعندما قصدت إليزابيث المدرسة العامة في ولاية إنديانا، في سن الخامسة عشرة؛ كي تتدرب لتصبح معلمة، تبين أن مدخرات الأسرة لا تكفي لذلك، واستُدعيت بعد فصل دراسي واحد وحسب. عادت إلى حياةٍ حاصرتها الحاجة إلى المال من جهة، ووجهة نظر قاصرة عما يليق بفتاة في طبقتها، من جهة أخرى. كانت في العشرين، شابة حالمة تحيط حياتَها الميلودرامية التي يكتنفها الظلم، وتتوق إلى الفرار الذي جاء كما في أفضل القصص الفيكتورية، بطرق غير متوقعة.

من بين قراءاتها المعتادة كانت بتسبرغ ديسباتش، وكان هناك، في الأعداد الأولى من عام 1885، عمود «المراقب الهادئ» لـ إيرازموز ويلسون، وبمعايير تلك الأيام، لم يكن صاحب وجهات نظر تقدمية. كان موضوعه لذاك الأسبوع التحذير من الارتفاع «الخطر» في أعداد الفتيات الشابات انعاملات في المتاجر والمكاتب - أمرٌ رأى فيه تهديداً لطبيعة الوجود بحدّ ذاته. ولمواجهة هذا التهديد، حثّ ويلسون الفتاة العادية في بتسبرغ أن تركز على جعل «منزلها جنة صغيرة وتلعب هي نفسها دور ملاك». وقد عنون عموده هذا «ما الأعمال التي تصلح لها الفتيات؟»، وبالنسبة إلى شابة مثل إليزابيث، أحسّت أن انعدام الفرص يكاد يخنقها. لم يكن ذلك ليمر مرور الكرام. فقد جلست وكتبت رسالة تصف فيها العوائق التي تعترض النساء المعوزات في إيجاد دورٍ يلعبنه خارج المنزل. ولكي تحافظ على سريّتها وتضفي أيضاً مسحة ميلودرامية، فقد وقّعت رسالتها بعبارة «فتاة وحيدة يتيمة». لم يكن إملاء الرسالة وقواعدها صحيحة تماماً، غير أنها كانت واضحة وأصلية ومباشرة، ورأى فيها محرر ديسباتش جورج ميدن موهبة خام. أراد أن يكلف مؤلفتها بكتابة مقال، وهي مهمة سهلة لو أنها ضمّنت رسالتها عنوانَ. كيف، إذاً، السبيل للاتصال بها؟ قرر ميدن وضع إعلان في صحيفته، وهكذا كان، في 17 كانون الثاني عام 1885، أن ظهر الإعلان الآتي في قسم الإعلانات المبوبة:

فتاة وحيدة يتيمة

لو أن كاتبة الرسالة الموقعة بـ «فتاة وحيدة يتيمة» تُرسل اسمها وعنوانها إلى هذا المكتب، مصفته ضمانَ حسن نية وحسب، فإنها بذلك تتكرّم علينا، وسوف نمدها بالمعلومات التي تريد.

ساوره الشك في أن يكون كاتب الرسالة الأصلي شاب ما، ولم يكن قد تخلى تماماً عن شكّه هذا عندما تلقى رسالة من أحدهم وقد وقع اسمه ببساطة «إ.كوكرين» (كانت الـ «إ» الأخيرة زخرفاً ابتدعته نيللي). كتب ميدن رداً يطلب فيه مقالاً عن «الفتيات ومجالات حياتهن»، وفي يوم الأحد الموافق لـ25 كانون الثاني 1885، ظهرت أولى مقالات اليتيمة الصغيرة تحت عنوان «الفتاة الأحجية - كيف يميز سيد العمل ضد العاملات النسوة». كان من الملائم تماماً لـ ميدن أن يكتب رسالة أخرى يطلب فيها من «إ.كوكرين» -أياً كان أو كانت- بعض الأفكار. وفي اليوم الثاني، وقفت بين يديه شابة بفستان حريري أسود وقبعة من الفرو، تقول له بصوت يتهدج انفعالاً: إنَّ إ.(إليزابيث) كوكرين تقف أمامه. تجاذبا أطراف الحديث واتفقا أن تكتب مقالة أخرى. طلب أن يكون موضوعها الطلاق، ونُشرت تحت عنوان، «زواج مجنون»، وكانت هذه المقالة أكثر استفزازية من المقالة الأولى. انهال سيل من الرسائل على الصحيفة وهنأ ميدن نفسه لعثوره على محميته الجديدة، ولم يتريث في توظيفها بأجر أسبوعي مقداره خمسة دولارات، وغدت بذلك أول امرأة في فريق صحيفته. ومع الوظيفة جاء اسم جديد؛ ذلك أن اسم إليزابيث كوكرين لم يبد لـ ميدن اسماً فنياً بما يكفي، لذا سأل فريقه أن يقدموا اقتراحاتهم، فجاء أحدهم باسم نيللي بلاي (عنوان أغنية شهيرة) واستخدمته في الصحافة طوال حياتها.

كان مشروعها الأول «فتاتنا العاملة»، وهي سلسلة من ثمانية أجزاء عن الفتيات العاملات في المدينة لا تقتصر على تغطية حياتهن في العمل، وإنما تغطي أيضاً حياتهن الاجتماعية والعاطفية. كشفت بلاي في هذه السلسلة عما سيغدو لاحقاً واحداً من علاماتها المميزة: طرح أسئلة قد تخطر ببال مراسلين آخرين، غير أنهم لن يجرؤوا على طرحها. فعندما واجهتها فتاة عاملة قالت: إنها تقصد الحانات وتحتسي الشراب مع غرباء (سلوك نُظر إليه آنذاك بوصفه سلوكاً مشيناً ويجب أن يبقى طيّ الكتمان)، سألتها بلاي: «ولمَ تخاطرين بسمعتك على هذا النحو؟». وهو ما ردّت عليه الفتاة بكلام كان أيُّ مراسل سيقدّره حق قدره:

أخاطر بسمعتي! لا أعتقد أن لي سمعة أخاطر بها. أكدُّ في العمل طوال اليوم أسبوعاً تلو آخر مقابل أجر زهيد. أقصد المنزل ليلاً وقد أنهكني التعب يقتلني توقي إلى شيء

جديد، أيّ شيء، جيداً كان أم سيئاً، يكسر رتابة حياتي. لا أعرف المتعة، وليس بحوزتي كتب أقرؤها. لا أقدر على الذهاب إلى الحفلات لحاجتي إلى الثياب والمال، ولا أحد يبالي قيد أنملة بما قد يصيبني.

قدّم أصحاب المصانع اعتراضهم للصحيفة، لكن على الرغم من هذا، أو ربما بسببه، كان أن راجت الصحيفة. أما مكافأة بلاي فكانت مضاعفة مرتبها و«ترقيتها» لتصبح محررة أخبار المجتمع وأخبار عالم الأزهار والمنازل والجمال، هذا العالم الذي أحسّت تجاهه بهلع عظيم. تحملت منصبها هذا مدة عام واحد قبل أن تقنع ميدن بأن يطلق العنان لها؛ لتعمل بداية على تحقيق يفضح أحوال السجون، ومن ثم، بواسطة التخفي، على تحقيق عن أحوال المصانع. كانت الاستجابة كالسابق: رواج للصحيفة، واعتراضات من المعلنين والمسؤولين، تبعتها، بعد زيادة مرتبها من قبيل التشجيع، مهمة مهيبة أخرى بوصفها محررة لأخبار المجتمع. لذا، عندما دعاها وفد مكسيكي زائر لزيارة بلدهم، لم تفوت الفرصة. وفي أواخر عام 1885، تركت الصحيفة واصطحبت معها والدتها، والشيء الآتي الذي عرفه عنها قراء ديساتش كان في شباط 1886. عندما ظهر العنوان «نيللي في المكسيك». كانت نبرتها اللعوب واضحة حتى قبل أن تعبر الحدود، عندما كتبت من مكان ما في الغرب: «المرة الأولى يحدث أن أرى نسوة يحرثن الأرض في حين يجلس أسيادهن على سياج يدخنون. لم أرغب قط في أي شيء بقدر ما رغبت أن أضرب بشدّة هؤلاء الكسالى». أما في مراسلتها من المكسيك، فقد كانت في الأساس أكثر حرصاً على ألا تجرح المشاعر المحلية، غير أنها جمعت أدلة، وفي النهاية أرسلت تقريراً عن سَجْن محرر صحيفة؛ لنشره نقداً للحكومة. انهالت التهديدات، ورحلت نيللي وبحوزتها حقيبة مليئة بالملحوظات، وما إن عادت إلى الوطن حتى شرعت تنشر تقارير عما قيل لها عن المكسيك الحقيقية وفسادها.

عند عودتها إلى ديسباتش، وجدت أن الوظيفة الوحيدة المتوافرة هي مراجعة العروض المسرحية. لذا، ولكي لا تُعاد مرة ثالثة إلى أعمدة المجتمع، فقد اختارت هذا الحلّ الوحيد. وذات يوم تغيبت عن العمل، وجاء زملاؤها إلى العمل ليجدوا مكتباً فارغاً وملحوظة تقول: «لقد رحلت إلى نيويورك. ابحثوا عني».

وصلت إلى نيويورك في أيار عام 1887، واكتشفت بعد وقت قصير أن مديري الصحف هناك كانوا أقل تأثراً من ميدن بموهبتها الواضحة؛ إذ امتدت أيام البحث عن عمل إلى أسابيع، وامتدت الأسابيع إلى أشهر. أرسلت قصتها في نيويورك لي بتسبرغ، بيد أنها لم تخلّف أثراً يُذكر، إلى أن راودتها فكرة أن تحول تجربتها لي مقال لحساب ديسباتش. قابلت جميع محرري الصحف الرئيسة في المدينة وطرحت عليهم السؤال: «ما فرصة النساء في صحافة نيويورك؟». وكما هو متوقع، كان الجواب أن فرصتهن ليست كبيرة، خصوصاً إن كنَّ يطمحن، شأن بلاي، إلى الكتابة لحساب نيويورك وورلد التي يملكها جوزيف بوليتزر. ففكرة وجود مراسلة إخبارية هناك، بحسب محرر الصحيفة، الكولونيل جون كوكريل، كانت فكرة بعيدة عن التصديق وتعجز الكلمات عن وصفها.

أوجدت القصة ضجّة هائلة. فقد كانت تعليقات المحررين تعليقات مغمورة ومحافظة إلى أبعد الحدود، ما جعل صحفاً نقابية مثل ذي جورناليست تلفت النظر إلى القصة، كذا فعل كتاب الأعمدة النقابيون، وغدت، عدة أيام على الأقل، حديث النخبة الإعلامية. أما ما لم تفعله القصة فهو أن تجلب عرض عمل، لذا، وفي محاولة أخيرة شبه يائسة، اقترضت بلاي أجرة السيارة من مديرة منزلها وقصدت مكاتب الـ وورلد في بارك رو، وشقت طريقها بالقوة إلى مكتب كوكريل، حيث طلبت منه أن يسمع أفكارها. وبحسب علمنا، طرحت عليه بلاي فكرتين على الأقل: أن تسافر إلى أوروبا وتعود بالدرجة الأرخص بحيث يمكنها أن تكتب تقريراً عن أوضاع المهاجرين؛ أو أن تدعي الجنون وتجعلهم يرسلونها إلى بيمارستان النسوة المصابات بالجنون على جزيرة بلاك ويل. لا ريب أن كوكريل تأثر بأفكارها، ذلك أنه دفع لها 25 دولاراً؛ كي يحتفظ بخدماتها ريثما يقلب النظر في الأمر. عادت إلى مكتبه بعد بضعة أيام وأعطاها موافقته على مهمتها الاختبارية: جزيرة بلاكويل.

كانت خطتها طموحة جداً، بيد أن بلاي كانت على أهبة الاستعداد لتنفيذها. قصدت مساعد النائب العام في المدينة؛ كي تحصل على حصانة ضد المقاضاة، واتفقت ومحررها

على كيفية إخراجها من البيمارستان إن هي نجحت بدخوله، وعشية «جنونها»، قضت ليلتها تقرأ قصص الأشباح وتتدرب قبالة مرآة على التعبير الكتاتوني[1] الذي سيترافق مع فقدانها المزعوم للذاكرة. وعندما صار كل شيء جاهزاً، قصدت بلاي، وقد ارتدت ما سمح لها به غرورها من أسمال بالية، نُزل النسوة المؤقت في الجادة الثانية، وطلبت سريراً. و لم تلبث، عندما قُبلت في النزل الرخيص (60 سنتاً لليلة الواحدة وفيها العشاء)، أن أخذت تتصرف على نحوٍ أملت معه أن يرسلوا فوراً في طلب السلطات: مرتبكة، ولا تعرف من أين جاءت، وتغمغم بأشياء غريبة، وتتظاهر بالشرود، ولا تنفك تسأل عن حقيبة ملابسها. وحين حلّ موعد النوم، بلغ الارتباك بالنزيلات إلى درجة أنّ إحداهن خشيت أن تحزّ أعناقهن وهنّ نيام، وفضّلن استدعاء الشرطة حالاً ودون تأخير. غير أن الغلبة كانت للأصوات المُشفقة، ووضعت «نيللي براون» في السرير، لكن بعد ليلة، رفضت فيها النوم وجلست تحدق إلى الحائط حتى انبلج الفجر، استعجلت المديرة المساعدة بجلب شرطيَّين قويَّين، خشية أن تثور ثائرة الفتاة وتغدو عنيفة. وبذريعة مساعدتها في البحث عن حقيبتها، رافقاها إلى المخفر، ومن ثم إلى القاضي كَين، الذي أمر باحتجازها وفحصها في مشفى بيليفو.

كان هذا الاختبار العظيم الأول. فقد كان خوفها الرئيس هو أن يفطن إليها أحد الأطباء في مرحلة ما على طول الخط، ويعلن أنها مخادعة. غير أنه لم يكن ثمة ما يدعو إلى القلق، إذ لم يعدها الطبيب في بيليفو مجنونة وحسب، وإنما أيضاً، عندما نظر في عينيها، حسِب أن اتساع الحدقتين الناجم أصلاً عن قصر النظر من الأعراض التي تشير إلى شخص يتعاطى الحشيشة، وأعلن أنها ربما تكون أيضاً مدمنة مخدرات. لذا، وبعد ليلة قضتها في المستشفى البارد، نُقلت بواسطة شاحنة مغلقة ثم قارب إلى غايتها: جزيرة بلاك ويل، مستودع المدينة للمخبولات والمتخلفات عقلياً وأولئك ممن انتهى بهنّ المطاف، بسبب تشخيص خاطئ، أو مشكلة لغة، أو لمجرد أن المحاكم لم تعرف ما تفعله بهن سوى ذلك، محتجزات في مكان كانت احتمالات الفرار منه ضعيفة.

---

(1) الكتاتونيا: قصور النشاط الحركي بدرجات متفاوتة في الشدة قد تصل إلى تحول المريض إلى شبه دمية أو تمثال. وتشاهد الكتاتونيا في بعض حالات المرض العقلي والعصبي كالفصام والصرع...

وما إن وطأت قدماها الشاطئ وسيقت إلى غرفة إدارة العنبر رقم (6) البيضاء والباردة، حتى بدؤوا بمعاملتها، كأيّ نزيلة أخرى، معاملة حيوان صعب القيادة بحاجة إلى تدريب وتأهيل جديدين. كانت الأسرَّة قاسية ومغطاة بقماش زيتي، تُنتَزَع منها النزيلات في الخامسة والنصف صباحاً، ليُرغمن بعد ذلك على الجلوس في غرفة قارسة صامتات منتصبات القامة، على مقاعد خشبية قاسية من الساعة السادسة صباحاً حتى الثامنة مساءً. كتبت بلاي تقول:

لم أتعب قط مثلما تعبت من الجلوس على تلك المقاعد. كثيرات من المرضى جلسن على قدم واحدة أو باعدن بين أقدامهن من قبيل التغيير، بيد أنهن عُنِّفن على نحو دائم، وطُلب منهن أن يجلسن منتصبات. إن هن تحدثن قرِّعن وطُلب منهنّ السكيت: وإن أردن التجوال في الغرفة كي يزلن عنهن التيبس الذي أصاب أوصالهن، أُمرن أن يجلسن ويسكنّ. فأي شيء آخر يسبب الجنون أسرع من هذه المعاملة ...؟

والحال أن قلق بلاي من أن يُفضح أمرها فاق قلقها من الإصابة بالجنون. فعندما وصل مراسل مغامر ذات يوم؛ كي يستطلع أمر نيللي براون الغامضة، توسلت إليه سرّاً ألا يكشف أمرها ولم يفعل. وبذا استطاعت المضي في جمع الأدلة على الوحشية والإهمال اللذين كانا، في أسبوع أو أقل، سيصدمان المدينة. أما الناس الذين كان يُتوقع منهم أن يكشفوا حقيقتها -أي الأطباء- فقد كانوا غير مؤهلين البتة لفعل ذلك. فعندما وصلت بلاي إلى الجزيرة، تخلّت عن كل ادعاء بالجنون، وتصرفت بعقلانية فأجابت بصدق على الأسئلة جميعها، باستثناء تلك التي تتعلق بهويتها. غير أن هؤلاء «الخبراء» فحصوها مرات ثلاث، وأعلنوا عقب كل فحص أنها مجنونة. قال الأول: «أنا متوثق أنها مخبولة وأعدها حالة مبؤوساً منها». واحد منهم فقط أظهر لها لطافة، فسمح لها بعد خمسة أيام بالانتقال إلى جناح يضم نزيلات أكثر هدوءاً، حيث كان النظام أقلّ صرامة. وكان هنا، بعد أسبوع ونصف من قبولها، أن قدم «أصدقاء» لاسترجاعها. أُطلِق سراحها لتصير في رعاية الـ نيويورك وورلد، وبعد خمسة أيام تصدّر قسم التحقيقات الخاصة في صحيفة يوم الأحد تقرير يعنون «عشرة أيام في مستشفى المجانين». لم تعد قطّ بعدئذ العناية بالصحة العقلية في المدية مثلما كانت في السابق، ولا عادت مسيرة بلاي المهنية كما كانت من قبل.

فَضَح تقريرها ذو الصفحتين -الذي أعيد نشره ثانية الأسبوع الثاني- الظروفَ التي تُحتجز فيها 1600 امرأة على الجزيرة. كان النظام الصارم الذي يفرِض على النزيلات الجلوسَ ساكنات أقلَّ درجات التعذيب. فقد جعل الطعام (شاي لا طعم له، وخبز قاس، وزبدة فاسدة، ولحم مضى عليه وقت طويل، وثريد مرق) النزيلات جميعهن، باستثناء اللواتي اعتدنه، يتقيأن؛ وتعيّن عليهن بعدئذ المشاهدة في حين تأكل الممرضات الزبيب والعنب والتفاح والبسكويت. كذا كانت العادات الصحية في أدنى مستوياتها. ففي وقت الاستحمام، كن يُجرَّدن من ثيابهن ويُشطفن بدلاءٍ من الماء القـرس ثم يُنشَّفن بمناشف مشتركة. لم يكن الصابون متوافراً سوى يوم واحد فقط في الأسبوع، ولم تستبدل الملابس سوى مرة واحدة في الشهر. لكن هذا كله لم يكن قاتلاً، على عكس خطر الحريق. كتبت بلاي:

يُقفل كل باب على حدة، وثمة سياج حديدي ثخين يسدّ النوافذ، ما يجعل الفرار مستحيلاً. هناك ثلاث مئة امرأة في بناء واحد فقط... وإذا ما شبت النار في المبنى، فلن تفكر السجانات أو الممرضات بإطلاق سراح مريضاتهن المجنونات... وسيُتركن جميعهن ليقضين احتراقاً...

كانت الوحشية التي شهدتها بلاي وحشية منظمة بكل ما في الكلمة من معنى، وراوحت بين صفع المريضات على نحو روتيني إن هن لم ينتظمن في الرتل حين يُسقن إلى قاعة الطعام، وبين ضرب مبرح أودى بحياة فتاة. كانت ثمة فتاة تدعى يورينا ليتل —بايج، ضايقتها الممرضات باستمرار بشأن عمرها:

بقين يضايقنها حتى شرعت المخلوقة الساذجة في العويل والصراخ... وبعد أن حصلن منها على مبتغاهن من التسلية، طفقن يعنفنها ويأمرنها بالتزام الهدوء. بيد أنها غدت هستيرية أكثر إلى أن انقضضن عليها وصفعن وجهها... مما زاد من صراخ المخلوقة المسكينة؛ ولذا خنقنها ثم سحبنها خارجاً إلى الخزانة، وسُمعت صرخاتها الخائفة تتحول إلى صرخات مكتومة.

وثمة امرأة عجوز عمياء لم تقوَ على احتمال البرد القارس في غرفة الجلوس:

... كانت تنهض وتحاول أن تتلمس طريقها إلى خارج الغرفة. كانت الخادمات ينهرنها أحياناً ويقذفنها إلى مقعدها ثم يتركنها تمشي ثانية ويضحكن بلا رحمة عندما تصطدم بالطاولة أو بحواف المقاعد...

والسيدة كوتر، التي حكت لـ بلاي:

ضربتني الممرضات بعصا مكنسة ووثبن عليّ؛ لأنني كنت أبكي. ثم قيّدن يدي وساقي، وبعد أن غطين رأسي بغطاء، عقدنه بقوة حول حلقي، لم يعد بإمكاني الصراخ. وهكذا وضعتني في حوض استحمام مملوء بماء بارد، ثم أغرقنني فيه حتى استسلمت وفقدت الوعي.

وهناك أيضاً بريجيت ماك غينيس، العاقلة تماماً بحسب ما رأته بلاي، التي ضُربت وخنست. وعندما أبلغت عن ذلك، ضُربت ثانية لأنها حكت. حالفها الحظ بأن تنجو من ذلك بضعين مكسورين وحسب.

لعل الأكثر إثارة للمشاعر من بين الجميع أولئك النسوة اللواتي كنّ عاقلات بقدر بلاي. ومع ذلك، وقعن في شرك هذا السجن: السيدة لويز سكانز، سيدة ألمانية كانت معرفتها بالإنكليزية محدودة، ومن ثم حكم عليها بأنها متخلفة عقلياً؛ وماري هيوز، خادمة ألمانية شابة؛ والسيدة مكارتني، التي لم تُظهر أيضاً «أي علامات على الجنون»؛ وجوزفين ديسيرو، شابة فرنسية «عاقلة تماماً»، بحسب بلاي، غير أن الممرضات خنقنها لتذمّرها من وجودها على الجزيرة؛ وسارة فيشباون، شابة يهودية سلمها زوجها بسبب «ولعها برجال آخرين». وأكثر هذه القصص مدعاة للحزن هي قصة تيللي مايارد، التي كانت عاقلة تماماً عندما التقتها بلاي أول مرة، بيد أنها، وبعد التماسات متكررة بأن تخضع للفحص جُنّت في آخر المطاف بفعل العلاج الذي كانت تتلقاه. ولأنهم كانوا عاجزين عن الحكم على سلامة المرضى العقلية، لم يعرف الأطباء سوى إخضاع المشاكسات منهن بحقنات مورفين متكررة. اختتمت بلاي تقريرها بالقول:

إن مستشفى المجانين على جزيرة بلاكويل بمنزلة مصيدة فئران بشرية؛ الدخول سهل، أما الخروج فمستحيل.

مثّلت القصة المكتوبة بلغة واضحة وبسيطة نبأً مثيراً، وصُدِّر لها ببضعة أسطر تشير إلى كاتبتها (أمر لم يسبق أن حدث مع وافد جديد)، وغدت نيللي بلاي بين عشية وضحاها ظاهرة نيويوركية. فقد أطرت عليها صحيفة صَن المنافسة باقتباسها مقاطع كبيرة من قصتها ونشرها وحدها، وعُرض عليها جولات لإلقاء سلسلة محاضرات، وأدوار مسرحية. وقدم لها سيد عملها، جوزيف بوليتزر، شيكاً دسماً. وأثبت تحقيق لهيئة المحلفين الكبرى صحّة ما توصلت إليه، وقامت المدينة بتقديم مليون دولار إضافية للعناية بالصحة العقلية (تعرف جزيرة بلاكويل اليوم بجزيرة روزفلت، وتكثر فيها الشقق الفارهة)، وجمعت تقاريرها في كتاب. أما فيما يخص بلاي، على أي حال، فقد كانت جائزتها الحقيقية هي الوظيفة التي حلمت بها طويلاً: أن تكون مراسلة إخبارية في صحيفة نيويوركية.

تابلتْ بلاي ذلك بإنتاج سلسلة من القصص في العامين الآتيين. وظهرت بالفعل فضيحة كل أسبوع. فقد ادعت أنها خادمة تبحث عن عمل؛ كي تبين كيف تستغل وكالات توظيف لخدمات، وأم عازبة لديها طفل لا تريده؛ كي تفضح المتاجرة بالمواليد الجدد، وفتاة وحيدة تبحث عن زوج؛ كي تحقق في الطرق الملتوية لوكالات الزواج، ومومس؛ كي تكتب عن الأحوال في حاخور «للساقطات»، وزوجة رجل غيور يريد تعقبها؛ كي تفضح المحققين الخاصين، وتدبرت أمر اعتقالها على أنها لصة؛ كي تحكي لقراء الـ وورلد ممن يطيعون القانون كيف هي حال أن يقضي المرء ليلة في السجن، ومثلت دور فتاة ريفية ساذجة؛ كي تفضح تشارلز كليفلاند، الذي اعتاد أن يطوف سنترال بارك، فينتقي الفتيات اللواتي قدمن لتوهنّ من المناطق الريفية ويرغمهنّ على العمل مومسات، وادّعت أنها امرأة عاجزة ومفلسة؛ كي تكتب عن الحياة (والموت) على أنها مريضة تلتمس الصدقة في مشافي المدينة. وفي نيسان عام 1888، مثلت دور رجل أعمال متشوق إلى إيقاف مشروع قانون في الولاية؛ كي تفضح الفاسد إدوارد ر. فيلبس، الذي عُرف بتلقيه مبالغ مالية؛ لحشد تأييد النواب حول مسائل محددة؛ ومما يثلج الصدر أن فيلبس ترك المدينة دون رجعة. وفي هذه المغامرات جميعها، لم يساعدها أي شيء آخر بقدر ما ساعدتها حقيقة أن أحداً لم يشك قطّ أن تنتهي امرأة إلى عمل مراسلة.

تسللت أيضاً إلى معمل للأكياس الورقية؛ كي تكتب عن العبودية الحقيقية التي كدحت فيها عاملاته الشابات. وتعلمت المبارزة والسباحة وركوب الدراجات، وانضمت إلى جوقة منشدين، وغطت حفل إنهاء التخرج في ويست بوينت. وقضت ليلة في وكر للأفيون، وفضحت رجلاً يمارس التنويم المغناطيسي، ومرابياً غير مرخص، وباعة الفسالات الآلية العديمة النفع. وجعلت سبعة من أشهر الأطباء في نيويورك أضحوكة بأن عرضت عليهم جميعاً الأعراض ذاتها وحصلت منهم على سبعة تشخيصات مختلفة، راوحت بين الملاريا و«انهيار الأعصاب». ولأجل انتخابات عام 1888، أجرت لقاءات مع زوجات المرشحين، ومع كل سيدة أولى لا تزال حيّة، ومع جميع زوجات الوزراء في حكومة بنيامين هاريسون. وإذ استلت شخصيتها المفناج، أجرت لقاء مع بطل الملاكمة جون ل.سوليفان، الذي قال لها: «أعطيتك أكثر مما أعطيت أي مراسل في حياتي».

أثّر سحرها بالقدر ذاته على النساء أيضاً، وعندما ذاع الخبر الأبرز عام 1389 - فضيحة جنسية تورّط حفيد أليكساندر هاميلتون- استعملته بلاي لدخول السجن وإجراء لقاء مع المومس المزعومة والشخصية الرئيسة في الفضيحة. كانت إيفا هاميلتون بـ ئعة هوى سابقة تردد عليها، من بين من ترددوا، روبرت روي هاميلتون. تقول القصة إنه خدعته؛ كي يتزوج بها حيث زعمت أنها حامل، واشترى لها أحد زبائنها القدامى طفلاً رضيعاً؛ كي يمثل دور ابنهما، وأنه عندما أفشت مربية الطفل الحقيقة بحضور هاميلتون، هاجمتها إيفا بسكين. نجت الخادمة وحُكم على إيفا بالسجن عامين، لكن القصة من وجهة نظر إيفا بقيت مجهولة. لذا تسلحت بلاي بإحساسها بالعدالة ومهاراتها في إجراء اللقاء وقصدت سجن ترينتون، وأقنعتها أن تحكي بصراحة. كانت النتيجة خبراً رئيساً على الصفحة الأولى وضع الأمور في ضوء مختلف تماماً: فبدل أن تتطفل هي على هاميلتون، كان هذا الأخير يدين لها فعلاً بالمال؛ ولم يكن ثمة خدعة في الأمر؛ لأن الطفل كان طفلها. وقد أرغمها هاميلتون سابقاً مرتين على الإجهاض في أثناء علاقتهما ولم يكتف نخاس الأولاد بشرائهم للآخرين وحسب، بل كان يبتز إيفا أيضاً. جلب هذا السبق الصحفي رواجاً آخر لصحيفة الـ وورلد.

قدمت بلاي للقراء أكثر من مجرد لغة مباشرة وخالية من التكلف. بل عرفوا أيضاً، إن رأو تصديراً عنها، فهم برفقة مراسلة تطرح أسئلة مباشرة، بل وصادمة؛ مراسلة فضولية على نحوٍ لا براء منه ولا تتردد بالمخاطرة. قال عنها رسّام صحيفتها، والت ماك دوغال: «لا يوجد عندها لما هو عسير أو محفوف بالمخاطر إن كان يَعِد بنتائج»؛ وتعين عليهم في الصحيفة أن يكبحوا جماحها أحياناً؛ لأن المشروع الذي أرادت الخوض فيه كان مشروعاً ينطوي على خطورة بالغة. كان إحساسها المرهف بالمغامرة نابعاً من الحاجة المستمرة إلى «التفوق» على جميع جهودها السابقة، من جهة، ولأن شعبيتها، من جهة ثانية، ألهمت عدداً كبيراً من المقلّدات، ومن ثم المنافسات، من وجهة نظرها. لم تغب عن ذهنها قط الحاجة إلى التفوق على أمثال فايوليت روز بورو، وَمِغ ميريليز. وسُمِّي ما كتبنه صحافة «جسورة»، وهي نمط من المراسلة يقوم على العبارة الساخرة والملاحظة المتهكمة لم يجذب عدداً كبيراً من الصحف وحسب، بل أعطى المراسلات في آخر الأمر هوية خارج عالم الأزياء ونمط الحياة. وكان السبب أيضاً في أن حياة النساء والقضايا التي طرحنها صارت تُغطى على نطاق واسع المرة الأولى. كان عالماً مستقلاً عن حملات المطالبة بتساوي الحقوق، لكنه كان مجرد بداية، حيث قدم مشروع بلاي الرئيس الآتي دفعاً كبيراً للقضية إلى الأمام أكثر مما قدمه أيّ شيء آخر آنذاك. فقد أرادت، كما قالت لمسؤولي صحيفتها، أن تدور حول العالم في أقل من ثمانين يوماً.

صعقهم الخبر، وقالوا لها ليس بمقدورها السفر وحدها دون مرافقة، وأنه إن كان لا بدّ من محاولة القيام بهذه المغامرة، فيجب أن يكون من يقوم بها رجلاً. أجابتهم قائلة: «حسن جداً، سأقصد صحيفة أخرى، وأقنعهم بإرسالي، وسأهزم رجلكم»، فاستسلموا في مواجهة تصميم هذه الفتاة ذات الخمسة والعشرين ربيعاً: ستحاول نيللي بلاي أن تدور العالم في زمن أقل عن الزمن الذي استغرقه فيليس فوغ في رواية جول فيرن. لم يكد يتسنى لها الوقت، بعد أن أعلنت مساء الإثنين أنها ستغادر يوم الخميس، أن تقصد خيّاطة لتخيط ثوباً يمكن أن يتحمل أشهراً ثلاثة من الارتداء المتواصل، ثم رمت الأغراض الآتية في حقيبة ملابس: قبعتان للسفر، ثلاثة خمارات، خفّان، أدوات تجميل، محبرة، أقلام حبر ورصاص

وورق كتابة، عدة خياطة، رداء، سترة فضفاضة، دورق صغير، كأس للشرب، ثياب داخلية ومناديل، مرطبان كبير من القشدة. وفي التاسعة والنصف من صباح يوم الرابع عشر من تشرين الأول 1889 أبحرت بلاي، وليس بحوزتها أي تذاكر سفر سوى تذاكر عبورها إلى لندن، على متن أوغست فيكتوريا. ولم تلبث أن أصيبت بدوار البحر حتى قبل أن تغيب اليابسة عن الأنظار.

وفي حين عبرت الأطلسي في جوٍ عاصف -برفقة رجل لم ينفك يقيس ضغطه وآخر يعدُّ كل خطوة يخطوها، من بين مسافرين آخرين غريبي الأطوار- أعلنت الـ وورلد عن رحلتها بإثارة ضجة عظيمة. فأطلقت مسابقة للقراء لتخمين كم ستستغرق الرحلة، ولم تلبس أن تدفقت آلاف الاشتراكات - إلى جانب عروض زواج كثيرة. في هذه الأثناء، وصلت بلاي إلى إنكلترا، وقامت بانعطافة كانت على وشك أن تعرّض برنامج رحلتها برمته للخطر. ففي لندن علمت أن جول فيرن سيُسعد بلقائها؛ ولذا خاطرت بتأخير رحلتها مدة أسبوع واحد؛ كي تقصد إيمنز وتقابل الروائي الفرنسي الشهير. ثم عادت إلى لندن، حيث خططت رحلتها على عجل، وحجزت على متن السفن المناسبة، وغادرت على متن قطارات ومراكب أمِلت أن تنقلها بسرعة حول العالم عبر فرنسا، وإيطاليا، ومصر، وعدن، والعربية السعودية، وكولومبو في سيريلانكا، وبينانغ جزيرة أمير ويلز، وسنغافورة في شبه الجزيرة الماليزية، وهونغ كونغ، واليابان، والولايات المتحدة.

وفي الديار، انهالت الاشتراكات في المسابقة على الـ وورلد على مدار الساعة، وكانت أكثر عدداً من التفاصيل الواردة من بطلتهم. فقد تيسّر لها إرسال برقيات مقتضبة عن التقدم الذي تحرزه، أما التقارير المفصلة فاستغرق وصولها أسابيع عدة - فعلى سبيل المثال، لم يصل إلى الصحيفة تقريرها المكتوب بخط اليد، عن عبورها الأطلسي في أو سط تشرين الثاني إلاّ بتاريخ الثاني من كانون الأول. وفي هذه الأثناء، كانت بلاي في آسيا تقوم بسلسلة من الرحلات، إذ كان أي تأخير في الرحلات يقضي على فرصتها بالوصول قبل الموعد المحدد: الإبحار إلى كولومبو (حيث احتُجزت خمسة أيام)، وستة أيام في الطريق إلى بينانغ، ويومان آخران قبل أن تصل سنغافورة، وأسبوع إضافي في عرض البحر حتى وصلت

إلى هونغ كونغ. كانت هذه الأخيرة رحلة مختلطة بالنسبة إلى بلاي. إذ لحق بها مسافر متيّم على مدار الساعة، وفي النهاية استجمع الشجاعة ليتحدث إليها، ولم يلبث أن سقط مغشياً عليه عند قدميها. وبعد بضع أيام دنا منها ثانية وقال لها إنه سيموت مرتاح البال لو أنهما يتعانقان فقط ثم يرميا بنفسيهما معاً في البحر ويندفعا سوية في أحضان الخلود. وكان على متن القارب أيضاً حديثو الزواج ممن ظنوا أن النوم بسترات النجاة أمر إلزامي.

من حسن الحظ، كان فريق المركب أورينتال أقل الأشخاص غرابةً في الأطوار. فقد وصل المركب إلى هونغ كونغ في زمن قياسي، بيد أنها لم تلبث، عندما وصلت، أن وجدت سلسلة من المفاجآت بانتظارها. فبينما كانت في مكاتب شركة أورينتال آند أوكسيدينتال تلتقي البحري، علمت أن مجلة كوزموبوليتان قد أرسلت إليزابيث بيسلاند حول العالم في الاتجاه المعاكس، وأن منافستها تحرز تقدماً طيباً في الوقت الراهن، وأن صحيفتها هي من دبر المسابقة (غير صحيح). ولكي تكتمل المفاجأة، علمت أن ثمة تأخير خمسة أيام قبل أن يغادر المركب إلى اليابان. ملأت بلاي هذه الفجوة الإجبارية بالبحث عن مادة ترسلها فزارت مدينة كانتون القديمة وقضت عيد الميلاد في مستعمرة مجذومين. وبعد أقل من أسبوع كانت في يوكوهاما تنتظر المركب (المتأخر طبعاً) إلى سان فرانسيسكو. وبعد خمسة أيام على ذلك، لاح في الأفق شاطئ أمريكا الغربي. ووصلت قبل الموعد النهائي باثني عشر يوماً، وبدت الأمور جميعها على خير ما يرام.

أو هكذا بدا، طبعاً. ففي صباح العشرين من كانون الثاني، وبينما دنا المركب البخاري أوشيقك من المرفأ، أخبرها ضابط المحاسبة أنه ترك براءة الصحة في اليابان، ودونها لن يُسمح للسفينة أن ترسو، وأن الحل الوحيد هو انتظار السفينة الآتية من يوكوهاما كي تجلبها لهم، مما يستغرق أسبوعين آخرين. كان ردّ فعل بلاي هادئاً ومحسوباً كما كان ليفعل أي مراسل في مثل هذه الظروف: هددت بأن تحز عنقها. جعل تصرفها هذا الحماسة تدبّ في الفريق فجدّدوا بحثهم عن الأوراق وعثروا عليها في حجرة القبطان. قذفت بلاي نفسها في الزورق المنتظر، غير أن الطبيب صاح أن ليس بمقدورها الذهاب ما لم يفحص لسانها. وبينما يمّم القارب الصغير صوب رصيف أوكلاند، مدت بلاي لسانها للطبيب.

وطأت بلاي تراب الولايات المتحدة ثانية لتجد أنها غدت الشخصية الأكثر شهرة. كانت رحلاتها بالقطار عبر الولايات -أتمّتها في مدة لا تتجاوز أربعة أيام ونصف- مسيرة مظفرة مرّت في أثنائها بحشود هاتفة وفرقٍ موسيقية متنوعة. وتدفقت جموع غفيرة من الناس لتشهد وصولها إلى بتسبرغ، على الرغم من أن الساعة كانت الثالثة وعشر دقائق فجراً. وفي فيلادلفيا، كان بانتظارها 5000 شخص، ثم أقلّها القطار إلى مدينة جيرسي، حيث ترجّلت وشقت طريقها إلى المنصة. وعصر يوم السبت الموافق 25 كانون الثاني، سجلت ساعة وصولها إلى نقطة الانطلاق. ولأجل هواة جمع الأرقام القياسية، ومن بينهم ما يزيد على مليون مشترك في مسابقة الـ وورلد، قطعت بلاي المسافة بزمن قدره اثنان و سبعون يوماً وست ساعات وإحدى عشرة دقيقة وأربع عشرة ثانية. ومثلما اتضح لاحقاً، هزمت بلاي منافستها الآنسة بيسلاند من الـ كوزموبوليتان بفارق يزيد على أسبوع. وبفضل هذه القصة تحديداً (عنونتها الـ وورلد «تحطيم الـ من القياسي»)، بلغت مبيعات صحيفتها آفاقاً جديدة، وغدت بلاي أشهر مراسلة في أمريكا. لم تكن طلقات البنادق الترحيبية وعروض الألعاب النارية والاستعراض العسكري في برودواي سوى البداية. فقد تبع ذلك أغنية عنها ولعبة لوح («حول العالم مع نيللي بلاي»)، ودمى على هيئتها وفندق وقطار وسباق أحصنة على اسمها؛ وصارت صورتها -التي تشبه صورة فتاة غيبسونية[1] تنتصب واقفة شأن ماري بوبينز- في كل مكان: على الصابون والأردية وحبوب زيت كبد الحوت والسيجار، وكان ذلك بموافقتها أحياناً. لم يعد العمل متخفياً سهلاً قط.

بلغت بلاي حداً فاصلاً في حياتها المهنية، فبعد جولة ألقت فيها سلسلة محاضرات، وقّعت مع نيويورك فاميلي ستوري بيبر عقداً لكتابة الأدب قيمته عشرة آلاف دولار سنوياً. بيد أن ذلك لم يكن اختصاصها، بنحو أو بآخر. عادت إلى الـ وورلد في أيلول من العام 1892، حيث أجرت لقاءات مع قاتلات في السجن، وفضحت أوكار القمار، وكشفت أن قارئة الأفكار مود لانكستر امرأة دجالة، وكتبت من وجهة نظر نقدية عن جيش الخلاص، وأجرت تحقيقاً لأجل القراء عن قضاء ليلة في منزل مسكون. إلى أن جاءت مهمة أكثر إثارة للاهتمام في

(1) فتاة غيبسون: فتاة ممثلة، ترتدي ثياباً حديثة الطراز في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين كما صورتها لوحات الفنان تشارلز دانا غيبسون.

تموز 1894، عندما سافرت لتغطي الإضراب في شركة سيارات بولمان بالاس في شيكاغو، إضراباً كان قد دخل آنذاك أسبوعه الثامن. عمل منافسوها من المراسلين على إرسال مواد للنشر مبالغ فيها وحافلة بالإشاعات عن أعمال الشغب والصدامات العنيفة، أما بلاي، بدل أن تعتمد على ما قاله لها مسؤولو الشركة، فقد ذهبت لتستطلع أي حياة يعيشها المضربون وأسرهم:

أدخل البيوت الهادئة وأجد المضربين يعتنون بالأطفال. ليسوا محرّضين، ولا قتلة أو مثيري شغب؛ ولا هم فوضويون. بل إنهم رجال هادئون قاسوا وكابدوا تحت أقدام جماعة فاقت قسوتها قسوة أي جماعة أخرى كان من سوء طالعي أن قابلتها.

لعل تقريرها هذا كان تقريراً ذاتياً، بيد أنه كان أكثر دقة بكثير مما حملته معظم الصحف الأخرى.

قامت بلاي ببضع رحلات أخرى، من بينها جولة في الغرب الأوسط الذي ضربته المجاعة، غير أن انفصالاً أبدياً مع الـ ويك كان يلوح في الأفق. لم تكن نيللي على علاقة طيبة بزملائها، وولدت شهرتها ضروباً من الاستياء لديهم، وكانت الصحيفة تعجّ بالغيورين، ولم يكن ذلك محض مصادفة، وإنما جرى بطريقة قصدية. فقد رأى مالك الصحيفة أن السياسة تقتضي وضع مراسلٍ في مواجهة مراسل ومحررٍ في مواجهة آخر. وكانت النتيجة مناخاً عاماً دفع، بحسب رسام الكاريكاتور في الصحيفة، والد ماك دوغل، «محررين اثنين على الأقل إلى معاقرة الخمر، وثالثاً إلى الانتحار، ورابعاً إلى الجنون، وخامساً إلى العمل المصرفي». في شباط عام 1895، انتقلت بلاي إلى تايمز-هيرالد في شيكاغو، ولم يكد يتسنى لها الوقت لتفضح الظروف التي يعيش في ظلها النحناء في سجن كوك كاونتي، قبل أن تلتقي، في مأدبة عشاء في فندق أوديتوريوم، صناعياً يدعى روبرت سيمان، حيث تزوجا بعد أسبوعين. كانت في الحادية والثلاثين وكان في التاسعة والستين، ما دفع الكاتب الساخر في تاون توبيكس إلى أن يتساءل هل هذا جميعه تحقيقاً آخر من تحقيقاتها. كتب يقول: «هل الزواج ضرب من الفشل؟ هذا ما تحرّبه نيللي بلاي مع عجوز طيب!! تجربتها مقابل تجربته!!».

أتمنى لو أن ذلك الزواج كان مجرد مغامرة جسورة. غير أنه لم يكن كذلك، فبعد أشهر ستة على زواجهما، جعلت عادات زوجها المحافظة وغيرته ارتباطهما يغرق في

مشكلات جمة دفعت سيمان إلى توظيف مخبر خاص كي يتعقبها. وبعد ثمانية أشهر فقط على زواجهما، كتب وصيته تاركاً لها ثلاث مئة دولار فقط. وبسبب هذا، أو لعله بسبب حضور شقيق سيمان السكير في منزلهما، فرّت عائدة إلى العمل في الـ وولد. ووظّف زوجها مزيداً من المخبرين الخاصين. بيد أنهما توصلا فيما بعد إلى اتفاق ودّي تركت بموجبه العمل وغيّر هو وصيته. ثم سافرت إلى أوروبا حيث بقيت ثلاثة أعوام، وعندما عادت بلاي كانت في الخامسة والثلاثين، وهو سن متوسط بالنسبة إلى تلك المدة. ومع اهتمام زوجها المسيطر بشركتي أيرون كلاد مانيفيو كيشرنغ وَ أمريكان ستيل بارِل، جرت العادة أن تلازم المنزل، فتبذر نقوده وتستضيف صالوناً أدبياً لأجل مثيلاتها من سيدات المجتمع الراقي في مانهاتن.

على أي حال، سارت حياة نيللي بلاي على هذا النحو، وبعد مدة قصيرة على عودتها من أوربا، قررت من كانت ذات مرة سوطاً مسلطاً على أرباب العمل أن تجرب نفسها في إدارة مؤسسة زوجها المتهالكة. بدأت بتعلم كيفية تشغيل كل آلة في مصنع بروكلين، ثم شرعت في إجراء إصلاحات على المعمل برمّته. وبعملها اثنتي عشرة ساعة يومياً، حولت مسار الأمور نحو الأفضل إلى درجة أن إنتاج المعمل الخاسر ازداد، عندما توفي سيمان عام 1904، بمقدار أربعة أضعاف، وجلب ربحاً سنوياً مقداره 200,000 دولار. عندما صارت بلاي أرملة، خطت خطوة أبعد، فاخترعت آليات جديدة لتصنيع المراجل وعبوات الحليب ومغاسل المطبخ (انتهت بأن كان بحوزتها خمس وعشرون براءة اختراع)، وقدمت لعمالها مزايا راوحت بين مركز الاستجمام، ومكتبة تضم خمسة آلاف كتاب، ومشروعات صحية، ومحاضرات مساء كل سبت؛ وغدت بلاي صاحبة مؤسسة تساوي الملايين.

لم يكن هذا ليدوم، في حياةٍ تشبه الروايات، مثل حياتها هي. تركت بلاي الشؤون المالية للمايجور إدوارد غليمان، وعقب وفاته بالسرطان عام 1911، أودت اختلاساته واختلاسات فريقه بالشركة إلى الانهيار مثل منزل مشيّد من أوراق اللعب. خضعت الشركة للحراسة القضائية ومُنعت بلاي من دخول الشركة، وعندما تتابعت الدعاوى القضائية، اقتربت بلاي من حافة الإفلاس. في سن الثامنة والأربعين، وبعد سبعة عشر عاماً على آخر مرة عملت فيها بلاي صحفية متفرغة، عادت إلى المراسلة لحساب نيويورك إيفنينغ جورنال.

كان اسمها لا يزال مشهوراً في عالم الصحافة، فقامت بتغطية المؤتمرات القومية عام 1912، وتقلد الرئيس ويلسون زمام السلطة في مطلع العام 1913. بيد أن النتائج التي انتهت إليها الدعاوى القضائية أخذت تضغط عليها. فسافرت إلى النمسا عام 1914 بقصد الاستجمام، من جهة، وللبحث عن مصادر جديدة للتمويل، من جهة أخرى. لم يكن قد انقضى على وجودها هناك شهر واحد عندما اندلعت الحرب، وعلى الفور أبرقت بلاي، التي عاودتها غرائزها القديمة ودفعتها إلى التخلي عن الحاجة إلى تملق كل داعم محتمل، إلى الـ جورنال لتقول: إنها سافرت إلى الجبهة. ومن مستشفى الصليب الأحمر الأمريكي في بودابست، حيث شاهدت جندياً روسياً يقضي وهو يلهج بأسماء أطفاله، أرسلت بلاي قصتها الأشهر. لم يعد بمقدورها الاحتمال أكثر فغادرت الغرفة:

> بدا الأنين الخفيض كأنه يدعوني إلى العودة، بيد أنني توجهت إلى الباب وقصدت الممشى عاقدة العزم ألاّ أعود. «هل للأباطرة والقياصرة والملوك أن يروا هذه المذبحة الوحشية فلا يعرفون النوم ثانية قط؟»، سألت الطبيب. «إنهم عميان» أجاب بلطف.

قضت بلاي ما تبقى من الحرب مُسَخِّرة طاقاتها الهائلة لجهود الإغاثة. وفي شباط عام 1919، عادت إلى الولايات المتحدة، وإلى الدعاوى القضائية المعقدة على نحوٍ ميؤوس منه ضد مؤسستها، وإلى وظيفة في الـ جورنال بأجرٍ أسبوعي مقداره مئة دولار، حيث غطت نزال جاك ديمبسي مع جس ميلارد (أول مراسلة تغطي نزالاً مهماً)، ومرة أخرى اعترفات قاتلٍ من زنزانته، وصار لها عمودها الخاص الذي أعادها، بطريقة أو بأخرى، إلى حيث بدأت؛ أي الكتابة عن أمورٍ معينة كي تغيّرها. لم يكن عمودها ذاك عموداً تعظُ فيه، بل تكتب فيه عن الحياة الخاصة لأكثر سكان نيويورك تعرضاً للضغط. كتب إليها بعضهم عن مشكلاتهم ونشرتها بلاي، أما بعضهم الآخر فكتبوا نصائحهم، وقد أحست بلاي بحاجاتهم، وحاولت أن تفعل شيئاً إزاءها، وغدا عمودها لوحة إعلانات اجتماعية لأولئك ممن هم في محنة وأولئك ممن أرادوا تقديم المساعدة؛ وبدأ الأمر جميعه من هناك. فقد كتبت، على سبيل المثال، عن أطفال متروكين، وكتب الناس إليها يعرضون تنشئتهم أو تبنيهم، ولم يلبث أن صار لديها أطفال كثر بحاجة إلى مأوى (بل لقد وُجد

بعضهم وثمة ملحوظة على ثيابه تقول «خذوني إلى نيللي بلاي»)، بحيث تعين إنشاء حضانة لرعايتهم. وبدوره أنتج هذا مجموعة عمل مشتركة من الأمهات المعوزات.

انهالت رسائل الناس الذين كتبوا عن مشكلاتهم بأعداد كبيرة، ما جعل لائحة الانتظار بغية الحصول على رد تطول إلى ثمانية أسابيع، على الرغم من وجود جيش صغير من المساعدين والعاملين المتطوعين لإيصال البريد. ويمقدورنا أن نقيس بعضاً من الأثر الذي خلفه عمودها من الإعلان الذي تصدره بتاريخ 20 أيلول عام 1919:

مهم

أصدقائي الأعزاء - أنا بحاجة فورية إلى عنوان «ل. م»، «فليبر» (صبي متروك مصاب بالسل يقبع في المشفى)، «هربرت مازر»، «ل.م.ج»، «م.ر.أ»، «ب.ز»، «م.ل.د»، «ف.د هـ» «لونسوم»، «ف.س»، وكل من يرغب في تبني طفل، وكل من كتب يسأل عن عمل.

كان ردها على من قالوا: إن ثمة محتالين يخدعونها، «ساعدوهم فوراً وتوثقوا من ذلك لاحقاً»، لكن هذا الشعار فشل في وقف سيل طالبي المساعدة الذين، بدل أن يكتبوا إليها، صاروا يقصدون ردهة الفندق حيث تعيش، غير أنهم قلما وجدوها هناك. ولأنها لم تكن ممن يفضلون استخدام الهاتف، تجولت بلاي في أنحاء المدينة؛ كي تقوم بكلّ بحثها وتعدّ لـ المساعدة وتجمع الناس وتحشد التأييد شخصياً، ولم تكن لتتوقف إلا عندما تجلس لتكتب عمودها مرتين أو ثلاثاً أسبوعياً. لكن ذلك كله توقف فجأة، ففي كانون الثاني عام 1922، أصيبت بلاي بذات الرئة، وقضت في أقل من ثلاثة أسابيع. كانت في السابعة والخمسين، ولم تتعدَّ تَرِكتها عندما توفيت ألف الدولار.

دعاها آرثر بريسباين، محرّر الـ جورنال: «أفضل مراسلة في أمريكا»، ولعله كان مصيباً تماماً في ذلك. إن السؤال عن السبب الذي يجعل نيللي بلاي لغزاً محيّراً في القرن الحادي والعشرين هو سؤال مهم بحق، بيد أن ثمة جواباً عنه مفاده أن بلاي لم تكن كاتبة ميدحة إلى ذلك الحد البعيد (وإن كانت كاتبة غاية في الوضوح)، لكنها امتلكت فضولاً لا براء منه وإيماناً راسخاً بقوة المراسلة. ولطالما رأت أنه لويُزاح النقاب عن الحقائق لأمكن استنهاض

الشعب والسلطات لأخذ زمام الأمور والقيام بالتحسينات. ليس هذا الضرب من الصحافة دارجاً جداً في أيامنا هذه، حيث يرى صحفيون كثر أن الأهم هو أن يُنظر إليهم بوصفهم أذكياء ومدينين منه أن ينظر إليهم بوصفهم يبلون حسناً. وهذا لأننا ضيّعنا التفاؤل بما يمكن للمراسلة أن تحققه، هذا التفاؤل الذي لم تفقده بلاي قط على الرغم من الالتواءات والانعطافات جميعها في حياتها الروائية. ثمة درس أخلاقي تعلمنا إياه القصص الفيكتورية، والدرس الذي تعلمنا إياه قصتها أنها كانت العدوّ اللدود للتشاؤم.

obeikandl.com

ريتشارد هاردنغ ديفيز

6

ريتشارد هاردنغ ديفيز

1916 – 1864

أحد أهم المراسلين الوصفيين

قد لا يكون الحسد المهنيّ الذي يملأ الصحافة أكبر من ذاك الذي نجده في أي صنعة قاسية أخرى يشغلها أناس مضطربون يفتقرون دوماً إلى الثقة بالذات. لكن إنْ وُجِد رجل ينغّص عيش من هم أقلّ منه نجاحاً بين أقرانه، فهو رجل مثل ريتشارد هاردنغ ديفيز، المراسل الحربي الذي جعله نجاحه العَرَضي، كما يبدو، الأمير الأول لمراسلي القرن العشرين.

وُلِد لكاتبين موهوبين، ميزةٌ أكملتها الطبيعة على نحو غير عادل نوعاً ما بأن جعلته طويلاً أيضاً، وحسن الطلعة. ولطالما نمّ لباسه على ذوق رفيع لم يكن شائعاً تماماً في غرف الأخبار، وكانت النتيجة أن بدا في ريعان شبابه مثل واحدٍ من أولئك المتأنقين والأبطال الأخيار غير القابلين للفساد، الذين صوّرتهم كتب المغامرات المخصصة للأطفال وهم يوسعون الشرير ضرباً دونما كلل، قبل أن يُصلحوا وضع ربطة عنقهم البيضاء ويقصدوا المسرح. لم يكن مظهره خادعاً، إذ لم يقتصر الأمر على مواجهة المخاطر والخروج منها رابط الجأش تفوح منه رائحة ماء الورد، بل كان أيضاً، مثل أقرانه الخياليين، متحدّثاً لَبِقاً وأنيقاً في الأوساط الاجتماعية الراقية. فعندما يقصد إنكلترا في مهمة، يستضيفه أحد النبلاء الإنكليز أو ينزل في فنـدق الريتز. وهذا كله لم يكن كافياً ليكرهه عاملو الطباعة في الصحف الذين يمضغون التبغ: فقد كان أيضاً روائياً ناجحاً إلى درجة كبيرة ومسرحياً، وبمقدوره أن يطلب أعلى الأجور مقابل مقالاته المستقلة. ثم إنه كان صديقاً للمشاهير ومراسلاً يعنى بأخبارهم.

وباختصار، لو كنتَ مراجعاً للمقالات في مكتب من مكاتب إحدى الصحف في مطلع القرن العشرين مصاباً بقرحة معدية تؤلمك، وغارقاً في فواتير يجب عليك دفعها، فإن ريتشارد هاردنغ ديفيز هو بالضبط الاسم الشهير والكاتب المبدع الذي يذكرّك اسمه في أعلى المقالة تذكيراً حاداً ومؤلماً بالشاب الذي أردت ذات مرّة أن تكونه.

كنت ستقول: إن الفرق بين ديفيز وبينك هو عوامل وراثية وعلاقات، يتمتع بها وتفتقدها أنت. نعم، فقد كانت والدته الروائية الواقعية ريبيكا هاردنغ ديفيز، ووالده كلارك ديفيز مدير تحرير فيلادلفيا إنكوايرر. كنت ستقول لا ريب أنهما استخدما نفوذهما، ومنحا «ولدهما» بداية طيبة، ودفعاه، وقدّماه للآخرين، وبالغا في الحديث عنه للمحررين؛ وبعبارةٍ أخرى، سهّلا له المرور. على عكسك أنت، في كفاحك للوصول ومن ثمّ نضالك لتشق طريقك فتغدو الرجل الذي يُسمَح له أحياناً أن يعلّق على صفحة أخبار المدينة في ليلة رتيبة.

حسنٌ، لم يكن الأمر على هذا النحو بالضبط. صحيحٌ أن الحظّ خَدَمه بأن وُلد لأبوين كاتبين، بيد أن ديفيز شقّ طريقه بنفسه: إلى العمل لصحف في مسقط رأسه غير تلك الصحيفة التي أشرف والده على تحريرها؛ وإلى نيويورك؛ وإلى أن يغدو أشهر صحفي في أمريكا وهو في الثلاثين من عمره. ومن ثمَّ شق طريقه إلى أمريكا الجنوبية وإنكلترا وروسيا وإيطاليا وهنغاريا، وإلى تغطية حروب اليونان، وكوبا، وجنوب إفريقيا، واليابان، وبلجيكا، وتركيا، وليصبح واحداً من ألمع المراسلين الوصفيين في تاريخ الصحافة. ليست نوعية كتاباته فحسب ما يجعله مميزاً، إنما اندفاعه للسعي وراء موادها الخام. فبعد زمن طويل على بَدءِ مسرحياته وكتبه، جنى المال الكافي لبقائه عاطلاً عن العمل طوال حياته، لكن ديفيز سعى وراء مهمات مستقلة تضمّنت أسوأ ما يمكن أن يرميه به البيروقراطيون الأجانب وجيوشهم العديمة الرحمة بالمثل. فبصرف النظر عن المسرحيات الثلاث التي كان يديرها في آنٍ معاً على خشبة برودواي، أو قلق والدته، أو الزوجة الشابة التي تزوجها أخيراً، أو المنزل الجديد الذي ابتاعه، أو ولادة طفلته التي لطالما تاق إليها؛ وبصرف النظر عن عرق النسا المزمن الذي أقعده، دون سابق إنذار، أياماً عديدة في المرة الواحدة؛ بصرف النظر عن هذا كله قايض ديفيز هناءة المنزل وراحته بقذارة الحرب وفسادها الأخلاقي.

وإن كان هذا يعني أن يُردى فيها، أو يُصاب بقذيفة كما حصل معه ذات مرّة، أو أن يُعدم في ساعة واحدة بوصفه جاسوساً ألمانياً، فليكن. هل يمكن بغير هذه الطريقة جمع التجارب التي أشبعت حاجته الغريزية إلى الاستطلاع والوصف والإيضاح؟!

لم تكن الحاجة إلى الوجود حيث يقع الحدث شيئاً لفت أنظار محرّره إليه. فقد انضم ديفيز إلى فيلادلفيا ركورد عام 1883، و طُرِد في أثناء ثلاثة أشهرٍ من وظيفته ذات الأجر الأسبوعي البالغ سبعة دولارات. ومن المرجّح تماماً أن طريقة كلام هذا الشاب المتأثرة بالإنجيليين وخلفيته الثرية والأدبية -التي كانت أمراً غريباً وغير مألوف في غرفة أخبار في ثمانينيات القرن التاسع عشر- أثارتا أصلاً غرائز المحرر الديمقراطية. لكنه عندما ارتدى قفّازاته ذات يوم في المكتب ليدرأ البرد، رسّخ الانطباع بغرابة أطواره، فقرّر محرّره أنه يتعين على هذا الجامعي المخنّث أن يرحل. حملت غرائز المحرر موقفاً ما في طياتها، وإن ثبت لاحقاً أنها خاطئة على نحو واضحٍ من وجهة نظر مهنية. كان ديفيز حبيب أمه طوال حياته، على الرغم من كتبه هذا جميعه في مناطق الحروب. حتى إن حدث وغاب عن رفقتها بضع ساعات وحسب، فإنه يضمّها عندما يلتقيان في عناق طويل متأرجح، وإن حدث وغاب عن البيت، راسلها يومياً. لم تكن رسائلَ غرامية صبيانية تلهج بالعواطف لأمٍّ لا تطيق الفراق، بل كانت أشبه برسائل صديق، وفي تلك المدة، لم تكن هذه عادة طبيعية فيما يخص مراسلاً حربياً.

على أي حال، لم يُهزم ديفيز من قبل المحرر الوحيد في التاريخ الذي أوصى حرفياً فريقه العامل بخلع قفازاتهم. بل لقد انضمّ إلى فيلادلفيا برس، واستقر في حياة المراسلة العامة وإجراء اللقاءات (وجده وولت ويتمان «كامل الأوصاف» على غير عادة المراسل)، إضافة إلى بعض طفرات المراسلة الغريبة. وفي إحداها، ادّعى أنه لص وانضم إلى عصابة تضم بعضاً من أسوأ الخارجين عن القانون في المدينة، واكتسب ثقتهم بالقدر الكافي لينضم إليهم في التخطيط لسرقة. وبعد أن جمع أدلته، قصد الشرطة التي قامت باعتقالهم، وبذا حصل ديفيز على خاتمة مثالية لقصته. وفي غرفة الأخبار، لم يكن ديفيز ممن يستخدمون الأساليب الدنيئة لتحسين موقعهم الوظيفي، والرسالة الآتية التي أرسلها إلى أسرته في آب 1888 تظهر ذلك:

طالعني خبرٌ في الصفحة الأولى هذا الصباح عن انفجار في المحطة في جادة كولومبيا -وخرجت لتغطيته مع مراسل آخر يكبرني سناً ويفوقني خبرة، طلب منه واترمر (المحرر) أن يكتب القصة في حين أسعى وراء الحقائق. وعندما عدنا كانت الحقائق جميعها بحوزتي، أما القليل الذي بحوزته فقد كان غير صحيح -لذا قلت له إنني سأستغني عن خدماته وأكتب القصة بنفسي. أرجو أن يتعلم آندي في المرة المقبلة ويتركني أجلب أخباري الخاصة بمفردي.

هذا هو الصوت الأصيل المعبّر عن فكرة المراسل عن عمل الفريق.

عام 1889، اختير الشاب البالغ من العمر خمسة وعشرين عاماً ليغطي الخبر الرئيس اللاحق. لم يتعين عليه الانتظار طويلاً. ففي أيار من ذلك العام ملأت الأمطار الغزيرة السدّ الواقع فوق جونز تاون شمال بنسلفانيا حتى كاد أن ينفجر، وفي الحادي والثلاثين من ذلك الشهر، تجاوزت الأمطار حدود الانفجار، فانفجر السد ودمّر البلدة عشرون مليون طن من الماء كان السدّ قد احتجزها خلفه على ارتفاع أربع مئة قدم عن هذه البلدة. أُرسل ديفيز لتغطية الدمار، وعُدّت أسئلته الأولى لدى وصوله منافية للعقل تماماً وسخيفة مقارنة بتقاليد الصحف المحلية. فقد سأل: أين أجد مطعماً، وأشتري قميصاً نظيفاً، وأستأجر حصاناً وعربة؟ وكما يعلم أي مراسل سبق له أن غطى منطقة منكوبة خالية من الخدمات الاعتيادية والاتصالات، لم تكن أسئلته هذه بأي حالٍ من الأحوال سخيفة بالقدر الذي آها فيه زملاؤه المراسلون.

بينت مقالات ديفيز اللاحقة «كيف لقي 2,200 شخص حتفهم» حُسْن تعامله مع الخبر الرئيس، وجعلته يقلب التفكير في أنّ الوقت قد حان للانتقال إلى نيويورك، نظراً إلى أن احتمال أن تحقق له هذه القصة النجاح في ولايته كان احتمالاً مستبعداً على المدى الطويل. في أيلول عام 1889، جال ديفيز على صحف المدينة بحثاً عن عمل، بيد أنه عاد خالي الوفاض، وكان على وشك أن يستقل القطار عائداً إلى فيلادلفيا عندما جلس على مقعد في متنزه سيتي هول. لم يلبث أن جاء آرثر بريسباين، أحد معارفه، المحرر المعيّن حديثاً لـ نيويورك إيفننغ صَن. قدّم له بريسباين وظيفة، وباشر ديفيز على الفور العمل بمرتّب أسبوعي مقداره ثلاثون دولاراً. وفي أثناء عام واحدٍ لفتت مراسلته وقصصه القصيرة

ومقالاته انتباه مجلة ماك كلور، فعرضوا عليه خمسة وسبعين دولاراً أسبوعياً للانضمام إليهم. رفض ديفيز عرضهم، غير أنه انتقل في كانون الأول عام 1890 إلى هاربرز ويكلي كرئيس تحرير على أساس أن يقضي مدة محددة من كل عام في السفر والكتابة لحساب هاربرز مَنثلي.

حنحته هذه الوظيفة شيئين. الشيء الأول: هو عادته التي لازمته طوال حياته: قراءة كميات هائلة من الصحف والمجلات يومياً. كما كتب شقيقه:

> اشترك في معظم الدوريات الإنكليزية والفرنسية المصورة، وفي صحيفة يومية لندنية قرأها يومياً بالقدر ذاته من الاهتمام الذي قرأ فيه مجموعة من صحف نيويورك... وفي حين خصّص الآخرون، إذا تعبوا من العمل أو العبث طوال النهار، وقت المساء للعب الورق والبليارد أو الثرثرة، انهمك ريتشارد بكتابة الرسائل، أو انكبّ على مجلة أجنبية غريبة، أو راجع الخرائط، أو دوّن ملحوظات، أو قرأ قصص معاصريه. وقرأ تقريباً كلّ مجلة أمريكية من الغلاف إلى الغلاف...

والشيء الثاني: اطلاعٌ صحفيٌ واسع. فقد أتيحت له الفرصة الآن ليكتب مقالات مطوّلة عن موضوعات رئيسة، ولم يتركها تفوته. وكان أن تبعتها مقالاتٌ عن رحلة بالقطار في الغرب حنونها «أبناء عمومتنا الإنكليز» (شمل البحث لأجل هذه المقالة قصصاً هائلة من العيش في اريف)، وعن معرض شيكاغو الدولي، وعن باريس والمتوسط وأمريكا الوسطى والجنوبية. وسرعان ما جعلته هذه المقالات، إلى جانب القصص القصيرة التي عمل على كتابتها، أكثر صحفيي عصره شهرة وأعلاهم أجراً. وفي عام 1895، كان الطلب على اسمه كبيراً، إذ طلب منه مؤسسة هيرست أن يغطي مباراة كرة قدم بين جامعتي ييل وبرنستون، التي لم يرغب ديفيز فعلاً بتغطيتها، لذا طلب مبلغ خمس مئة دولار مقابل عصرِ يوم واحد، وحصل عليه وبالرغم من أنه قد بلغ الآن مرتبة يمكنه فيها أن يطلب أي أجر يشاء، ويضع شروطه الخاصة لمهماته، إلا أنه لم يؤثر حياة الترحال المترف أو العمل المكتبي الرتيب، بل اختار أن يكون مراسلاً جوالاً. وهكذا كان أن غطّى بين عامي 1896 و1897 تتويج القيصر نيكولاس في موسكو، واحتفالات الألفية في بودابست، وانتخاب الرئيس ماكينلي، والحرب اليونانية التركية، والثورة الكوبية، والذكرى السنوية لاعتلاء الملكة فيكتوريا العرش في لندن.

كانت موسكو اختباراً لإبداعه. فقد وصلها بعد رحلة استغرقت بضعة أسابيع ليجد تحته واحداً من تسعين مراسلاً يحاول كل واحدٍ منهم الحصول على إحدى البطاقات الاثنتي عشرة لحضور حفل التتويج. غدت الأيام القليلة التي تلت وصوله سباقاً محموماً بين حشود التأييد والتملق ومحاولة الفوز بالحظوة والتآمر بغية الحصول على إحدى البطاقات المرجوَّة. كما كتب لشقيقه تشارلز:

لم يتبقّ لدينا سلطة نمتلكها أو حيلة نعرفها إلا واستخدمناها. قضينا اليوم بطوله ننتقل من مكان إلى آخر على كرسي للمرضى، يقودنا رجل يعتمر قبعة ذات أجراس ويرتدي رداء منامة أزرق اللون، وتركنا بطاقاتنا، وأرسلنا ملحوظاتنا، وقدّمنا الشراب، ودعونا المسؤولين إلى الغداء، وابتعنا الأزهار للزوجات، وعُلب السيجار للأزواج، وهدَّدنا....

في هذه الأثناء، كان عليه أن يتوثق من وصول قصته إلى نيويورك دون تأخير. لذا فحص مدير مكتب التلغراف، فكتب برقية أضاف إليها الكلمات الآتية «أَوْلُوا أمر توفير التسهيلات الخاصة التي يقدمها مكتب البريد فائقَ العناية». بعدئذ، وبذريعة التوثق من أن كتابته مقروءة، سأل الرجلَ أن يقرأها. قرأ مدير التلغراف البرقية، وابتسم لعبارتها الأخيرة، وبعد يوم أو ربما أكثر دسّ له ديفيز مئتي روبل، هدية «من مكتبي» كما قال ديفيز لمدير مكتب التلغراف. وبعدئذ صارت برقيات ديفيز في أول الصف المنتظر. وبالطبع، حصل على بطاقة حضور التتويج كما يجب.

بعد ستة أشهر، في كانون الأول عام 1896، كلفته هيرست بزيارة كوبا، التي كانت تشهد آنذاك ثورة في مواجهة الحكم الاستعماري الإسباني. كانت هذه مهمته الأولى بصفة مراسلٍ حربي، وتولاها برفقة فريدريك ريمنغتون، الرسام الذي زَعَمَ أنه تلقى برقية هيرست السيئة الذكر والملفَّقة بالتأكيد: «جَهِّز اللوحات وسأجهز الحرب». في أواخر شهر كانون الأول، شجعه تعاطفه الطبيعي مع المضطهَدين الكوبيين، إلى جانب إحساسه بأن ثمة قصة مميزة، على حضور إعدام ثائر شاب. وهي قصة أرسلها ونشرتها نيويورك جورنال المملوكة لـ هيرست بتاريخ 2 شباط 1897، والمعروفة لنا الآن بعنوان «موت رودريغيز»، وهي واحدة من أكثر مقالات المراسلة التي وردت في كتب المقتطفات الأدبية في تاريخ الصحافة:

... يمشي برفقتنا رجل محكوم قاطعاً المسافة القصيرة بين زنزانته والمشنقة أو الكرسي الكهربائي، تحجبه عن أنظارنا جدران السجن... غير أن الجنود الإسبان الذين ملأت قلوبهم الرحمة في هذا الصباح جعلوا السجين يمشي لمسافة تزيد على نصف ميل عبر الحقول المحروثة. توقّعت أن أجد الرجل، بصرف النظر عن شجاعته في أحايين أخرى، يتعثّر ويترنح، لكن بينما دنا منّا وجدت أنه هو من يقود الآخرين جميعهم، وأن الكاهنين على جانبيه لا يكادان يلحقان به، وأنهما كانا يدوسان على رداءيهما الكهنوتيين ويتعثران بالأثلام، في محاولاتهما لمجاراته وهو يمشي منتصباً بشجاعة وخطى سريعة أمامهم.

... تمّ الأمر على عجل... تراجع الحشد عندما وصلوا إلى الساحة، ومرّ بهم المحكوم والكاهنان وفرقة إعدام من ستة متطوعين، ثم تحلّقوا حولهم ثانية. ترك الضابط الحبل الذي قيد ذراعي رودريغز وراءه والتف على صدره ليسقط على العشب واستل سيفه، وأسقط رودريغز سيجارته من بين شفتيه وانحنى ولثم الصليب الذي حمله الكاهن أمامه... مشى الكوبي إلى حيث أشار له الضابط أن يقف، وأدار ظهره للساحة ووجهه صوب التلال ... عندما أعطى الضابط الأمر الأول انتصب قدر استطاعته وثبّت ناظريه على نور الصباح الذي شرع لتوه في الشروق فوق التلال.... أعطى الضابط الأمر ووجه الرجال بنادقهم، وسمع المحكوم تكتكات كل زناد وهو يُسحب إلى الخلف، ولم يتحرك. عندئذ وقع واحدٌ من أقسى أفعال التعذيب التي يمكن للمرء أن يتخيلها، وإن كان فعلاً غير مقصود. فبينما رفع الضابط سيفه ببطء، تحضيراً لإعطاء الإشارة، توجّه إليه واحدٌ من الضباط الفرسان ولفت نظره بصمت إلى أمرٍ كنت قد لاحظته أصلاً ببعض الرضى، وهو أن فرقة الإعدام بوضعها هذا ستصيب عضاً من الجنود الواقفين على الطرف المقابل من الساحة.

شار النقيب لرجاله أن يُخفضوا بنادقهم، ثم مشى فوق العشب ووضع يده على كتف لسجين المنتظر... التفت إليه الصبي برباطة جأش وثبات، وتبع بعينيه اتجاه سيف لضابط، ثم هزّ رأسه ببطء ووقار، وبينما بسط منكبيه، اتخذ موقعاً جديداً وقوّم طهره ثانية وانتصب واقفاً... استلّ الضابط، الذي أخزاه اضطرابه، سيفه على

عجل فصوّب الرجال بنادقهم ثانية، ثم ارتفع السيف وهوى فأطلق الرجال النار. عندما دوّت أصوات البنادق، انقذف رأس الكوبي بين كتفيه، لكن جسده تهاوى ببطء، كأنما سحبه أحد من الأمام بلطف فتعثّر. انقلب على جانبه في العشب الرطب دون أن تصدر عنه حركة أو صوت، ولم يتحرك ثانية... صار ذلك الشخص شيئاً من الماضي، واستدارت فرقة الإعدام مثل أفعى عظيمة، ثم تباعد أفرادها، وانطلقوا جذلين، يتعثرون بالأعشاب العالية ويبذلون قصارى جهدهم ليجاروا الموسيقى فلا يتخلفوا عنها.

... تخلفتُ عن الحشد والتفتّ ورائي إلى جسد الكوبي الشاب الذي لم يعد جزءاً من عالم سانتا كلارا. كان نائماً في العشب الرطب، ولمّا تزل يداه الساكنتان مربوطتين بإحكام خلف ظهره، وقد غاص رأسه بين كتفيه، في حين تشربت الأرض التي حاول تحريرها الدم النازف من صدره.

بعد عشرة أيام على نشر قصة موت رودريغز، ظهرت قصة مغايرة تماماً موقّعة باسم ديفيز. ففي طريق عودته إلى الولايات المتحدة على متن قارب بخاري، التقى ديفيز على العشاء شابة تدعى سينوريتا كليمنسيا أرانغو. أخبرته أنها وامرأتان أخريان طُردن من كوبا بتهمة التعاطف مع الثوار، لكن قبيل رحيلهن، جرّدتهن السلطات الإسبانية من ثيابهن مرتين بقصد التفتيش. استنهضت هذه الحادثة شهامته، ولا ريب أيضاً أنه وعى شهية هيرست المفتوحة لنشر أي اعتداء إسباني، حقيقياً كان أم مُتخيلاً، لذا أرسل ديفيز قصته ما إن وصل مركبه تامبا، في فلوريدا. وبعد يومين، ظهرت القصة في الـ جورنال تحت عناوين صارخة: «ألا تحمي رايتنا النساء؟» سأل العنوان الرئيس، تبعه «الضباط الاسبان يمارسون ضروب الذل والإهانة على متن السفن الأمريكية – ريتشارد هاردنغ ديفيز يصف بعض الأوجه المروّعة من الحالة الكوبية، ضباط إسبانيون همج يجرّدون شابات محترمات من ثيابهن ويفتشونهن تحت رايتنا على الأوليفيت». وفي وسط الصفحة، كان ثمة رسمٌ لرامينفتون وهو امرأة نصف عارية من الخلف يتحرش بها ضباط إسبان وآخرون ينتظرون إليها بشبق. كان المقصود بالصورة، كما أراد هيرست، أن تثير المشاعر فور ظهورها؛ لكن ليس مدة طويلة. فبعد يوم أو اثنين، وصلت سينوريتا أرانغو نيويورك، وأجرت صحيفة

نيويورك وورلد المنافسة لقاءً معها، أصرت فيه أن الأمور لم تسِر تماماً كما قالت الـ جورنال. حتجّت أرانغو قائلة: إن من جرّدها من ثيابها ليسوا نخّاسين إسبان، بل شرطيتين. نشرت لـ وورلد سبقها الصحفي هذا بتلذذ.

حمل الإيضاح، لدى ظهوره، طابع المصداقية لجهة المراسل الذي أرسل لنشر قصة صحيحة تماماً، ما عدا أنه في المكتب، عند الطباعة، سحره فنّ التقديم في الأمر قليلاً أو كثيراً. ذلك أن ديفيز لم يذكر البتة جنس من قاموا بالتفتيش. وكان خيال فريدريك راميتفتون الخصب هو من اخترع الرجال المتصببين عرقاً: وهم يتجمهرون حول السيدة أرانغو وهي تخلع عنها ثيابها، ومن لوحته الخيالية هذه كان أن أخذ كتّاب العناوين في هيرست دليلهم، وكالعادة، كان كاتب القصة هو أفضل من يُلقى عليه اللوم الأساسي. تلقّن ديفيز درساً جيداً من هذه الحادثة، فلم يعمل ثانية لحساب هيرست، وغدا حذراً على الدوام من راميتفتون الذي وصفه، في رسالة إلى والدته قبل شهر واحد فحسب، بأنه «جبان ويضخّم الأمور»، كان وصفه وصفاً ينمّ على بصيرة نافذة.

بعد شهرين على الحادثة، كان ديفيز في طريقه لتغطية الحرب بين اليونان وتركيا لحساب التايمز اللندنية. وفي أواسط شهر أيار، كان يتذوق المرة الأولى طعم صراعٍ واسع النطاق، على الخط الأمامي في معركة فلستينوس. ثمة دليل هنا، في تقاريره، عن بحثه عن التفاصيل ومقدرته على وصفها بأسلوب ليس جديداً فحسب، وإنما أيضاً هو بسيط على نحو مثير للدهش. ومثل جميع الكتاب الموهوبين بالفعل، وعى ديفيز امتلاكه القدرة على الاستعراض فلم يستخدمها دائماً. وهاهو هنا في واحدٍ من أيامه الأولى في الخنادق يكتب:

أكثر ما أثر فينا هو عدد الطلقات الهائل التي بددها الجنود اليونانيون في الفضاء... ذكّرتنا تلك الطلقات بأكواز الذرة عندما تلفظها الآلة التي تنزع عنها الحب، وأثار اهتمامنا بالفعل عندما أطلقت البنادق النار رؤية المئات تتقافز في الهواء في آنٍ معاً، فتلمع في ضوء الشمس، كما لو أنها سعيدة بأداء مهمتها والخروج ثانية. تدحرجت تحت أقدامنا بأعداد كبيرة، وتلألأت في العشب، وإن تحرك واحدنا في الخندق الضيق، أو مدّ ساقيه الخدرتين، صدر عنها رنين موسيقي. بدا الأمر شبيهاً بالخوض في قناة مترعة بالكشتبانات.

لم ينتظر ديڤيز وقتاً طويلاً ليبدأ كشف الحقائق، ويفضح، في مقالة شهيرة، واحداً من أسرار الحرب الصغيرة القذرة:

ليس ثمة اصطفاء الأضعف، بل بدا أن الحظ الذي لا يعترف بالمنطق هو من يقرّر. انطلق عدد محدد من القذائف والطلقات في منطقة محددة من الفضاء، وسدّ رجالٌ من مختلف الأحجام ذاك الفضاء، في مناطق مختلفة. فإن حدث واعترض رجل مسار طلقة، قُتِلَ وانتقل إلى الدار الآخرة، تاركاً وراءه زوجة، وربما أولاداً، يندبونه. سيقول هؤلاء الأولاد: «قضى والدنا وهو يقوم بواجبه». والحق، أن والدهم قضى لأن المصدفة شاءت أن يقف في اللحظة الخطأ، أو لأنه التفت ليطلب ثقاباً من الرجل على يمينه بدل أن يميل إلى اليسار، فقذف بجسده الضخم إلى حيث صادف أن مرّت في الاتجاه المعاكس رصاصة أطلقها رجل لا يعرفه ولم يصوّب عليه. كان على أحدهما أن يُفسِح الطريق للآخر، ولمّا لم تكن الرصاصة لتفعل، فقد قضى الجندي على نفسه.

غير أن قوّة الملاحظة هذه غدت بالفعل أقل وضوحاً للعيان بعد عام واحد، عندما كان ديڤيز في كوبا يؤرخ الحرب الإسبانية-الأمريكية القصيرة. حمل تقريره عن هجوم رَفّ رايدرز الشهير أكثر من مجرد مسحة تهليل وابتهاج بالنصر، ذلك أنه كان أحد المعجبين بالمقدم روزڤلت، من جهة، ولأن ديڤيز كان بالفعل أكثر تورّطاً في الحدث مما يجدر بالمراقب أن يكون عليه، من جهة أخرى. ويمكن قياس الطابع العام لكتاباته مما يلي:

...روزڤلت، الذي حمل بندقية وشرع في إطلاق النار؛ كي يشجّع الآخرين، عقد العزم على شنّ هجوم... لذا، وبدل التراجع في مواجهة وابل الرصاص، اندفع عليهم الـ رف رايدرز، وهم يهللون ويملؤون الهواء الساخن بصرخات رعاة البقر، فتراجع لعدو الخائف إلى سنتياغو، حيث أعلن أن الجيش الأمريكي بأسره قد هاجمه.

ومع هذا، فإن الانتقادات المعاصرة التي وُجّهت إلى ديڤيز بوصفه مسؤول العلاقات العامة لدى روزڤلت هي انتقادات لا تعززها قراءة تقاريره (ثم إن نزعة هذه التقارير لا تبدو عربية بوجه خاص مقارنة ببعض المقالات التي وردت عن حرب العراق عام 2003). ربما يمكننا القول: إن تلك الحرب كانت أجمل أيام روزڤلت، إلا أنها لم تكن كذلك لدى ديڤيز.

يد أن الحكم عليه بمعايير المدد اللاحقة هو أمر غير منطقي. فقد كان، على الرغم من مواهبه الوصفية جميعها، ممثلاً لعصره مثلنا جميعاً. ولا يتضح ذلك في أي موضع آخر كما يتضح في الكمّ الكبير من الأمتعة التي اصطحبها ديفيز معه. فهو لطالما سافر في الدرجة الممتازة، ذلك أنه كره الإملاق من جهة، ولأنه من جهة أخرى، كما أوضح أحدهم ذات مرة، كان مطلوباً من أولئك المراسلين الذين يعملون لحساب إحدى الصحف الكبيرة أن يحافظوا على معايير راقية محدّدة. لذا، عندما وصل إلى الجبهة لحساب التايمز، احتاج إلى عربة كبيرة وثورين وثلاثة جياد وحصان أسترالي وثلاثة خدم لنقل مؤنه وأمتعته التي بلغ وزنها 400 ليبرة. وليس 400 ليبرة من الأشياء القديمة وحسب، فقد أولى عناية خاصة بصندوق العدّة خاصته، ولم يصرّ على خيمته الخضراء الموثوقة، وموقده الخاص، وسريره، وطاولته وكرسيه، وحوض الاستحمام المطاطي القابل للطي خاصته، وإنما أيضاً، كما أدرجه في كتابه مذكرات مراسل حربي، على ما يأتي:

دلوان للماء من المطاط أو من القنّب.

قنديلان نحاسيان قابلان للطي، بجوانب إضافية من الميكا.

علبتان من الشموع المستخدمة في غرف المرضى.

ستة من علب الثقاب الآمن.

فأس. وأفضل فأس رأيته في مخزن ماربل للفؤوس، وهو فأس مصنوع في غلادستون، ميشيغان. ويمقدورك أن تحمله في جيبك الخلفي، وأن تقطع به شجرة.

حقيبة طبية تحتوي على الكينين، والكالوميل، ودواء الكوليرا على شكل أقراص.

حقيبة مرحاض للشفرات ومسحوق الأسنان والفراشي والورق.

حوض استحمام مطاطي قابل للطي في حقيبة مطاطية، وهي مصنعة لتُجهّز في مكان لا يزيد كثيراً على حجم صندوق سيجار.

منشفتان قديمتان، وناعمتان.

ثلاث قطع من الصابون.

شبكة تمويه.

كِلّة للبعوض.

زوج إضافي من الأحذية، قديم ومريح.

بنطال إضافي خاص للركوب.

زوج إضافي من الأحذية العسكرية. هذا النوع من الأحذية الخاص بالجيش النظامي سابقاً مصنوع من قماش القنّب، مخرّم وينطوي في حجم صغير ولا يزن إلا القليل.

قميص فلانيل، رمادي اللون لئلا يظهر عليه الغبار.

زوجان من السراويل الداخلية، قطنية أو صوفية.

زوجان من الجوارب الصوفية.

منديلان من الكتان، كبيران بما يكفي، عند الحاجة، ليعقدهما المرء حول حنجرته فيحميا مؤخر العنق.

بيجاما، من الصوف، لا الكتان.

غليونان من خشب جذر الخلنج.

ست علب من التبغ.

ورق للكتابة.

قلم حبر، يُعبأ ذاتياً.

محبرة، ذات غطاء لولبي يثبته نابض.

دستة من المظاريف الكتّانية.

طوابع، ملفوفة في حرير - زيتي، حيث الوجه الهلامي للطوابع مقابل للحرير.

obeikandl.com

قضيب من الشمع الأحمر. ففي المناطق المدارية يلتصق اللسان الهلامي للمظاريف بكلّ شيء إلا بالمظاريف.

دستة من الشرائط المطاطية من أكبر حجم. إذ تساعد عند التجهيز على ضغط الأشياء مثل الثياب إلى أصغر حجم ممكن، ثم إنها مفيدة في نواحٍ عديدة أخرى.

ورق لعب.

كتب.

مسدس وست طلقات.

وعلى الرغم من أن هذا جميعه قد يبدو الآن سخيفاً من وجهة نظرنا نحن في القرن الحادي و لعشرين، غير أن ديفيز أوضحه للقراء في عصره، عصر ما قبل اختراع الطائرات:

لباس الرجل وعُدَّته هما شأن يمسّ شرفه الخاصّ... ففي أي حملة عسكرية قد تُهين شجاعة الرجل أو الراية التي يخدمها أو الصحيفة التي يعمل لحسابها أو ذكاءه أو عاداته العسكرية، ويتجاهل ذلك كله؛ أما إن انتقدت قِربة الماء خاصته فسوف ينقضُّ عليك بكلتا قبضتيه.

متقلاً بالمتاع والعدّة على هذا النحو (وإن كان قد عُرِف عنه أنه يقتصد فيهما أحياناً فيسافر وقد اصطحب معه الحاجات الضرورية وحسب)، سافر ديفيز لحساب النيويورك هيرالد والديلي مايل إلى جنوب إفريقيا ليغطي حرب البوير(غطاها بداية من الجانب البريطاني ومن ثم من جانب البوير)، وإلى إسبانيا ولندن لحضور حفلات التتويج وتأليف مزيد من الكتب والمسرحيات، ومن ثمّ، في عام 1904، إلى اليابان لحساب كولييز ويكلي ليغطي الحرب الروسية- اليابانية. تبين أن مهمته هذه كانت مخيبة للآمال على نحو فاق جميع المهمات الأخرى التي قام بها في حياته: أسابيع من السفر، تلتها أربعة أشهر من الانتظار في طوكيو، ثم ثلاثة أسابيع من السفر، لا لشيء سوى ليخدعه اليابانيون وليكون الشيء الأكثر إثارة الذي سمحوا له بمشاهدته هو دخان المدافع على بُعد ثمانية أميال. وفي حين وصف نفسه بأنه «مراسل غرّ»، فقد رحل مشمئزاً بعدئذ بمدة قصيرة.

بلغ الأربعين من عمره الآن، وبدأ زواجه الذي تمّ عام 1899 بالانهيار، وثمة فجوة غريبة على جبهة الصراع الدولي. وكما هي حاله دوماً، شُغل ديفيز بالسفر والروايات والمسرحيات وتغطية مؤتمرات الحزب وترميم حياته. حصل على الطلاق عام 1910، العام الذي توفيت فيه والدته. وبعد عامين، تزوّج ديفيز زواجاً كان ليثير ثائرة والدته لو بقيت حيّة. كان اسم زوجته الحقيقي إليزابيث جينيفيف ماك إيفوي، لكنها عُرفت بين مديري المسرح في برودواي باسم بيسي ماك كوي الممثلة في الفودفيل، أو الـ «يما- ياما غيرل» على اسم واحدة من أغانيها. كانت أصغر سناً من ديفيز كثيراً، وقد افتتن بها، وعاش معها سعيداً حتى وفاته. وهكذا كان أن قضى العام 1913 يؤلف المسرحيات و يشرف على تجهيز المنزل حيث ستولد ابنته بعد مدة قصيرة، بل و يمثّل - وإن بدا ذلك غريباً لرجل شبّ في أواسط العصر الفيكتوري - عندما تحوّل كتابه «جنود محظوظون» إلى فيلم.

بحلول العام 1914 بلغ ديفيز الخمسين، واصطلحت أحواله فبات صاحب ثروة وصاحب أسرة إلى جانب زوجته الحبلى بطفلهما الأول. غير أنه كان دوماً على أهبة الاستعداد للرحيل إذا ما تناهت إلى أسماعه أصوات مدافع تهدر في الأفق. في شهر نيسان لاحت بوادر الحرب بين الولايات المتحدة والمكسيك في الأفق، وقصدها ديفيز، لا لشيء سوى ليَخبُر وقتاً مخيباً للآمال بقدر الوقت الذي أمضاه في اليابان. ولم يكد يتسنى له الوقت عندما عاد إلى نيويورك لينهي مقالاته عن المكسيك عندما تبين أن الجيوش الأوربية كانت في طريقها إلى حرب قارية شاملة. أعدّ ديفيز عدته، وبتاريخ 4 آب، يوم أُعلنت الحرب بين بريطانيا وألمانيا، أبحر ديفيز وزوجته إلى ليفربول في جناح خاص تكلفته ألف دولار يومياً على متن لوسيتانيا. كان بمقدور ديفيز تحمّل تكاليف سفره المترف؛ لأن مؤسسة ويلر دفعت له 32000 دولار سنوياً كي يغطي الحرب لحسابها.

رفض البريطانيون أوراق اعتماد ديفيز لتغطية أخبار جيشهم، فشقّ طريقه عبر القنال الإنكليزي إلى بروكسل التي دخلها، بعد وقت قصير من دخول ديفيز إليها، الجيش الألماني ساحقاً بلجيكا المحايدة تحت قدميه في تعجّله الوصول إلى فرنسا. كان مشهد القوى الألمانية الهائلة هو مشهد حرب لم يره من قبل: عرضٌ للقوة العسكرية القائمة على أساس صناعي.

وهكذا كان أن رأى ديفيز، الرجل الذي عده بعضهم شيئاً ملفقاً من عصر زال وانقضى، أو حروباً تُخاض بروح رياضية، رؤيا الصراع العالمي هذه وهي تمرّ بنافذة غرفته في فندق بالاس. ويرى كثيرون أن التقرير الذي أرسله (سرّبته امرأة فلمنكية عجوز خارج بروكسل المُحصرة إلى أوستند، ومن ثم إلى برّ الأمان) أعظم تقرير كتبه على الإطلاق.

افتقد دخول الجيش الألماني إلى بروكسل الصفة الإنسانية. الحق، إنه فقدها عندما دخل الجنود الثلاثة الذين قادوا الجيش على دراجاتهم إلى جادة دو ريفينت وسألوا عن الطريق إلى جير دو نور. وبمرورهم زالت تلك الصفة الإنسانية.

إن من جاء بعدهم، واستمرّ في المجيء بعد أربع وعشرين ساعة، ليسوا رجالاً يسيرون بخطى عسكرية، إنما قوة من قوى الطبيعة، مثل موجة مدّية أو انهيار ثلجي أو نهر يفيض على ضفتيه. وهذه القوة تندفع الآن عبر بروكسل مثلما اندفعت المياه الآسنة في وادي كيمونو عبر جونزتاون.

سرت القشعريرة في أجسادنا وأثار اهتمامنا مرأى طلائع العدو. ثم انتابنا السأم بعد ثلاث ساعات على استمرار مرورها في رتل واحد متصل من الفولاذ الرمادي. لكن عندما انقضت الساعة تلو الأخرى دونما انقطاع أو مدة استراحة أو فاصل بين التشكيلات، غدا الأمر غريباً وغير إنساني. فعدنا لمراقبتها وقد اعترانا الذهول، حيث اتصفت بلفزيةٍ وغموض ضبابي يزحف إلينا عبر البحر.

وقد عزّزت هذا الجو من الغموض البذّات الرمادية التي ارتداها الضباط والجنود على السواء... رمادي مخضر... كالرمادي الذي ينتشر في ساعة قبيل انبلاج الفجر، أو الرمادي الذي يطلون به الفولاذ غير الصقيل، أو لون الضباب بين الأشجار الخضراء. كانت أول مرة رأيته فيها في ساحة غراند بلاس قبالة فندق دوفيل. لم نعرف إن كان الموجود في تلك الساحة الجميلة فوج أم فرقة. ذلك أننا لم نرَ سوى ضباباً ينصهر في أحجارها ويمتزج بواجهات منازلها القديمة... لا أبالغ إن قلت إننا، على بعد مئة ياردة، نرى الجياد التي يمتطيها الضباط، لكننا لا نتبين الرجال على صهواتها.

استمر عبور الجيش في أرتال متراصة سبع ساعات متواصلة، الأمر الذي أوقف حركة المرور تماماً عبر المدينة. تدفّق الجيش مثل نهر من الفولاذ، رمادي وشبحيّ. عندما حل الغروب، واستمرت حوافر آلاف الجياد وآلاف الرجال تطرق تلك الساحة، أصدرَت باحتكاكها شرراً واهياً، دون أن يكون بمقدورنا تبين تلك الأحصنة وأولئك الرجال.

كانت عربات الإمداد وأسلحة الحصار لا تزال تعبر الساحة عندما انتصف الليل. وفي الساعة السابعة من صباح هذا اليوم أيقظني وقع خطى الجنود وأصوات الفِرق الموسيقية وهي تعزف ألحاناً مرحة. لا أعلم إن كان مسيرهم استمر طوال الليل. لكني أعلم الآن، وبعد ست وعشرين ساعة، أنّ الجيش الرمادي لا زال يطرق تلك الساحة بغموض ضبابٍ وعنادِ قارب بخاري.

بتاريخ 24 آب، وبعد يوم واحد على نشر هذا التقرير في نيوز كرونيكل اللندنية شقّ ديڤيز وزميل له طريقهما الخاص إلى باريس. لم يكن قد ذهب أبعد من مدينة هال عندما اعتقله الألمان لاشتباههم بأنه جاسوس. اعترض قائلاً: «أنا ريتشارد هاردينغ ديڤيز، لكن اعتراضه هذا كان ليحمل وزناً أكبر لو أن معتقليه كانوا من روّاد برودواي المعتادين أو مشتركين في مجلات أمريكية. بيد أنهم لم يكونوا كذلك، بل على العكس، كانو على ثقة أن معتقلهم جاسوس بريطاني. عُقِدت محاكمة عسكرية مصغّرة وجرى الاستماع إلى الأدلة (أو هكذا أسموها)، وصدر الحكم بإعدامه رمياً بالرصاص صباح اليوم الثاني. وكان من حسن الحظّ أن البريطانيين شنّوا هجوماً تلك الليلة، وقَبِل الألمان، الذين شُغلوا إبّان الهجوم بأمور أشد أهمية، عَرْض ديڤيز أن يقصد السفارة الأمريكية في بروكسل ولن يقدم تقريراً عن وضعه إلى كلّ ضابط ألماني يصادفه في طريقه. نجح الأمر، وسرعان ما تعرف إليه السفير الأمريكي براند ويتلوك. ترك ديڤيز بروكسل على متن قطارٍ مرّ به في الأنقاض المحترقة الباقية من مدينة لوفاين (وصف ديڤيز تلك الحرب بأنها حرب على المستضعفين، وعلى الكنائس، والجامعات، ومتاجر صناعة القبعات النسائية، والحلي، حربٌ جُلِبت إلى غرف النوم والجلوس، وعلى المزارعات في الحقول، وعلى الأطفال العقراء الذين يلعبون في الشارع)، ثم توقف في كاتدرائية ريمز حين كانت القذائف الألمانية تدكّ

سقفها الأثري وتحطّم زجاج نوافذها الموشّى. لكنه، بعد أن حُرم من تصريح الدخول الذي يسمح له بتغطية الجبهة وهالته القيود المفروضة على المراسلين، أبحر عائداً إلى نيويورك، معلناً انقضاء أيام المراسل الحربي.

غير أن عمله في مجال المراسلة الحربية عاد وأغراه بعد عام واحد وحسب. وصل إلى باريس أواخر شهر تشرين الأول عام 1915، وقصد الجبهة في أميان وأرتوي، وبعد أسبوعين، غادر إلى سالونيكا، ومنها غطى حملة البلقان. لم يكن من غرف ينزل فيها، لكن على الرغم من تقاسمه المكان مع خمسة مراسلين آخرين، تمكّن من الحفاظ على بعض معاييره القديمة، كالاستحمام صباحاً في حوض الاستحمام المحمول خاصته، وارتداء الملابس الرسمية على العشاء كل ليلة. وكانت هذه آخر صيحة يطلقها هذا المراسل النبيل عتيق الطراز. ففي نيسان 1916، وبعد وقت قصير من عودته إلى أمريكا من سالونيكا، تعرض لنوبة قلبية حين كان يملي برقية على الهاتف، ومات قبل أسبوع واحد من عيد ميلاده الثاني والخمسين، تاركاً وراءه أرملة شابة وابنة تبلغ من العمر عاماً واحداً اسمها هوب.

اليوم، وبعد قرابة قرن على وفاته، يبدو ديفيز لبعضهم مثلما بدا لعمال الطباعة في الصحف التي عمل لحسابها: مراسلاً لعوباً يحكي الحكايات الرائعة التي جاء بها عصر التقدم. غير أن كتاباته المتميزة وما فيها من عاطفة لا تزال حديثة بقوّة توصيفاتها. وقد كان هذا في جزء منه مسألة موهبة، أما في أساسه فهو مسألة عَرق وكدّ. لقد كان ديفيز واحداً من أعظم المراجعين وأرهفهم حسّاً، وكان منهجه في وصف شيء يعتمد على الإسهاب بداية، ثم يدرس كل سطر كتبه، فيحذف كل ما يراه غير ضروري، ويسأل نفسه عند كل منعطف: «هل لاتزال الصورة باقية؟». وقد كان لمنهجه هذا، كطريقة لإنتاج مراسلة متماسكة، مزايا كثيرة، خصوصاً إن ترافق مع العلامة الفارقة الأخرى التي تمتع بها ديفيز، هذا المراسل الذي لا يعرف الكلل، وهي أنه لم يشعر قطّ برضى حقيقي عن أي شيء كتبه. وعلى الرغم من ثروته الكبيرة وعلاقاته الأرستقراطية ومتاعه المصنوع يدوياً وحوض استحمامه المحمول وثيابه الرسمية على العشاء، على الرغم من ذلك كله فقد كان ديفيز مراسلاً محترفاً. وكما هي حال جميع المراسلين العظماء، لم تكن كلّ قصة لديه خشبةَ مسرح يُمثّل عليها بل مسؤولية يضطلع بها.

ج. أ. ماك غاهان

7

ج. أ. ماك غاهان

1878 - 1844

ربما كان صاحب أعظم تقرير إخباري

25 يجتمع كل عام حشد صغير من الناس في مدينة أوهيو في نيولكسنغتون ليحيوا ذكرى مراسل وُلد قبل ما يزيد على مئة و خمسين عاماً. يتجمهرون، من شتّى المناطق، في الشارع الرئيس المؤدي إلى دار القضاء في بيري كاونتي، حول تمثال حجري أحمر للمراسل. ليس هذا التمثال النصب التذكاري الوحيد لهذا الرجل. بل إن هناك، على بعد ستة آلاف ميل، في بلغاريا، تماثيل أخرى، وتضم خمس مدن شوارعَ باسمه، وتتوزع صوره في المدارس والمتاحف، ويتعلم الأطفال اسمه في المدرس، وتحكي الموسوعات وكتب التاريخ قصته، وثمة كنائس يذكرُ فيها أحفادُ أحفاد من كانوا حيه عندما جاء إلى وطنهم. لكن الصحافة نسيته، على أي حال. فما من جوائز باسمه، أو مكتبات أو جامعات أو مهاجع للطلبة أو أي دليل ملموس على تقدير الصحافة لأهمية عمله. بل إنني أشكّ إن كان واحدٌ من عشرة آلاف من طلبة الصحافة يعرف اسمه. وهذا، إن لم نقل سوى القليل، أمرٌ لا يبعث على الاطمئنان؛ لأنه بحقّ صاحب أعظم تقرير إخباري في التاريخ.

ما يجعل هذا التقرير يحتل هذه المرتبة ليس نوعية كتابته ولا البحث الذي يتضمنه أو اهتمامه بالتفاصيل -على الرغم من أنها جميعاً رفيعة المستوى- وإنما هو الوَقْع الذي خلّفه. فسلسلة القصص هذه أزاحت النقاب عن حملة إبادة قام بها فريق ضد فريق آخر، وبرهنت أن حكومتين مارستا كذباً منظماً، وأثارت موجة امتعاض اجتاحت العالم المتمدن، وأدت بالنتيجة إلى إعلان حرب، و إعادة رسم خريطة أوروبا، وإيجاد أربع دول جديدة، وهزيمة رئيس وزراء بريطاني في الانتخابات. وأرى أن أي تقرير إخباري آخر لا يداني هذا التقرير في الآثار التي خلّفها، وهذا كلّه عمل مراسل إيرلندي - أمريكي أبصر النور قبل اثنين و ثلاثين عاماً في مكان كان لولاه سيبقى مكاناً مهملاً وغير مهم يدعى بيجون روست ريدج في أوهيو.

وُلد باسم جانيواروس ألويسيوس ماك غاهان، اسم لم تكن لترحب به أقسام التنضيد والطباعة في صحف اليوم، لكنه كان نموذجياً تماماً عندما أبصر النور في حزيران 1844. توفي والده عندما كان في السابعة، ومنذ تلك اللحظة حتى بلوغه السادسة عشرة، عمل الفتى في مزرعة الأسرة صيفاً وقصد المدرسة شتاءً. وبصرف النظر عن العيوب التي ينطوي عليها تعليمٌ مقتصر على أشد أشهر العام برودة، فقد كان ماك غاهان، عام 1860، حاد الذكاء بما يكفي ليوظَّف بصفته متعلّماً مستجداً في هارتفغتون، إلينوي، وهناك تعلم مسك الدفاتر ثم تحوّل إلى مهنته الرئيسة التي أخذته إلى سانت لويس، حيث درس التجارة. وهناك تبلور طموحه تدريجياً في أن يغدو محامياً. وفي سن الرابعة والعشرين أقام ماك غاهان في أوروبا ليدرس القانون الدولي، وينهي تعليمه الذاتي للفرنسية و الألمانية. كان على وشك العودة إلى الوطن عندما لفتت مقدرته اللغوية انتباه نيويورك هيرالد، فسأله أصحابها إن كان بمقدوره أن يعمل مراسلاً خاصاً للصحيفة فيغطي الحرب الفرانكو- بروسية. وسرعان ما نسي دراسة القانون، ولم يعرف ماك غاهان بعدها حياة أخرى سوى حياة المغامرة والحرب.

على مدى السنوات الست التي تلت، كتب ماك غاهان من ساحات المعارك في فرنسا، ومن كومونة باريس (حيث اعتُقِل على أنه شيوعي، وحُكم عليه بالموت ولم ينقذه سوى تدخل السفير الأمريكي)، ومن محكمة سانت بطرسبورغ، وآسيا الوسطى، ولندن، وكوبا، والقارة القطبية الشمالية، والقوقاز، وإسبانيا، حيث تطلّب الأمر ثانية تدخّل دبلوماسي أمريكي لإنقاذه من إعدام محتمل. وفي عام 1873، تحدى ماك غاهان حظراً فرضته روسيا على المراسلين ليقوم برحلة مميزة على صهوة جواد في سهول آسيا الوسطى كان الهدف منها اللحاق بحملة عسكرية روسية في طريقها إلى تركستان. عقد القوقازيون العزم على قتله، وطاردوه لما يقرب من ألف ميل. وفي نهاية المطاف، بعد تسعة وعشرين يوماً رافقه فيها خادمان وأُرغموا فيها على الخوض في رمال غاصوا فيها حتى الرّكب وتاهوا مرات عدّة، وصل المعسكرَ وانضم إلى القوات الروسية وغطى حملتهم اللاحقة. وقد وصف زميله في الديلي نيوز أرشيبالد فوربس هذه الرحلة بأنها «أعظم عمل بطولي شهدته المراسلة الحربية في تاريخها». انضم في طريق عودته إلى فريق الباندورا وأبحر عبر مياه القطب الشمالي في زورق خشبي.

في أواخر ربيع عام 1876 كان المراسل الحربي البالغ اثنين وثلاثين عاماً في لندن برفقة زوجته ذات الأصل الروسي، بربارة، وابنهما باول، لتأليف كتاب وقضاء إجازة،

غير أن إجازته هذه لم تدم طويلاً. فقد أخذت تتسرب إلى لندن أخبار مفادها أن الأتراك أخمدوا ثورة قام بها البلغاريون ضد الحكم التركي بوحشية فاقت حدود التصوّر. نُشرت المقالات الأولى عن هذه الفظائع في الديلي نيوز، صحيفة ليبرالية مشهورة كان مراسلها في القسطنطينية، إدوين بيرز، قد أرسل برقيات يتحدث فيها عن «شائعات مبهمة» مفادها أن ما بين 18000 و30000 قروي بلغاري ذُبحوا على يد الأتراك ومرتزقتهم. نشرت الـ نيوز أولى هذه الرسائل بتاريخ 8 حزيران، تبعتها بعدئذ رسائل توسّع فيها أكثر بتاريخ 23 و 30 من ذات الشهر. ثارت ثائرة مكتب الخارجية البريطاني ورئيس الوزراء المؤيد تركيا، بنجامين ديزرايلي. حيث وصف المراسلين بأنهم «ثرثارو مقاهٍ» وأنكر جملة و تفصيلاً ما جاء في الرسائل، بل اتهم صراحةً الصحيفة بالمغالطة في نقل الأخبار و«اللامسؤولية»، هذه التهمة القديمة السائدة بين الساسة. أما الأتراك الذين فرضوا رقابة تامة على الأحداث فقد رفضوا ذلك الكلام عن الفظائع بوصفه كلاماً «عاطفياً لا أساس منطقي له».

ونتيجة لذلك، واجهت الصحيفة بعض المشكلات، فإما أن تثبت التهم التي وجهتها، أو تتراجع عن موقفها بطريقة مهينة. لذا أرسلت في طلب ماك غاهان (الذي حاول سابقاً -وفشل- في إثارة اهتمام النيويورك هيرالد والتايمز اللندنية بالقصة)، وفوضته الصحيفة بالذهاب إلى بلغاريا ومحاولة كشف الحقائق. وفي مطلع تموز كان ماك غاهان في طريقه إلى بلغاريا، حيث وصلها بتاريخ الثالث والعشرين من الشهر وباشر التحقيق في الأمر وإجراء اللقاءات مع الناجين. فاق ما اكتشفه أشد تصوراته وحشية، فقد ذُبح ذبحاً جماعياً في سورة سفاح ما لا يقلّ عن 15000 رجل و امرأة وطفل بلغاري. كتب ماك غاهان في تصديره أولى رسائله الإخبارية التي نشرتها الـ نيوز بتاريخ 28 تموز يقول:

أظن أنني قدمت إلى هنا بمزاج عادل وحيادي... أما الآن فأخشى أني لم أعد حيادياً، وأنا واثق تماماً من أني فقدت رباطة جأشي... لقد أنجزت تحقيقاً كان كافياً لإقناعي أن لا ضرورة إلى إجراء مزيد من التحقيق، إلا من وجهة نظر إحصائية بحتة... فالفظائع التي اعترف بارتكابها أصدقاء الأتراك، والأتراك أنفسهم، كافية، بل أكثر من كافية. لم يعد يعنيني الاستمرار في إحصاء عدد القتلى... فقد أُحرقت ستون أو سبعون قرية، وذُبح قرابة 15000 شخص، جلّهم من النساء و الأطفال...

سافر ماك غاهان بعدئذ إلى الريف كي يتحقق بنفسه من صحة القصص التي رواها الناجون. كانت قصصهم صحيحة، ولم تكن أكثر صحة مما كانت عليه في حالة باتاك، قرية ضمت، قبل أن يزورها المرتزقة الأتراك، 900 منزل و 8000 إلى 9000 نسمة. وبعيداً عن تعليقاته المبكرة بشأن الحيادية، وعلى الرغم من أن تقاريره اللاحقة حفلت بالحقد على ديزرايلي والسياسة البريطانية، إلا أن تقريره الرئيس عما اكتشفه في القرية هو نموذج يُحتذى عن كيفية جمع الحقائق بحيادية، لا الانفعال العاطفي بقصد التأثير على الناس، هو أكثر أساليب المراسلة فاعلية وأبلغها أثراً. تمتعت قصته، التي كتبها على عجل بتاريخ الثاني من آب مباشرة عقب زيارته إلى القرية، بالمباشرة التي تفتقدها بنحو أو بآخر تقاريره المنقحة والمجموعة (نُشرت في كتيب بعد شهر واحد واقتبستها ولا تزال تقتبسها بعض الموسوعات الأدبية). استهل ماك غاهان تقريره بالقول: «تجرعتُ حتى التخمة أصنافاً من الرعب منذ رسالتي البارحة...» ثم أردف:

وصلنا أخيراً إلى ريف صخري على جانب التلّة حيث الأرض شبه مستوية، باستثناء تضريس صغير حيث ينتصب مدخل مغارة. قصدناها على صهوات خيولنا... لكننا توقفنا فجأة... أمامنا مباشرة، وتحت حوافر خيولنا، ثمة منظر اقشعرت له أبدنا: كومة من الجماجم اختلطت بعظام مختلف أجزاء الجسم البشري، وهياكل عظمية كاملة، وجثث متفسخة، وثياب، وشعر آدمي، ولحم بشري متعفن تكوّم هناك في كومة فاسدة تفوح منها رائحة كريهة، أخذ العشب ينمو حولها بوفرة... لاحظنا أنها كانت صغيرة جميعاً وأن الملابس التي اختلطت بها وتبعثرت في أرجاء المكان هي جميعاً ملابس نسائية... أحصيت نحو مئة جمجمة، ليس من ضمنها تلك التي كانت مختفية تحت الأخريات في الكومة الشنيعة ولا تلك التي تبعثرت في كل مكان من الحقول. كانت جميع الجماجم تقريباً مفصولة عن باقي العظام... لقد ذُبحت هؤلاء النسوة جميعهن

نقترب الآن من الكنيسة. الأرض هنا مغطاة بهياكل عظمية يتعلق بها أجزاء من ملابس و لحم متعفن... وبالنظر إلى الجدران التي لا تزال منتصبة، بطريقة أو بأخرى: فقد كانت المدرسة بناء رحباً جميلاً قادراً على استيعاب مئتي طفل أو ثلاث مئة. بين الحجارة والقاذورات التي تغطي الأرض حتى ارتفاع سبعة أقدام تقبع عظام مئتي طفل وامرأة، حُرِقوا أحياء بين هذه الجدران الأربعة. وعلى مقربة من المدرسة مباشرة ثمة حفرة واسعة

قليلة الارتفاع، دُفِنت فيها مئتا جثة بعد أسبوعين على الحادثة. غير أن الكلاب نبشتها، بطريقة أو بأخرى. تدفقت فيها المياه وتحولت الآن إلى بالوعة مقرفة تطفو على سطحها البقايا البشرية أو تتغرس في وُحولِها في حين يظهر قسم منها. قريباً منها، على ضفتي الجدول الصغير الذي يمر بالقرية، تنتصب منشرة مائية. القناة التي تجري فيها المياه لتشغّل الناعورة مترعة بالجثث الطافية على سطح الماء. كانت ضفاف هذا الجدول مغطاة بجثث الرجال والنساء والفتيات والأطفال... بيد أن الجدول الصغير فاض وحمل الجثث بعيداً وبعثرها فوق ضفافه المعشوشبة، وفي ممراته الضيقة، وقنواته المظلمة، وداخل الأجمة الكثيفة، والغابة الظليلة، وصولاً إلى بيستريا وتاتار بازارجيك، على بعد أربعين ميلاً.

... دخلنا فناء الكنيسة، لكن الرائحة هنا غدت لا تطاق بحيث استحال علينا مواصلة تقدمنا. قبضنا قبضة من تبغ ورفعناها قبالة أنوفنا وتابعنا السير. كانت كنيسة صغيرة مسوّرة بجدار حجري خفيض يحدد فناء صغيراً بمرض نحو خمسين ياردة و طول خمس وسبعين. في البداية لم نتبيّن شيئاً... لكننا تبيّنّا أن المكان مغطى بالقاذورات والأحجار حتى علو خمسة أقدام أو ستة فوق مستوى الشارع، وعندما أمعنا النظر اكتشفنا أن ما بدا كومة أحجار وقاذورات كان في الواقع كومة هائلة من الجثث مغطاة بطبقة رقيقة من الأحجار. كان فناء الكنيسة مغطى برمته بالجثث حتى ارتفاع ثلاثة أقدام أو أربعة.

قيل لنا إن 3000 جثة كانت تتمدد في هذا الفناء الصغير وحده. ثمة رؤوس بشرية صغيرة في تلك الكومة حطّمتها أحجار ثقيلة، وأقدام صغيرة لا يتجاوز طولها إصبع اليد جفّ عليها اللحم بفعل الحرارة الملتهبة قبل أن يتسنى له الوقت ليتفسخ، وأيادي أطفال رضّع، تمتد كأنما تلتمس النجدة؛ رضّع قضوا وهم يحملقون إلى بريق ألسنة اللهب وفي العيون الحمراء لأولئك الرجال القساة الذين سادوا عليهم، أطفال قضوا وهم يبكون وينتحبون ويتوسلون الرحمة؛ وأمهات قضين وهنّ يحاولن حماية صغارهن بأجسادهن الواهنة؛ يستلقون هناك جميعاً ويتفسخون في كومة واحدة شنيعة يلفهم الصمت. لا دموع، لا صراخ، لا نحيب ولا قشعريرة رعب تسري في الأجساد أو صرخات تتوسل الرحمة. المحاصيل تفسد في الحقول والحصادون يتعفنون هنا في فناء الكنيسة.

دخلنا الكنيسة التي اسودّت بفعل احتراق الأشياء الخشبية. حُرِق هنا عدد هائل من الأجساد، وكانت بقاياها المتفحمة والمسودّة التي تراكمت حتى بلغت منتصف الارتفاع إلى الأقواس الواطئة قد جعلت تلك الأقواس أكثر انخفاضاً وأشد قتامةً، كانت لا تزال تتمدد هناك في حالة تعفن... تجولنا في الأنحاء ورأينا الأشياء ذاتها تتكرر مرة تلو أخرى. رَوَنا منزلاً دُفن فيه عشرون شخصاً أحياء؛ ثمة منزل آخر لاذت به اثنتا عشرة فتاة ذُبح عن آخرهن كما دلّت بوضوح عظامهن. الرعب يسود المكان. من بين ثمانية الآلاف أو تسعة الآلاف الذين ألّفوا سكان القرية لم يبق سوى 1200 إلى 1500 نسمة. ليس بحوزة هؤلاء الأدوات اللازمة لحفر قبور، وإن وُجدت الأدوات افتقدوا القوة لاستعمالها.

... سألنا عن العظام و الجماجم التي رأيناها على التلة... فقيل لنا إنها أجساد مئتي فتاة أُسِرْنَ بداية وبقينَ بوجه خاص لملاقاة مصير أسوأ. تركوهن حتى النهاية؛ وبقين في الأسر أياماً عدة -ذلك أن الحرق والنهب لم يكن لينتهي جميعاً في يوم واحد- وفي أثناء هذه المدة قاسين كلّ ما يمكن لهؤلاء الفتيات البائسات الواهنات الخائفات أن يقاسينه على أيدي الهمج المتوحشين. بعدئذ، عندما سُلبت القرية وأُحرقت، وذُبحت صديقاتهن جميعاً ،اقتيدت هذه المخلوقات الصغيرة التعسة، التي كان يجدر بكل ما لحق بها من جور وظلم أن يُضمن لها الأمان، وكل ما قاسته من فظائع أن يُضمن لها الحماية، في وضح النهار، تحت قبة السماء الضاحكة، وذُبحت بدم بارد، ثم كُوِّمت هناك وتُركت لتتعفن.

وبحسب إدوين بيرز، فإن تقارير ماك غاهان «نزلت على البريطانيين كالصاعقة». فعُقدت لقاءات شعبية لا تعدّ ولا تحصى، وفي حين ساد السخطُ العالَمَ الغربي، أُرغمت الحكومة البريطانية على التسليم بصحة تقارير ماك غاهان. وتزايد الضغط لأجل فحص عسكري. وفي ربيع عام 1877، شنت روسيا حرباً على تركيا. بقي البريطانيون على الحياد، وكان حيادهم هذا غير مفهوم قبل أن يرسل ماك غاهان تقاريره. ومثلما كتب إلى والدته قبيل اندلاع الحرب مباشرة: «أقول وكلّي ثقة: إنني فعلت لدكّ الإمبراطورية التركية أكثر مما فعل أي شخص آخر... باستثناء الأتراك أنفسهم».

وصل ثمانون مراسلاً لتغطية الجانب الروسي، لكن ظروف الحملة كانت من القساوة بحيث إنه في نهايتها، بعد أقل من عام، لم يبق على الجبهة من هؤلاء المراسلين جميعاً سوى

أربعة كان أحدهم، بالطبع، ماك غاهان. الذي قصد الحرب وإحدى ساقيه في جبيرة، بعد أن كسرها في حادث سقوط. تجاهل ذلك، وقد اضطره تجددُ انكسار كاحله نصف المخلوع، في المراحل الأخيرة من الحرب، إلى أن يُحمل إلى خطوط التماس على عربة مدفع. بعد ستة أشهر من الحرب، أبصرت النور دول بلغاريا وصربيا ومونتينيغرو ورومانيا، واتسعت روسيه ونال البريطانيون قبرص. لكن لم يُقدّر لـ ماك غاهان أن يعيش ليكتب عن ذلك. فبعد أسابيع قليلة من نهاية الحرب، كان في القسطنطينية يستجم من عناء الحملة عندما أُصيب صديقه، فرانسيس غرين، بحمى التيفوئيد. وعلى الرغم من حالته الصحية السيئة، ذهب ماك غاهان لزيارته. نجا غرين، لكن ماك غاهان أُصيب بالتيفوس، مرض أشد خطراً بكثير من التيفوئيد، وقضى بتاريخ التاسع من حزيران، قبل أيام ثلاثة من عيد ميلاده الرابع والثلاثين. دُفن في بيرا، وصاحبَ دفنه بكاء هستيري وغير مكبوت من صديقه الجنرال الروسي ميخائيل سكوبيليف، وأقيمت القداديس لراحة روحه في سان بطرسبورغ، وأُعلن الحداد عليه في لندن وباريس وأمريكا. وبعد ستة أعوام حُمل جثمانه عبر الأطلسي على متن سفينة حربية أمريكية وجُلب إلى نيويورك، حيث سُجّي في نعش مكشوف في قاعة الشرف لإلقاء النظرة الأخيرة عليه، ومن ثم في مبنى البرلمان في كولومبوس، أوهيو، قبل أن يُحمل إلى مثواه الأخير في مقبرة مايبل وود، نيو لكسنغتون. عبرت زوجته، التي غدت مراسلة مختصة بالشؤون الروسية في النيويورك هيرالد، المحيط برفقة جثمان زوجها واستقرت في أمريكا مع ابنها، ونجحت في الكتابة لحساب مجموعة واسعة من الصحف الأمريكية والروسية. وفي وقت لاحق من ذلك العام، أثبت تحقيق رسمي تم في إدراك هادئ متأخر صحة كل ما كتبه ماك غاهان من ساحات القتل في بلغاريا.

يقول ديل ووكر في كتابه «جانيواروس ماك غاهان: حياة مراسل حربي أمريكي وحملاته»، إن صديقاً لأرملة ماك غاهان قصد، بعد قرابة عقد من الزمن، معرض كولومبيا الدولي في شيكاغو. حيث رأى موظفاً رسمياً يقف هناك، فسأله إن كان بلغارياً وهل سمع بـ جانيواروس ماك غاهان، فأجاب الرجل: «سأجيب عن سؤالك هذا بسؤال هل أنت أمريكي، فإن كنت كذلك فسوف أسألك إن سمعت بـ واشنطن أو لينكولن أو غرانت. إن رأيك بهؤلاء الأبطال الخالدين هو رأينا بـ ماك غاهان». أقول إن كان لمهنة الصحافة، هذه المهنة النسّاية (كثيرة النسيان)، ضمير فيجدر به أن تخزه هذه الكلمات.

جيمس كاميرون

8

جيمس كاميرون

1911 - 1985

المعلّق المختص بالشؤون الخارجية

بـأ التدريبُ على مهنة الصحافة منذ ما ينوف على قرن، وهناك الآن الآلاف في بريطانيا والولايات المتحدة ينجزون هذه الوظيفة أو تلك في هذا المجال. وما نأمله هو أن تتبادر إلى أذهانهم حقيقة لا لبس فيها تفيد أن اثنين فقط من بين الثلاثة عشر مراسلاً الذين يضمهم هذا الكتاب، مرّا بقاعات التعليم التي مرّوا هم بها.

أُسجِّل هذا ليس كتعليق على نوعية التعليم الرسمي والتدريب الصحفي بقدر ما هو تعليقٌ على عقمهما عندما يصل الأمر إلى تقديم مراسلين بارزين. وفي حين توضح الشخصيات في هذا الكتاب وجهة النظر هذه مزيداً من الإيضاح (ذلك أن أقل من نصف عددهم خريجون جامعيون)، فإنه ما من صحفي يمثل على أفضل وجه المظهر الحيّ لشخص غير متعلم نسبياً يمتلك المؤهلات العقلية والموهبة اللازمتين لبلوغ شأو عظيم أفضل من جيمس كاميرون، الذي يراه كثيرون المراسلَ الأذكى من بين المراسلين الذين أنجبتهم بريطانيا.

تلقى كاميرون تعليماً رسمياً غير منتظم بنحو يبعث على الدهش انتهى عندما بلغ السادسة عشرة. ليقضي بعدئذ قرابة اثني عشر عاماً في العمل لحساب مطبوعات كانت أبعد ما يمكن أن نتخيله عن عمل المراسلة الإخبارية السائد. لكنه على الرغم من ذلك، برز مثل بطة صغيرة قبيحة في عالم الصحافة، بعد سنوات قضاها في مراجعة المقالات المعدّة للنشر وتدقيقها، كأشدّ مراسلي عصره ذكاء وأكثرهم

مواكبة للدّارج وأعمقهم تفكيراً. وكمذيع مختص بالشؤون الخارجية، عُرِف كاميرون بصوته الذي كان أداة ماضية من أدوات الشك معتقة في وعاء السنوات التي قضاها في استهلاك الويسكي والتبغ. غير أن هموم العالم ومآسيه لم تثقل كاهله قطّ فتثنيه عن البحث عن تنافرات موحية أو عن إلقاء الدعابات أو عن ابتكار طرق جديدة لوصف ما يراه.

أبصر كاميرون النور في باتيرسي، جنوب لندن، عام 1911، حيث كان والده قد تحوّل من وهم مُثُله العليا والتفت إلى كتابة المسلسلات والرواية. ومن هنا، شبّ كاميرون في سرة تنظر إلى الأدب باحترام يفوق احترامها للقانون، حُكْمٌ لم ير كاميرون سبباً لتعديله طوال حياته. وساد المنزلَ جوٌّ محبٌّ الكتبَ والمطالعة بالدرجة نفسها، فكان تعليمه الرسمي غير منتظم. أما فيما يتعلق بمعظم طفولته، فلم يقطن أهله في إنكلترا، وإنما، للدوافع الاقتصادية، سكنوا في بريتاني، فرنسا. وعليه، انكب كاميرون على الدراسة في مدرسة القرية المحلية، ما أعطاه طلاقة عظيمة في لغته الثانية الفرنسية والقليل في طريقة تعليم منظّم. و تمثّلت ذكرياته القوية عن المدرسة بانزعاج نفسي كبير. فقد اعتاد أحد الأساتذة ممن خدموا على الجبهة الغربية أن يخطب من حين إلى آخر عن الأهوال التي رآها. والأمر الذي جَهِله كاميرون هو أن لهذا الأستاذ ذراعاً اصطناعية. وذات عصر، انساق هذا الأستاذ في شغف حديثه إلى الصف فكان أن اقتلع الذراع من أساسها مشرع يلوح بها فوق رأسه مثل فأس ثم قذف بها إلى مقعد كاميرون. كاد يُغمى على المراسل الحربي في تلك الأثناء.

كبر كاميرون بسرعة، منذ أن غدا والداه، بطرق مختلفة، أشبه شيئاً فشيئاً بضفدعين اتّكاليين. فقد أُصيبت والدته بفقر دم مزمن وأصبحت حياتها رهن الأدوية؛ وفي هذه الأثناء، عانى والده الربوَ وأدمن الخمر. وعندما بلغ كاميرون سن المراهقة، تحوّلا إلى مصدر قلق؛ ففي سن السادسة عشرة، رأى كاميرون والدته وقد أمست طريحة الفراش عاجزة كلياً، ما لبثت أن قضت نحبها، ثم إن الأرباح التي جناها والده كانت من القلة بحيث لم تعد تكفي لإعالة الفتى في المدرسة. وهكذا يمّم كاميرون صوب مانشستر، وتحديداً مكاتب الويكلي نيوز، حيث عمِل مُستخدماً بأجر شهري مقداره ثلاثة دولارات، يملأ المصامغ ويشذّب أقلام

الرصاص وينقل الرسائل الشفهية. وبعد قرابة عام واحد، نُقل إلى دندي في إسكتلندا. لم تكن هذه ترقية إلى أعلى المناصب جاءت في أنسب الأوقات، والحق أن مطلع الثلاثينيات من القرن العشرين لم يكن وقتاً مناسباً لأي شيء. فقد كانت المؤسسة التي عمل لحسابها إحدى المؤسسات القليلة التي لم تنخرط في النضال: مؤسسة د. ك.تومسون لنشر الصحف اليومية والأسبوعية والمجلات المصورة، وبقيت أجيالاً عدة نموذجاً لسياسات التوظيف الرجعية والمحافظة. عُرف عن مديرها، ديفيد كوبر تومسون، أنه لم يكن يسمح بدخول الروحان الكاثوليك مبنى الشركة، وانتقلت عدوى مقاومته للنقابات المهنية في مؤسسته إلى خلفائه الذين رفضوا، بعد وقت طويل على وفاته عام 1945، الاعتراف بوجود تلك النقابات. وقد تماشى موقفهم هذا مع رفض المؤسسة السماح أن تحل الأخبار محل الإعلانات على الصفحة الأولى من صحيفتها الأهم، دندي كوريير، موقفٌ لم يتغير حتى عام 1992، فكانت بذلك إحدى أواخر الصحف في العالم الغربي التي تقوم بهذا التغيير.

من بين منشورات تومسون الأخرى، إلى جانب الصحف، كانت المجلات المصورة: قصص هزلية للأطفال، ومجلات أسبوعية مثل ذا بيبول فريند، التي نشرت قصصاً عاطفية تافهة إلى حدّ كبير، إلى درجة جعلت معها محرر ريدرز دايجست يتقيأ، إلى جانب صحف رخيصة اعتمدت بالدرجة الأولى في محتواها على مزيج غريب من حيوانات ظريفة وجرائم شنيعة. عمل كاميرون في إحدى هذه الصحف، رِدّ ستار ويكلي، وفي سيرته الذاتية، نقطة الرحيل، وَصَف سياستها التحريرية:

شجَّعت الصحيفة على وقوع أكثر الأفعال المخيفة والمرعبة من شنق وطعن بالسكاكين وإطلاق نار ونزع الأحشاء ودفن أناس أحياء وارتياد الأشباح للمقابر والبيوت وإغراق الضحايا وخنقها، وضروب تعذيب متنوعة وغنية جُمعت بعضها إلى بعض، وكان يجب أن تنتهي كل حلقة بوعد مشوّق بأن الأسوأ آت، لكن لم يكن مسموحاً تحت أي ظرف وفي أي مرحلة مجرد الإشارة إلى أفعال جنسية بذيئة.

تعين على كاميرون، متسلحاً بهذه المبادئ، أن يغربل حوادث الأسبوع بحثاً عن حادثة بشعة تخصف الأبصار لتكون أساس العدد المقبل. ذات أسبوع، وقع بصره على قصة قاتل متسلسل

قطّع جسد شابة تنحدر من أصول نبيلة بالمنجل. كان عنوان القصة «الرجل ذو العينين الغاضبتين»، وبطبيعة الحال، اختار كاميرون أبشع جرائمها كي يرسلها إلى الرسام. عادت القصة إليه في الوقت المناسب، وكان كاميرون راضياً تماماً عن النتائج. صوَّرت القصة، كما كتب لاحقاً:

> زقاق خلفي مُخيف ومثير للشؤم ليلاً، لا ينيره سوى بريق شاحب يصدر عن عمود إنارة غريب، كَشَفَ ضوؤه الخافت بدايةَ شارع نازل مرصوف بأحجار رطبة، تمدد عليها الموضوع الحقيقي لقصتنا هذه: جسد شابة حُزّ عنقها، كما هو واضح من الوريد إلى الوريد.

و إذ هنّأ نفسه على خياره، حمل كاميرون قصته على الفور إلى السيد ديفيز دونالد، المُحرّر.

> عندما وقعت عيناه عليها شحب لونه. انتزعها من يديّ وحملق إليها بدهش وغضب لا يوصف. قال أخيراً: «لا ريب أنك جننت!». إذا قبلت أنني ربما بالغت قليلاً هذه المرّة، فإني غمغمت: «لعل المشهد عنيف قليلاً». « قليلاً. قل إنه عنيف جداً!» جأر السيد دونالد، «ليست المسألة مسألة عنف، ثم إن المشهد ليس سيئاً. لكن، حباً بالله أيها الفتى- انظر إلى تنورة الفتاة؛ إنها تعلو ركبتها كثيراً». عدت ومعي الرسم، وجعلت الرسام يخفض حافة التنورة إنشاً أو اثنين، وسار كل شيء داخل الغلاف على ما يراد؛ ذَبحُ الفتاة وما إلى ذلك.

لا ريب أنه نال الرضى عموماً، ومع ذلك، فقد نُقِل، في سن الرابعة والعشرين إلى غلاسكو والـ صنداي بوست. وكانت هذه صحيفة استثنائية بالمعايير كافة. فقد منحها ما تنشره من أخبار موجزة ومباشرة، وقصص جرائم باللغة العامية الإسكتلندية، ومقالات عاطفية، علاقةً مميزة بجمهورها بحيث قرأها أربعة من كل خمسة راشدين في إسكتلندا. وكانت سياستها غير الخاضعة للنقابة سبباً في أن يعمل كاميرون في سباق مع الزمن في كل فرع تقريباً من فروع الصحافة. فقد يخرج، على سبيل المثال، يوم سبت لينجز تقريراً سريعاً عن مباراة رُكْبي أو اجتماع لكنيسة إسكتلندا، ثم يعود إلى الصحيفة فيراجع المقالة ويرسم مشهداً هزلياً يضفي عليها مزيداً من الإيضاح (كان رسام كاريكاتير موهوباً) ويضع العنوان

ويكتب تعليقاً على الصورة، ثم يقوم بمراجعة أخيرة للمقالة، وينزل إلى غرفة التنضيد فيشرف على تنضيدها على «الحَجَر» (طاولة معدنية تُصَفّ عليها الصفحات المؤلفة من أحرف معدنية؛ مرحلة ما قبل دخول الحاسوب)، ليمضي ما تبقى من ليلته بعدئذ في مكتب المشرف العام المناوب.

أما في الأحوال العادية، فقد قضى كاميرون معظم أيام الأسبوع في كتابة مقالات اعترافية متخمة عاطفياً على لسان أصحابها كان جمهور الـ بوست مولعاً بها أشدّ الولع.

[كتب لاحقاً] كنت أنتحل شخصية «زوجة عاقر» أو «زوج ديوث» أو«وولي الصغير جداً» أو«المنثور» أو « طفل بلا اسم». وكان علي أن أكتب كل اعتراف في فقرات من جملة واحدة، وباللغة الدارجة عند الطبقة العاملة الإسكتلندية.

وقد يُطلب منه، في مناسبات أخرى، أن يكتب لشخص آخر قصة حياة ملاكم مشهور أو خادم في البلاط، أو أن ينتحل هيئة حيوان فيكتب بلسان «بيرسي البودل» أو «قطة زقاق منبوذة»، أو حتى أن يكتب مذكرات أشهر مجرمي إسكتلندا أو مذكرات أقاربهم. وقد تُرك الأمر أكثر من مرة لـ كاميرون ليؤلف مقالات ظهرت تحت عناوين مثل «لِمَ يجب على وِلدي ألا يتسكع». غير أن كتاباته لم تتوقف عند هذا الحد. فمعاقرة والده الخمر وتدهور حالته الصحية أوصلاه إلى الحضيض حتى لم يعد قادراً على كتابة القصص التي كانت توفر دخلاً ضئيلاً. لذا قام كاميرون بكتابة قصص والده، الذي اطمأنّ إلى أن خدعته هذه بقيت غير مكشوفة (الحق إن الناشرين كشفوا خدعته هذه لكنهم تمتعوا بكياسة عظيمة تمنعهم من القول).

انتقل إلى المطبعة الإسكتلندية من الديلي إكسبريس بعقد مؤقت في وظيفة رسمية، وتزوج شابة حاملاً في أشهرها الأخيرة. ثم جاء أيار عام 1940، الشهر الذي ألقى بظله على كاميرون بقية حياته. فقد توفي والده أولاً، وبعد نحو أسبوع، دخلت زوجته إلما في المخاض. كان على وشك الانتهاء من ورديته في الصحيفة عندما ورده اتصال هاتفي يطلب منه الذهاب إلى المشفى. وصل بعد دقائق قليلة على وفاة زوجته في أثناء الولادة. فغدا في عامه الثامن والعشرين أرملاً وأباً لطفلة رضيعة، وبعد وقت قصير رُفض من الخدمة العسكرية لإصابته

بمرضٍ في القلب لا تزال طبيعته مجهولة حتى الآن. وهذا ما يوضح قبوله عرضاً بالانتقال إلى مكتب الـ إكسبريس في لندن، حيث ترك ابنته في عهدة جديها لأمها، وحثّ الخطى نحو الجنوب بأسرع ما سمحت به خدمة السكك الحديدية في وقت الحرب.

وسرعان ما غدا مديراً معاوناً بديلاً في الصحيفة، وهي ترقية عزاها دوماً إلى نقص في المرشحين البدلاء بسبب الحرب. وعندما خفّض الاقتصاد في الورق عددَ صفحات الصحيفة إلى خمس صفحات أو ست، تعين على المراجعين والمنقحين تكثيف كل خبر بحيث يمكن حشر أكبر قدر من المعلومات في أصغر مساحة مخصصة. عَمِل كاميرون، ليلة تلو أخرى، في تفكيك الأخبار وإعادة تجميعها بأشد صورها بلاغة. وكانت تلك مدة تدريب في صحافة الأخبار لا تُقدَّر بثمن، بيد أن نفس كاميرون عافتها. وفي المقابل، ألح على نحو متكرر على محرره أن يمنحه فرصة للكتابة إلى أن حصل عليها في آخر الأمر -إما لأن الصحفيين الآخرين كانوا يؤدون خدمتهم العسكرية بعيداً، وإما لأن أحدهم تحلى بالفطنة ليكتشف موهبته. برع كاميرون في عمله الجديد، وفي وقت قصير غدا الرجلُ، الذي كان يعتصر آخر قطيرات العاطفة من حكاية مؤثرة عن مأساة محلية إسكتلندية، مراسلاً مختصاً بالشؤون الأجنبية لحساب الصحيفة الرائدة في بلده.

كانت إحدى مهامه الأولى السفر إلى الهند؛ كي يغطي مسيرتها نحو الاستقلال. ولم يكد يتسنى له فهم الأوضاع هناك عندما وصله نبأ اختياره، في صيف عام 1946، ليكون واحداً من ثلاثة بريطانيين لمراقبة الاختبارات التي تقوم بها أمريكا على القنبلة النووية في بيكيني آتول. هنا، على هذا الجرف المرجاني المرتفع على المحيط الهادئ، قرر الأمريكيون إجراء تجربتين شيطانيتين. في التجربة الأولى، أسقطت طائرة ب - 53 تُلقّبَ بـ «ديف دريه» قنبلة عُمِّدَت باسم «غيلدا» على سبع وثمانين سفينة معطلة من سفن البحرية الأمريكية. وفي التجربة الثانية، فجّروا قنبلة نووية تحت سطح البحر. وعلى الرغم من أن الضجة التي خلّفتها القنبلة الأولى تركت انطباعاً قوياً («... تردّد صداها المكتوم في جميع الجهات مثل باب عظيم صُفق في أعمق كهوف البحر...»)، وجد كاميرون نتائج القنبلة الثانية أشد هولاً بما لا يُقارن؛ وكتب بتاريخ 30 حزيران:

انتهت التجربة الآن. حيث انفجرت تحت سطح الجرف المرجاني هذا الصباح أول قنبلة نووية، وكانت التجربة الأولى تحت سطح البحر لبيكيني لاغون. وما من شك في أنه كان الانفجار الاستثنائي الأكثر ترويعاً الذي اخترعه إنسان غريب الأطوار.

...اهتز خط الأفق في ساعة الصفر تماماً حيث تلتقي السماء بالبحر، وارتفع في قبة شاسعة متوهجة وناصعة البياض بدت بالمنظار -وأنا أقف على مسافةٍ تقل عن عشرة أميال ويحوطني صباح بنقاء الكريستال- بدت جزءاً من الثانية مثل فقاعة غريبة، بعدئذ تجمعت قوى في داخلها وانفجرت في أضخم نافورة صُنعت على الإطلاق.

ارتفع مليون طن على الأقل من مياه المحيط الهادئ في عمود شاقولي تماماً يزيد عرضه على نصف ميل، حتى بدا أنه يخترق الغيوم. تصاعد هذا العمود ببطء حتى بلغ ارتفاعه بعد دقيقة واحدة قرابة ميلين، ثم سَكَنَ برهةً قبل أن يذوب مثل رجل ثلجي عظيم وُضِع في مرجل يغلي؛ هذا هو بيكيني لاغون.

أوقعت هذه التجارب الرعب في قلب كاميرون. وأمسى، مثلما قال، «أول كارهٍ القنبلةَ النووية»، وأسّس لاحقاً حملة لنزع الأسلحة النووية.

كانت الفئة التي انتمى إليها الآن، في أواخر الأربعينيات من القرن العشرين، الأميز بين الفئات العاملة في الصحافة: فئة المراسل المختص بالشؤون الخارجية في عصر السفر جواً بين القارات، لكن ذلك كان قبل أن يصل عصر التلفاز ذروته. كان ذلك العصر، كما قال كاميرون، عصر ازدهار «صحافة التباهي والاستعراض، حيث ما من مكان بعيد جداً أو مكلف جداً». ولم يكن ليوجد آنذاك زمرة من المبذرين أكبر من تلك الموجودة في مكتب الشؤون الخارجية في الديلي إكسبريس. لم يكن التبذير غايتهم، بل ببساطة لا يعنيهم. ففي أثناء سنوات معدودة، أرسلت الصحيفة كاميرون إلى جنوب آسيا وأمريكا الجنوبية وألمانيا وتايلاند وفرنسا وبورما وإندونيسيا والكاريبي وباتاغونيا وجنوب إفريقيا وأفغانستان والتيبيت وأستراليا، ولم يقتصر سفره إلى هذه الأماكن على مرة واحدة، بل تعدّاه إلى مرات عدة، لم لتكن جميعها لأجل هدف مهم، مثلما قال كاميرون:

مما أعطى تشارلز [فولي، محرر الشؤون الخارجية في الـ إكسبريس] لذةً عظيمة في تدبير تغيرات حادّة ومعقدة تخصّ مكان تواجدي في أي بقعة من العالم، بما ينطوي عليه ذلك من مشكلات لوجستية بالغة التعقيد تتطلب مصاريف باهظة، ولم يكن ذلك غالباً لأجل هدف أسمى من شعورنا المتبادل بالشكر لحلّ مشكلة ما.

أما إن لم تكن هناك أزمات أو إن عجزت الصحيفة عن إيجاد سبب يدفعه إلى القيام بالتحضيرات اللازمة والسفر إلى مكان آخر على الفور، فإن كاميرون يبقى حيث كان ويكتب للصحيفة. فعلى سبيل المثال، أرسل من جسر برلين الجوي بتاريخ 22 تموز 1948:

مرة أخرى نتلمس طريقنا إلى المنزل هذا المساء على ضوء الشموع كالعميان، في حين تهدر الطائرات فوق رؤوسنا دونما انقطاع مثلما جرى في الأيام الماضية.

...تستأنف برلين تمثيلها الغريب والسخيف للحياة الطبيعية – مشكلات يومية قافهة ورزية وعقيمة. ينتقدون هذا ويتملقون ذاك ويحاولون تحويل الاضطراب المربك لذي تشهده العملة إلى ربح لهم أياً كان مقدار ضآلته.

و من أرجنتين بيرون كَتَب في آذار العام 1949:

على مدى سنوات خلت، كانت الأرجنتين مصحّاً للساسة المجانين، لكن على الأقلّ، كانت غنية، قبل بيرون.

...كيف تُفقِر بلداً يتمتع بهذه الثروة الزراعية الهائلة- بلدٌ يغطي أرضَه اثنا عشر قدماً من الطمي الصلب، حيث لا تستعمل الأسمدة أبداً ولا حاجة إليها، وتجوب قطعان الماشية سهولاً مترامية الأطراف دونما حاجة إلى المأوى، تأكل الفصّة على مدار العام. بلد بحجم أوروبا يعيل عدداً من السكان أقل بضعفين من سكان لندن؟

كيف تدمّر مكاناً كهذا؟ حسنٌ، لقد تمكن بيرون وحكومته من فعل ذلك.

بأسلوبه الساخر الميال إلى التعليق، كان من الغريب أن تتحمل صحيفة يمينية آراء كاميرون البلشفية والمناهضة للإمبريالية مثلما تحملت الـ إكسبريس، و قد أوضح ذلك بالقول:

تشبه علاقتي بالصحيفة أكثر ما تشبه علاقة راعي أبرشية بعيد غير مبالٍ بالحبر الأعظم: قبلتُ سلطتهم علي دون أن أعير انتباهاً إلى عقيدتهم.

لكن هذا لا يعني أنه كان معتدّاً بنفسه على الدوام. فمن مالطا التي اعترفت بريطانيا بأسرها بشجاعة أهلها في أثناء الحرب ومنحتها أسمى جائزة مدنية، صليب جورج، لما أبدته من بسالة، كتب كاميرون مقالة يعدد فيها الصعاب التي يعانيها شعبها. كانت المقالة بعنوان «صليب جورج غير صالح للأكل»، وبعد مدة قصيرة من نشرها، استُدعي كاميرون إلى شقة اللورد بيفربروك، مالك الـ إكسبريس المحافظ في لندن. حيث تطرّق حديثهما إلى موضوع مالطا، وقرأ بيفربروك مقالة كاميرون عليه، دون أن يعرف على ما يبدو أن المقالة تخصّ الشاب الجالس قبالته. أنهى قراءتها ثم أردف:

هذا الصنف من العمل هو ما أود رؤيته في صحفي. لا تزال مراسلاً شاباً... وأقول لك: إن أتقنت الكتابة بهذا الأسلوب فالمستقبل ينتظرك مع صُحُفي. خذها وادرسها. مع السلامة.

و في حين يُقتبس قول بيفربروك هذا كمثال عن تطرفه، إلا أنه يبين على الأرجح كم كان يكره متداح أحدهم وجهاً لوجه و يجده أمراً مقززاً وبشعاً.

لكن المشكلات بين المحرر صاحب المبادئ السامية ومجلس إدارة الصحيفة لم تلبث أن ظهرت وتبادلا الضغط واحدهما على الآخر؛ إلى أن وقع المحتوم في ربيع عام 1950. فقد قاءت شقيقة الـ إكسبريس، الـ إيفننغ ستاندرد، بما تقوم به صحفٌ كثيرة عندما تُعدَم الأخبار: لفقت تعقيباً يتضمن تفاصيل جديدة عن خبر رئيس بأن نظرت إليه من وجهة نظر سياسية لم يسبق أن خاض أحدهم فيها قبل تلك اللحظة. والسبب في أن وجهة النظر هذه كانت جديدة كل الجِدّة هو أنه لم يخطر في بال أي صحيفة أخرى أن تذهب إلى هذا الحد من الدهاء. كانت الأفكار الرئيسة في هذا التعقيب هي: اتهام كلاوس فوكس، عالم الفيزياء النووية الشيوعي، أخيراً بالتجسس لمصلحة الروس، وتزامن ذلك مع تعيين جون ستراتشي، مثقف اشتراكي كتب ذات مرة متعاطفاً مع الشيوعية السوفيتية، وزيراً للحربية. وإذ دُمجت هذه الحقائق وتجاهلت تماماً حقيقة أن ستراتشي فنّد مرات عديدة آراءه القديمة، أوردت الـ ستاندرد العنوان الآتي

بتاريخ 2 آذار: «فوكس وستراتشي: أزمة جديدة بالغة الخطورة. وزير الحربية لم يتبرأ قط من الشيوعية». ورد في المقالة اقتباسات عدّة من كتب ستراتشي القديمة، فضلا على سعة الخطر الذي اتسمت به المقالة الأصلية الملفقة، وعلى الدعوات المُطالبة بإجراء تحقيق التي صدرت عن كل صوت للإيجار أمكنَ العثور عليه في الوقت المتوافر. قادت حملةَ الاحتجاجات على هذه الخدعة الخسيسة صُحفُ نيوز كرونيكل والـ أوبزرفر والـ غارديان، وتبنى كاميرون موقفها هذا، وعندما هبت صحيفته لدعم قضية ستاندرد، دعا إلى اجتماع أسري واستقال من الـ إكسبريس، وكتب رسالة إلى الـ تايمز يوضح فيها أسبابها:

أسّسنا بفعلنا هذا المثال عن صحافة التطهير، التي لن تؤدي في آخر الأمر سوى صنف من الناس يتحدثون من قفا أيديهم، عارفين أن الكلام الذي قالوه بالأمس، في مزاج عالمي مختلف جدّاً، هو ذات الكلام الذي يمكن أن يُشنقوا لأجله غداً.

بعد مدة قصيرة وظّفت الـ بكتشر بوست كاميرون، وهي أسبوعية ضمّت، مثل لايف في الولايات المتحدة، صوراً ذات نوعية عالية ومقالات غريبة. في أواخر صيف 1950، أرسله المحرر توم هويكنسون برفقة المصور بيرت هاردي لتغطية الحرب الكورية. وبتاريخ 15 أيلول، كان كاميرون جزءاً من عمليات الإنزال في إنكون. كانت هذه العمليات نسخة موسعة عن الإنزال الذي قامت به قوات الجنرال ماك آرثر في النورماندي عام 1944 وهدفت إلى اختراق القوات الكورية. ذات يوم قصد كاميرون وهاردي الشاطئ ومن هناك أرسل يقول:

وسط هذا المعمعة، إن كان بمقدورك أن تتخيل أمراً كهذا، كان ثمة قارب يتهادى، وقد كُتب عليه بأحرف كبيرة صحافة، يغصّ بمراسلين متحمسين يتجادلون، ويحاولون جميعاً أن يبدوا عاقدي العزم على النزول إلى الشاطئ في الموجة الأولى، وفي الوقت نفسه يحاولون جاهدين أن يحتالوا للأمر فيكونوا في الموجة الخمسين.

... خسر الكوريون الشماليون موقعهم الرئيس المطلّ على الشريط الساحلي، وخسروا مدينتهم وحياتهم بأعداد هائلة ومعها حياة كثير من أبرياء لاقوا المصير السيئ نفسه الذي لاقاه أبرياء كثيرون سبقوهم كان من سوء طالعهم أن قطنوا أماكن قرر أناس في

غرف العمليات تدميرها... يشعر المرء، إذ يجلس هنا، بالسعادة، وقد يشعر بالخجل قليلاً؛ غير أنه لا ريب يشعر بالسعادة.

مـ روّعه أيضاً كان أن الكوريين الجنوبيين (حلفاء الأمريكيين في حملتهم العنيفة على الشيوعية) ساوموا على القضية التي أعلنوا أنهم يدافعون عنها، الحرية، بأسر أعداد كبيرة وتعذيبها وقتلها ممن وصفوهم بالسجناء السياسيين. اكتشف كاميرون أن هؤلاء «المنشقين» لم يكونوا في غالبيتهم كذلك؛ بل كان القسم الأعظم منهم أناساً علقوا في المكان الخطأ، ولم يتجاوز بعضهم، مثلما كتب كاميرون: «الثانية عشرة وحسب»:

مضى عليهم في السجن الآن مدد غير محددة لكنها طويلة بما يكفي لتحول أجسادهم إلى هياكل عظمية، وعروقهم إلى خيوط، ووجوههم إلى لون رمادي شبه شفاف مرعب، وأرواحهم إلى أرواح كلاب ذليلة. يُربطون بالحبال ويُقيدون بالأغلال. يُرغمون على الانحناء في وضعية الركوع الشرقية التقليدية في أحواض القمامة. أما أسوأ مؤشر على ما يتعرض له هؤلاء من إهانات شخصية فهو أنهم يركبون الشاحنات وقد أصابهم شعور بعدم المبالاة الذي يصيب من هم ذاهبون إلى حتفهم. والحق أن كثيراً منهم يلقون ذلك المصير.

لم يرسل كاميرون تقريره هذا مباشرة، بل قام بالبحث حتى استنفد جميع السبل، ومن ثمّ قدم أدلته إلى الأمم المتحدة (كانت القوات المناهضة للشيوعية تقاتل تحت مظلتها ورعايتها). ولم يعد برفقة هاردي إلى الوطن إلا عندما طردوه، وألّف، بمساعدة محرر بكتشر بوست توم هويكنسون، ما دعاه «مقالة صحفية في الاعتدال المروى فيه» كما عنونها، وكانت التماساً إلى الأمم المتحدة في قيد الطباعة عندما أمرهم صاحب الصحيفة إدوارد ج. هيلتون بالتوقف. وأصر قائلاً: إنه لن يسمح باستخدام مجلته لتلطيخ سمعة حلفاء الغرب بـ«دعاية شيوعية». ساد الهرج والمرج وعقدت اجتماعات، وكانت النتيجة أن طُرد هويكنسون و ستقال كاميرون لاحقاً ولم تعد البكتشر بوست مثلما كانت قط. فقد انخفضت مبيعاتها التي بلغت 1380000 نسخة أسبوعياً، إلى 935000 في أثناء ثمانية عشر شهراً بعد استقالة كاميرون، وبوجود محتوى يفتقر إلى الجدية، كافحت بشق الأنفس للبقاء عند رقم 600000 عندما أغلقت نهائياً عام 1957.

كانت هذه المقالة الإشكالية مثالاً نادراً عن تقديم كاميرون سبقاً صحفياً. ذلك أنه لم يكن في الأساس باحثاً عن القصص أو حتى كاتب أخبارٍ تقليدية، وإنما كان مراسلاً يغطي الأوضاع ويكتشف ما فيها من مفارقات ساخرة وأهوال. كانت لغته رثائية حزينة (الأمر الذي يبدو واضحاً حتى في مقالاته المبكرة منذ ثلاثينيات القرن العشرين). وقد جعلته هذه اللغة، إذ ترافقت مع محاكمة عقلية نافذة للأوضاع، ينحرف انحرافاً عظيماً عن السائد في ما كتبه. لم يتسن لكاميرون الوقت قط للالتفات إلى الموضوعية، كما يوضح:

لطالما رأيت أن المراسل المتورط في وضع من أوضاع القيم الأخلاقية الأصيلة سوف يجد، بصرف النظر عن مدى عرَضية تورطه، أن هذه «الموضوعية» الذائعةَ الصيت ليست مستحيلة فعلياً وحسب، وإنما غير مرغوبة أيضاً.

عندما تصدر وجهة النظر هذه عن شخص له تجربة كاميرون تكون على قدر من الإقناع أعظم بما لا يقاس منها عندما تصدر عن أشخاص سذّج يستخدمونها كذريعة؛ كي لا يقوموا بالبحث والتفكير المطلوبين.

بعد بكتشر بوست، انتقل كاميرون إلى النيوز كرونيكل الليبرالية. قال لاحقاً إن هذه كانت أسعد العلاقات التي عاشها مع صحيفة، وليس من الصعب تَبيُّن السبب. فقد أحاطه هناك أصدقاء من عقلية مشابهة (أذكياء وميالون إلى اليسار ومتحررون إلى حدٍّ ما)، فضلاً على أن الصحيفة وافقت، بدرجات متفاوتة، على دفع تكاليف مراسلته من أي مكان أراد السفر إليه. وكان ذلك المكان على الدوام هو موقع الأزمة أو الكارثة أو الصراع الكبير. دعا كاميرون هذه الأوضاع باسم «أوضاع مكفهرة»، وقد توافرت بكثرة في أثناء العقدين الآتيين. حيث غطى الحرب في الهند الصينية، وإسبانيا فرنكو، والماوماو في كينيا، والانتفاضة الهنغارية، والحرب الجزائرية، ونفي الدالاي لاما، ومحاكمات جومو كينياتا وأدولف إيخمان ونيلسون مانديلا، وأزمة السويس، ومؤتمرات الأحزاب السياسية والمؤتمرات الرئاسية، ومحادثات السلام، ومفاوضات الحرب، وسقوط الجمهورية الفرنسية الرابعة. وإذا ما كان ثمة اختبار لقنبلة نووية، كان كاميرون

حاضراً بطبيعة الحال، ولو كان ذلك يعني أن عليه الانتظار بعض الوقت. فقد استهل افتتاحيته عن السلاح البريطاني من فوميرا، أستراليا عام 1953:

يمرّ الوقت متثاقلاً. سافرتُ مسافة طويلة إلى هنا لأجل شيء يُزعم أنه لن يستغرق سوى واحدٍ من مليون وثلاث مئة ألف جزء من الثانية.

قلّما عرف كاميرون طعم الراحة، و إذا ما قرر أن يصرف بعض الوقت في العمل على موضوعات أقل جدية، لم تسر الأمور دوماً كما يشتهي. فعلى سبيل المثال، في عام 1958، وعلى سبيل التغيير بعيداً عن الحروب والكوارث، وُكلت إليه مهمة إجراء لقاء صحفي مع ليز تيلور، التي كانت آنذاك في قمة شهرتها وأنوثتها. قصد كاميرون واحداً من أفخم فنادق لندن، حيث استقبلته أسطورة هوليوود بردائها الليلي المثير وبالشمبانيا. تفجّرت أنوثة تعالته، ومالت عليه مرات عديدة خشية ألا يكون سحرها كافياً، وافتتن بها كاميرون افتتاناً عظيماً فلم يطرح سؤاله الأول المهم إلا بعد مدة. حيث سألها، ما تأثير اقتصاديات هوليوود فيك؟ لكن ردّ الآنسة تايلور صعقه: «حسن. تباً لها. ماذا عن عروضك بشأن عقد جديد؟». لقد حسبته مُنتجاً سينمائياً، فانتهى اللقاء قبل أن يبدأ. كتب كاميرون فيما بعد: «لم ألبث أن وجدت نفسي على السلم».

وعلى نحو مفاجئ مشابه، علِم فريق النيوز كرونيكل ذات يوم من شهر تشرين الأول عام 1960 أن العدد الذي يعملون عليه هو العدد الأخير. كانت مبيعات الصحيفة تتجاوز المليون نسخة، غير أن أصحابها، أسرة كادبري الثرية، رأوا أن خسائرها أكبر من أن تعوّض فأغلقوها. وبفعلها هذا، غدت الصحيفة، لدى بعض الصحفيين البريطانيين، نسخة صحفية عن بَدي هولي، من حيث إغلاقها قبل الأوان وجميع الأساطير التي نجمت عن ذلك. لكن كاميرون أوضح ذلك بلفته البليغة عندما كتب لاحقاً: «كان السبب الرئيس للموت جلطةً بسيطة، مثلما يحدث عندما تسد الخثراتُ دورةً دموية نشطة».

أقسم كاميرون ألا يلتزم ثانية بأي صحيفة، ولم يفعل قطّ. بل عمل لحساب كل من ديلي مايل، وإيفننغ ستاندرد، وديلي هيرالد، وذي أتلانتيك، ونيو ستيتسمان، وهاربرز بازار، وصنداي تلغراف، والـ أوبزرفر، والـ غارديان. وكانت النتيجة ملاحقة

أقل للأوضاع العالمية المستجدة، وتنوعاً أكبر. فقد أجرى لقاءات مع هوشي منه وفيدل كاسترو (بعد أن أخلف بموعده أكثر من مرة، ظهر الزعيم العظيم دون سابق إنذار ذات ليله، يرافقه حراسه الشخصيون، في غرفة كاميرون في الفندق وجلس على سريره وطفق يتحدث)؛ وغطى بناء جدار برلين، وأزمات الشرق الأوسط المتلاحقة وصراعاته، والاتحادات الفلاحية في البرازيل، وخطاب مارتن لوثر «عندي حلم...»، وأحداث الشغب في هارلم عام 1964. والاضطرابات في الهند، والصراعات الكولونيالية في إفريقيا وصولاً إلى قبرص، وحرب فيتنام من كلا الجانبين. كما كتب عن الرحلات الأولى إلى الفضاء:

يجدر بنا أن نحفظ (و سوف نفعل على الأرجح) الصورة الرؤيوية للمقدم جون غلين، التي ظهرت على كل صفحة من صفحات الجرائد يوم أمس كرمز لصبر الانسان ويأسه وشجاعته وغطرسته وتفانيه الأعمى؛ لترسيخ ما ينطوي عليه التفرّد والتفوق العالميين من ضروب قسوة مريعة (29 كانون الثاني 1962).

وغطى تداعيات اغتيال جون ف. كينيدي عام 1963، حيث قطع المسافة من منزله في لندن إلى دالاس في تسع ساعات فقط، في حين لا يزال يلتقط أنفاسه، ليكتب ما يلي من الجنازة بتاريخ 26 تشرين الثاني:

اليوم دفنوا في نعش جون فيتزجيرالد كينيدي الجبهة الجديدة والآمال التي لم تتحقق والحياة التي انطفأت في غير أوانها.

قبل أيام ثلاثة كان شاباً مفعماً بالنشاط تسري الأنفاس في جسده والحياة في روحه. وكان أقوى الساسة جميعاً. أما اليوم فليس سوى مجرد شيء يحملونه في الشوارع على وقع طبول مكتوم، في حين يخيم جو عام من الحزن لم يحظ به متوفى من قبل.

... رحل إذاً الرئيس جون كينيدي، وما كان يجدر به الرحيل الآن. كان ثمة أشياء كثيرة لينجزها، أما الآن فقد تبقى هذه الأشياء دون إنجاز. قتله بالأمس الكره والحمق، واليوم دُفِن بمحبة.

كان كاميرون أول مراسل أجنبي يُسمح له بدخول هانوي في أثناء حرب فيتنام، وقد صمم أن يرى إن كان الشمال يعج بالشياطين، مثلما قال الأمريكيون، أم إنه مسكون عن آخره بالأبطال، مثلما قال الشيوعيون:

ثمة فرْقٌ عندما تدوي صفارات الإنذار هذه الأيام، فالملاجئ المبنية من التراب تبدو كأنما بُنيت للأطفال، وتطلق مكبرات الصوت تحذيراتها بالفيتنامية فلا أقدر أن أميز إن كانت تحثني على الركض كالمسعور أو أن أنكب على تحسين نتاجي.

...عملياً توقفت حركة المرور في مدن الشمال، والموجود جميعه آليات عسكرية مموهة بالأغصان وسعف النخيل وأوراق الموز. نرى هذه الظاهرة في سائر المدن، فقد اختفت السيارات والشاحنات تحت الأوراق الخضراء كأن غابة بيرنام تزحف إلى دنسينين.

هذه حال الشعب أيضاً، فالمواطنون يقصدون تدريباتهم العسكرية وقد تدلت على أكتافهم أردية من أوراق خضراء. ولعلهم يبالغون قليلاً في ذلك، فقد تحولت عبادة التمويه إلى موضة بنحو أو بآخر... وحدها الحافلات تعاملت بعقلانية مع الأمر برمته، حيث رُسم عليها أشكال نباتية، مثل ورق جدران شرقي.

وخطى حرب الأيام الستة بين العرب وإسرائيل وتداعياتها المحزنة:

... خرجتُ البارحة في أول استطلاع لشبه الجزيرة كلها؛ هذا المكان، حيث دُمّر الجيش المصري، هو ربما أكبر جبهة منفردة عرفها الإنسان. لم أر في حياتي أمراً مماثلاً، على الرغم من أني اعتدت إلى حدٍّ بعيد على أشياء من هذا القبيل... فقد أُبيدت قوة مصرية مؤلفة من خمس فرق مشاة وفرقتين مدرعتين، وتفكك جيش قوامه قرابة تسعين ألف مقاتل أو يزيد، وقُتل عشرات الآلاف منهم أو أُسروا، أو تُركوا وجرى تجاهلهم ليهيموا على وجوههم ويكافحوا بطريقة أو بأخرى للبقاء أحياء وسط المجهول. عدة ملايين من الجنيهات هي تكلفة تسليح باهظ الثمن ورفيع تحوّل الآن إلى غنيمة أو خردة محطمة سوداء. الدبابات والعربات مبعثرة في الصحراء مثل رضية غرفة طفل غاضب.

كانت إسرائيل أحد مكانين أحسَّ تجاههما بمشاعر جاوزت المشاعر الأبوية. فقد كان حاضراً عند ولادة هذا البلد في أواخر الأربعينيات من القرن العشرين، وكان حاضراً عند ولادة حبه العظيم الآخر، الهند. وعلى الرغم من أنه لم يكن بطبيعته متملقاً للعظماء والأخيار، إلا أنه أقام علاقات وطيدة مع زعماء كلا البلدين. ففي إسرائيل، كانت علاقته بموشي دايان، الجنرال ومهندس انتصار إسرائيل في حرب الأيام الستة؛ وفي الهند بـهرو، ولاحقاً بابنته أنديرا، التي شغلت أيضاً منصب رئيس الوزراء. اجتذبته الهند بوجه خاص فزارها مرة تلو أخرى مثل طائر مهاجر يزور مرعاه الحبيب كل شتاء. هنا، في الهند، أصيب بحادث سيارة كاد أن يودي بحياته عام 1971، وهنا أيضاً قابل زوجته الثالثة والأخيرة. ربط بين هذين الحدثين شهرُ عسله الذي أفسدته أخبار عن اندلاع حرب بين الهند وباكستان. وعلى أساس أن «من المخالف لقواعد أي صراع أن يندلع دوني»، ودّع كاميرون زوجته التي لم يمض على زواجه منها سوى أيام معدودة وسافر إلى البنغال، وفي الطريق إلى هناك، صدمت شاحنةٌ سيارته. كان الوحيدَ الذي نجا من الحادث، لكنه عانى بالنتيجة مشكلات في القلب أدت إلى إجراء عملية زرع شرايين.

بمرور الوقت، غدا أكثر من أي وقت مضى كاتب «تحليلات»، وهي مقالات تتناول بالدراسة أوضاع ما وراء البحار بدل مواكبة تطورها خطوة بخطوة. وكان من الطبيعي أن ينتقل منها إلى المسلسلات الوثائقية التلفازية، حيث أنجز عدداً منها لحساب بي بي سي، و كان على الدوام المراسل الوائق المختص بالشؤون الأجنبية الذي يوكل إليه الدور الرئيس. فتراه برفقة الكاميرا في أثناء التصوير في أحد شوارع دلهي المزدحمة أو في سوق من الأسواق تعمه الفوضى، يتجول ببزة السفاري أو بثياب مغبرة مستفسراً وقد ارتسمت على محياه ملامح صارمة لرجل لا يمكن أن يُخدع بسهولة، ويعلق على مهل تعليقات ساخرة بصوت يعطي الانطباع أحياناً أنه استعاره من شخص آخر، وينتقي الكلمة المناسبة.

عام 1974، بدأ كتابة عمود لحساب الـ غارديان، يوزع فيه خلاصة تجربته بـسلوبه الخفيف. ومع اقترابه من سبعينياته، لم يعد يرسل عموده هذا من منزله، وإنما من سرير في أحد المشافي، ذلك أن عقوداً من استهلاك الويسكي والنبيذ ومن قلة النوم والطعام

وحادث السيارة ذاك نالت منه. توفي بتاريخ 27 كانون الثاني 1985 عن عمر يناهز 73 عاماً. طُبع عموده الأخير في اليوم الثاني لوفاته، وفيه يتحدث عن السرطان الذي فتك به، على الرغم من أنه كتبه قبل ثلاثة أشهر. يبقى كاميرون، هذا المراسل الساعي دوماً إلى الإيضاح، المقياس الذي يقاس قبالته المراسلون البريطانيون جميعاً.

obeikandl.com

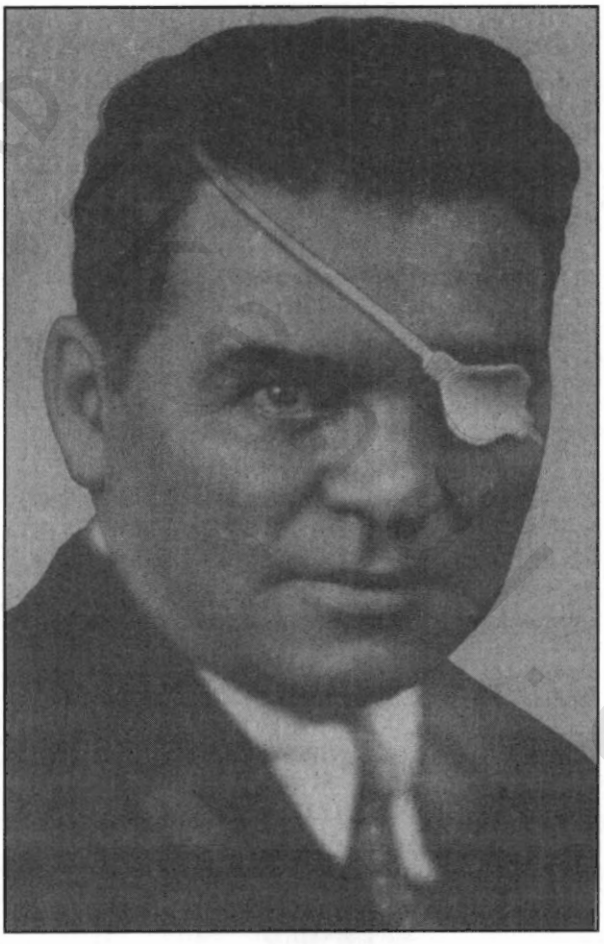

فلويد غيبونز

9

فلويد غيبونز

1887 - 1939

المثال الأعلى للمراسل الساعي في مهمة

إذا وجب عليك ترشيح مراسلٍ يغوص في تفاصيل مسألة بالغة التعقيد ويأتي لك بالقصة، فإن الشخص الذي يجدر بك إرساله هو رافاييل فلويد فيليبس غيبونز، المراسل الحربي والعضو الفخري في قوّات البحرية، وربما المثال الأعلى للصحفي في سعيه غير الأخلاقي لإنجاز مهمة ما. وأن نقول: إنه لم يُظهِر قط تردّداً أو خجلاً أو إحساساً بالخوف هو أمر ينطوي نوعاً ما على مبالغة. لكن، من جهة أخرى، أن نفتش حياته بحثاً عن هذه الصفات، وعن فكرة العالم للفضائل خارج الصحافة، هو مهمة عقيمة بكل ما في الكلمة من معنى. فلأجل الحصول على سبق صحفي في قصة ما (أو الحؤول دون حصول مراسل آخر عليها- وجهان لعملة واحدة في رأي غيبونز) لم يتوانَ عن خرق القانون، وإلحاق الأذى بالممتلكات العامة، والضرب عرض الحائط بتحذيرات رجال الإطفاء، ومواجهة التهديدات الإرهابية، والسفر على متن سفينة كانت عرضة للطوربيدات، وخداع قادة الاتحاد السوفييتي، وتقلّدِ أوسمة من سباقات الكلاب؛ كي يلعب دور بطل حرب. وقد نجا من تسع حروب، وحادثَي تحطم جويين، وإطلاق النار عليه من سبعة جيوش مختلفة، وقصف بالقنابل من أربع قوى جوية، ومواجهات مع تهديدات ذات طابع رسمي بدرجة أقل مثل بانشو فيلا ومنشقّيه والبوليس السري الياباني. وقد خَبُر ذلك كله بعين واحدة، إذ فَقَدَ عينه الأخرى في الحادية والثلاثين في أثناء سعيه وراء سبق صحفي آخر. نعم، غيبونز هو بلا شك الشخص الذي يجدر بك إرساله.

من جهة أخرى، كان لإرساله في مهمة صحفية ميزة إضافية أخرى لا يمكن تجاهلها البتّة، هي إبعاده عن الصحيفة. فكما هي حال المغامرين الخارقين، لم يكن غيبونز بالمعنى

الدقيق ما يدعوه الرياضيون لاعب فريق، وتطلّب غروره حجماً أكبر كثيراً مما توفّره غرفة الأخبار العادية. لم يكن سهل القياد، من جهة، وكان ينقصه المورّث الذي يجعل الناس قابلين الترويضَ، من جهة أخرى. فَشِل زواجه، وفضّل عليه سلسلة من العلاقات غير المتطلبة، آخرها كانت مع مغنية أوبرا. وكان دائم الترحال كما يليق بأمريكي في القرن العشرين، فعاش في عدد من الفنادق مدة مراهقته كلها ولم يقتنِ منزله الخاص إلا في أواخر أربعينياته

هذا كله يجعل غيبونز يبدو مثل تصوّر كاتب سيناريو هوليوودي للمراسل الصعب المراس، غير أن هذه ليست الحقيقة كلها، بل إن تحت ذلك المظهر الفولاذي قلباً ينبض بعاطفة حقيقية. فقصته عن عيد الميلاد الذي قضاه ذلك الفتى في ظل الحرب في فرنسا جديرة بأن تذكرها أكثر كتب المقتطفات الأدبية انتقائية وأشدها تمحيصاً، ويجب أن يكون المرء متحجر القلب بارد العاطفة مثل بيروقراطي سوفييتي؛ كي لا تؤثر فيه تقاريره عن الفلاحين الروس في أثناء كفاحهم للنجاة من المجاعة العظيمة عام 1921. كذلك تَرَسّى غيبونز حياته لأسرته، وكرّست أسرته نفسها له، وعندما ابتاع أخيراً منزله الخاص بعد ثلاثين عاماً قضاها في حقيبة السفر، دَفَعَه دافع خفي لي أن يضع فيه السرير ذاته الذي أبصر فيه النور.

في منزلٍ غير بعيد عن البيت الأبيض في العاصمة واشنطن سنة 1887. نشأ غيبونز وسط أسرة غير مثقفة، فقد كان والده صاحب شركة للمنتجات الحيوانية أدارها بنفسه، بطريقة أو بأخرى، بالجرأة نفسها التي استعرضها ابنه في أنحاء العالم. ففي محاولة لإقناع سيدات المجتمع الراقي في واشنطن أنّ حاجاتهن اليومية تلبيها شركة غنية تسيّر أسطولاً من الشاحنات، كتب على أحد جانبي شاحنته «رقم 1» وعلى جانبها الآخر «رقم 2». وقد مكنته هذه «لعبة» التجارية من أن يكون رائداً ناجحاً في مجال الطوابع التجارية. لكن الفتى فلويد لم يُبدِ اهتماماً بالانضمام إلى والده في هذه المهنة، بل كان عاقد العزم، منذ طفولة أظفاره، على أن يكون مراسلاً صحفياً. وعندما قصد جامعة جورج تاون، كان يتحرق لهفة إلى التصرف كواحد من المراسلين - معاقرة الخمر و لعب الكرابس في حرم الجامعة- ما أدى إلى طرده بسرعة. ولأن حياته الجامعية انتهت على هذا النحو، وقّع غيبونز عقداً مع

ميتابوليس ديلي نيوز عام 1907 بصفة مراسل متخصص بأخبار الجرائم مقابل سبعة دولارات أسبوعياً. لم يُسعد ذلك غيبونز الأب، بل إن امتعاضه الشديد دفعه للتوجه إلى مكتب الصحيفة، فاقتحم مكتب المحرر ويليام ج. شيبرد وطلب منه أن يطرد ابنه. أصغى إليه شيبرد، ثم فكّر بعض الوقت قبل أن يجيب: «لا، سيد غيبونز. لن أطرد ابنك، فمن الواضح أنه يتحلى بحاسة فطرية تجاه الأخبار».

وقد كان كذلك بالفعل. ففي عام 1909، انتقل غيبونز إلى مينابوليس تريبيون، ثالث صحيفة يعمل لحسابها في ثلاثة أعوام. ولأنه كان المراسل الرئيس الذي يغطي أخبار الجرائم، فقد انتقى صفوة ما في المدينة من جرائم وحرائق وشجارات واغتيالات، وأمضى جلّ وقته يتسكع خارج أقسام الشرطة والمحاكم ويحث الخطى، من وقت إلى آخر، صوب مسرح أشد الجرائم إثارة، الذي كان بطبيعة الحال، الأحياءَ الفقيرة من المدينة. كانت هذه الأحياء مَعيناً لا ينضب من القصص قدّمت لغيبونز ثقافة في أكثر نواحي الطبيعة البشرية غلظة تعجز عن توفيرها أي جامعة. فعلى سبيل المثال، وجد الشاب الواشنطوني نفسه ذات مرة في غرفة قذرة في الدور الخامس من مبنى سكني يساعد امرأة على وضع طفلها، فضلاً على الأوقات التي قضاها برفقة شريكه في السكن ومعلمه الخاص، جاك جنسن، رجلٌ يكبره بخمسة وعشرين عاماً ويدمن الويسكي. لكن جنسن لم يزود غيبونز بالخمر، بل زوّده بالكتب، وقد فعل ذلك بإصرار مهرّب خمور يحاول أن يجعل من رجل غير سكير مدمن خمر. آتى إصرار جنسن ثماره، وقابل غيبونز ذلك بالاحترام الواجب لما تبقى من حياته للرجل الذي علّمه أن «الكتابة تتطلّب القراءة».

عام 1910 سنحت لغيبونز أول فرصة كبيرة للظهور، وكانت خبراً عن شجار في وسكنسن عنونه «معركة سد كاميرون»، ومسرحه بلدة تدعى وينتر على مقربة من أرض رجل خسيس غريب الأطوار يدعى جون ديتز وأسرته المؤلفة من زوجته وثلاثة بنين وابنتين. كانت البلدة تعتمد على قطع الأشجار للمتاجرة بأخشابها، وتضمنت ملكية أسرة ديتز فيما تضمنت نهر ثورن آبل وسدّ كاميرون المقام عليه. استخدمت شركة تشيبوا لمبر بووم النهر لتعويم أخشابها، وكان هذا سبب المشكلة. فبعد أن ابتاع ديتز الأرض عام 1904، طلب فوراً من

المؤسسة مبلغ 8000 دولار ضريبةً على الأخشاب التي يسوقها النهر. رفضت المؤسسة، فأعلق ديتز السد، وعندما أحضرت له إنذاراً قضائياً، تجاهله. وصل الشريف وممثلو النيابة لى السد، وهناك تبادلوا التهديدات وشهروا بنادقهم وتبادلوا إطلاق النار. وهكذا، استمرت الهدنة طوال الأعوام الأربعة التي تلت، في حين تزايد التوتر حتى تاريخ 6 أيلول 1910 عندما قصد ديتز وابنه البلدة ليقترعا. وهناك نشبت مشاجرة كلامية مع مدير المدرسة المحلية، فتدخل رجلٌ يدعى هورِل، تلا ذلك عراك بالأيدي، فأشهر ديتز بندقيته وخرّ هورِل وقد أصيب في كتفه.

انسحب ديتز إلى كوخه، وارتفعت الأصوات في البلدة تطالب بالثأر. لفتت القصة أنظار الأمّة، وجرى إرسال غيبونز كما يجب في مهمته الرئيسة الأولى. وصل ليجد البلدة ترغي وتزبد، والشريف ميدن يعيّن مساعدين له من شباب البلدة الأقوياء الذين أقسموا اليمين أمامه. انطلق غيبونز مسرعاً لمقابلة ديتز في كوخه، وبينما كان يجمع مادة قصته الأولى اندفع ابن ديتز الثاني، ليزلي، لاهثاً إلى الكوخ. كان وشقيقته ميترا وشقيقه كلارنس يقصدون البلدة في عربة الأسرة عندما كَمِن لهم الشريف ورجاله. استطاع ليزلي الفرار بيد أن كلارنس اعتُقِل وأُخِذت ميترا -التي أصيبت في ظهرها عندما حمت شقيقها الأصغر من نيران رجال القانون- إلى أحد الفنادق. دوّن غيبونز ذلك جميعه وأسرع عائداً إلى البلدة كي يُرسل سبقه الصحفي.

على مدى الأيام القليلة التي تلت، كان روتينه اليومي هو أن يقطع على صهوة جواده الأميال العشرة إلى أرض ديتز، فينقل للأسرة ما يدور في البلدة، ويسجل ردود أفعالهم ومن ثم يعود ليرسل تقريره من خط الهاتف الوحيد في وينتر. لعبت المصادفة دوراً كبيراً في هذا الجزء الأخير. ذلك أن خمسة وعشرين مراسلاً آخرين كانوا موجودين هناك، وأي تلكؤ يعني مكاناً متأخراً في رتل المنتظرين على الهاتف. لذا استأجر غيبونز السيارة الوحيدة في البلدة، إضافة إلى سائق؛ كي يضمن وصوله إلى الهاتف أولاً. غير أنه اكتشف بعدئذ أن منافسه الرئيس، «ردّ» شوارتزر من مينابوليس جورنال، كان على وشك أن يبتكر حيلة أسرع. فقد دفع هذا الأخير، إذ علم أن المدعي العام في الولاية كان على وشك التوجه إلى كوخ ديتز وإقناعه بتسليم نفسه، مالاً إلى أحد العمال، كي يجلس في المخزن العام ويحتكر الهاتف

بالتظاهر بقراءة الصحيفة ببطء شديد. بيد أن غيبونز علم بطريقة غريزية ما يتعين عليه فعله. فقبيل التوجه إلى كوخ ديتز ليرى رجل القانون يقدم التماسه وديتز يرفضه، خبأ غيبونز فأساً أسفل عمود الهاتف.

عندما بدأ المراسلون سباق عودتهم والأخبار في جعبتهم، قدّم غيبونز لشوارتزر عرضاً مفـجئاً وسخياً بإيصاله إلى البلدة. وفي حين غمره الاعتداد بالنفس لعلمه أن أجيره يقرأ ببطء على الهاتف أعمدة الصفحة المحلية، قَبِل شوارتزر العرض؛ وعندما توقفت سيارة غيبونز خارج المخزن، صاح منافسه لرجله أن يتّصل بـ مينابوليس. لم يكد ينطق بهذه الكلمات حتى قفز غيبونز من السيارة، واستلّ فأسه المخبأة، وتسلّق العمود وقطع سلك الهـتف، ثم انطلق مسرعاً في سيارته إلى تلغراف محطة القطار وأرسل الأخبار أن ديتز يرفض الاستسلام. تغلب على باقي المراسلين جميعاً بفارق أربع ساعات، وهو زمن بمقدورنا تعيينه بدقة تامة؛ لأنه الزمن الذي استغرقه إصلاح سلك الهاتف.

عند الساعة الثانية ظهراً، اعتُقِل غيبونز وكُبّلت يداه بالأغلال وسيق في سيارة سجن هيوود على بعد نحو أربعين كيلومتراً. استغرقت الرحلة، بسبب الأعطال المتكررة، حتى فجر اليوم الثاني، وتسنّى له الوقت أن يُرسل من السجن، ويتقدم بطلب إطلاق سراح بكفالة، ومن ثم يسرع عائداً إلى سد كاميرون ليرى الشريف مادن وستّين معاوناً يحاصرون كوخ ديتز. تطلّب إقناع العجوز جون أنّ استسلامه هو الحل الوحيد لإنقاذ من تبقى من أسرته مناوشات بالنيران أطلق في أثنائها الطرفان ما ينيّف على ألف طلقة، ولم يستسلم إلا بعد أن خرّ صريعاً أحد معاوني الشريف. حاكمته، بعد عام واحد بتهمة القتل، هيئةٌ محلفين تضمنت بين أعضائها أربعة من موظفي شركة الأخشاب وحُكم عليه بالسجن المؤبد، وقضى عشرة أعوام قبل أن تُقنع حملةٌ تأييد لمصلحته حاكمَ وسكنسن بإطلاق سراحه.

ما قضية غيبونز مع القانون فسارت بيسر أكبر. قالت المحكمة: إنها ستسقط تهمة العطل والضرر إن دفعت التريبيون خمس مئة دولار ثمن الوقت الذي تعطل فيه الهاتف. سُعِدت الصحيفة بدفع المال، مقابل المكاسب الهائلة التي أعطاها إياها كل سبق صحفي أرسله غيبونز، بل لقد منحت غيبونز علاوة.

وإن كان ثمة مراسل تعلم كيف أن المخاطرة يمكن أن تعود بالربح، فهو المراسل غيبونز في قضية سد كاميرون، ولم ينس هذا قط. وبالفعل، عاد غيبونز إلى البلدة ثانية بعد ثلاثة أشهر، بطريقة لا تتضمن خرق القانون. فقبيل عيد الميلاد بأسبوعين، شبت النار في أحد فنادق مينابوليس ووقفت حشود فضولية تراقب ما يجري، في حين لاذ بالفرار مئتا مدعو بلباس السهرة عبر مخارج الحريق، أو حملهم رجال الإطفاء على الأكتاف نازلين السلالم المهلهلة. كان مشهداً مسلياً بكل المقاييس، زاد من تسليته لدى الفضوليين أنه لم يكن هناك أي فندق، بل كان الـ برونسويك، الملتقى المفضل للمشاهير ووجهاء المدينة ونسائهم، ولم تكن هذه العلاقات علاقات شرعَنَها الزواج. حضر غيبونز إلى الموقع بسرعة، وإذ أدرك ما يمكن أن تنطوي عليه لائحة زبائن الفندق من معلومات صحفية مهمة، اندفع عبر الدخان والركائز المتهاوية إلى الردهة حيث طاولة الاستقبال واختطف اللائحة بما فيها من تفاصيل ذات قيمة ومجرَّمة. نُشرت اللائحة كاملة مرفقة مع تقريره وبيعت نسخ الصحيفة جميعها.

مع مغامرات مثيرة وأخبار كهذه يمثّل كل واحد منها سبقاً صحفياً، كان الانتقال إلى مدينة أكبر مسألة وقت فحسب، وفي ربيع عام 1912 شدّ غيبونز رحاله إلى شيكاغو. غير أن توقيته ذاك لم يكن مناسباً، ذلك أن صحف المدينة جميعها كانت قد أعلنت الإضراب. قضى غيبونز أسبوعاً كاملاً ينام على مقعد في متنزه، إلى أن وظفته الصحيفة الوحيدة التي لم يوقفها الإضراب، وكانت صحيفة اشتراكية. ومثل معظم مثيلاتها من المطبوعات الأخرى، كانت أيضاً غير مربحة، وبعد أشهر قليلة، وقع المحتوم وجمع المحرر الموظفين ليخبرهم أن الصحيفة ستغلق، والأسوأ من ذلك ألّا وجود لمال في الصندوق؛ كي يدفع لهم أجورهم عن الأسبوعين الفائتين. ثم أضاف قائلاً: «على أي حال، تلك الحانة في الجهة الأخرى من الشارع تدين لنا بنحو مئتي دولار أجور إعلان، وإن أردتم أن تحاولوا تحصيل أي شيء من صاحبها فهو مني». انطلق غيبونز وخمسة عشر زميلاً آخر لفورهم، وبعد عدة ساعات، أفرغوها من كل شيء عدا بار الماهوغاني والمرآة التي تدلت وراءه.

بيد أن عائدات الغارة لم تكن لتكفيه، وعندما ظهر غيبونز بعد أسبوعين في مكتب شيكاغو تريبيون يبحث عن عمل، كان منظره يدعو إلى الرثاء: غير حليق وقد ارتدى بذلة

مجعدة وملوثة. غير أنه، ربما بمساعدة محرره الاشتراكي السابق الذي عُيّن رئيساً لقسم الطباعة في الـ تريبيون، حصل على الوظيفة وطلب مرتباً سلفاً؛ كي يستحم ويلبس ما يليق. وبحسب أحد العاملين في الـ تريبيون، بورتون راسكوي، كانت نتائج انغماسه في فورة التسوق مخالفة تماماً للتقليد السائد عن الزي الصحفي:

خرج علينا غيبونز اليوم بأبشع بذلة رأيتها على إنسان خارج مسرح هزلي... كانت بذلة رمادية اللون... عليها أكبر مربعات يمكن أن تتخيلها. كانت هذه المربعات بحجم إفريز النافذة... أما البنطال... فقد كان ضيقاً جداً عليه حتى بدا كأنه أُلصق على ساقيه.

لعل منظره بدا شبيهاً بمهرج، غير أن مراسلته خلت من أي تهريج. كانت المهمات الأولى مهمات صغيرة، لذا اتّجه إلى القيام ببعض التحقيقات. وفّر الصيدلانيون والأطباء المزيفون هدفاً ذا أهمية إخبارية، وانتقدهم غيبونز نقداً لاذعاً وشاملاً، وجعله فضحه إيّاهم نجْم غرفة الأخبار الجديد. لذا عندما بدت الحرب مع المكسيك محتملة، في كانون الأول عام 1914، وقع الاختيار على غيبونز لإرساله جنوباً. وسرعان ما بدأ إرسال مقالات لاذعة عن تجهيز القوات الأمريكية السيئ (أسرجة للخيول بالية ورديئة كما لو أنها صُنعت من ورق)، وحَضَر أول معركة في حياته. وفي جوارز، قابل غيبونز شقيق بانتو فيلا، وكان آنذاك زعيماً ثورياً ناجحاً. كانت قد أثارت غضب فيلا قصصٌ كتبها بعض المراسلين الأمريكيين فأقسم بأن يقتل أول مراسل أمريكي يصادفه. وكان ذلك، بالنسبة إلى غيبونز بمثل روعة دعوةٍ مكتوبة بأحرف من ذهب. وعندما عرض شقيق فيلا أن يرتب لقاءً مع الزعيم في مكان ما من براري المكسيك، اغتنم غيبونز الفرصة وانطلق برفقة مرافق من الثوار. بعد ثلاثة أيام من الركوب المتواصل تلاها كمين نصبته القوات الحكومية، وقف ممثل شيكاغو تريبيون وجهاً لوجه مع فيلا. ومثلما توقّع غيبونز، وافق فيلا على مقابلته بدل أن يقتله. حاز غيبونز ثقة فيلا فسمح له الأخير بالبقاء في المعسكر مع الثوار، وكان برفقتهم عندما استولوا على مدينة تشيهواهوا. وهذه المدينة تحوي مصانع لمعدات السكك الحديدية، وكان فيلا في هذه الأثناء قد افتتن بغيبونز فأمر بصنع مقصورة خاصة به وإلحاقها بقطاره الخاص. على هذا النحو، وفي عربة كُتِب عليها بالإسبانية «المراسل الخاص لـ شيكاغو تريبيون» مزودة بطباخَين صينيين

ومترجم، ارتحل غيبونز في إثر الزعيم الثائر طوال أربعة أشهر أرسل في أثنائها مقالات وقصصاً اكتفت باقي الصحف الأمريكية بقراءتها وحسده.

جعلت هذه التجربة غيبونز الرجل الأهم في التريبيون، فغطى جولة ماير تومبسون في أنحاء البلاد، وأجرى لقاء مع الأنجيليكاني بيللي صنداي، وأنجز سيراً شخصية موجزة عن حياة أعضاء مجلس الشيوخ، وأجرى تحقيقاً في شائعات عن غارات بحرية يابانية على شواطئ كاليفورنيا (وذلك بأن عَمِل على متن قارب صيد)، وكتب عن زواج الرئيس ويلسون وشهر عسله، وكتب في عام 1916 عن الحملة العسكرية الأمريكية لأسْرِ بانشو فيلا. عام 1917، أعلمته الصحيفة أنه سيسافر إلى بريطانيا لتغطية الحرب العظمى، وكانت آنذاك لا تزال صراعاً أوروبياً، ولا تزال أمريكا قوة عالمية ناشئة، وقد ضمّت جماعات ضغط قوية انفصالية مؤيدة للألمان. بيد أن مزاج «الانتظار ومراقبة ما يدور» كان آخذاً في التّغَيّر، وكان في انتظار غيبونز دورٌ ليس بالقليل كي يلعبه. تلقى مهمته الجديدة في شباط، وقد ترافق ذلك مع تهديد ألماني بأنهم سوف يُغرقون دون سابق إنذار أي سفينة تسلك خطوط الملاحة في الأطلسي إلى الجزر البريطانية أو فرنسا. وبناء عليه، حجزت له صحيفته مكاناً على متن السفينة البخرية فريدريك الثامن، التي كانت تُقِلّ السفير الألماني في الولايات المتحدة العائد إلى الوطن، الكونت فون بيرستوف، الذي نال من تشويه السمعة ما نال. لم يُلقِ غيبونز بالاً لهذا الهراء الصبياني، بل تحرى عن أول قارب يغادر نيويورك، متحدياً التحذير الألماني، وحجز لنفسه مكاناً على متنه على أمل أن يحقق سبقاً صحفياً مثيراً. كانت سفينة تجارية تابعة لشركة كونارد لاينر تدعى لاكونيا، وعندما غادرت نيويورك بتاريخ 17 شباط، كان غيبونز في إحدى حجراتها، وربما كان الرجل الوحيد الذي يمخر عباب الأطلسي آملاً أن تُغرق سفينته.

تحقق له ما أراد بعد ثمانية أيام. فعلى بعد مئتي ميل عن الشواطئ الإيرلندية، استَهدفت غواصةٌ ألمانية لاكونيا بالطوربيدات، وغرقت ساعتها. صعد غيبونز ومعظم المسافرين على متن قوارب النجاة وانتشلتهم كاسحة ألغام بريطانية، وبعد أقل من يومين وصلوا بأمان إلى كوينزتاون في إيرلندا الشمالية. ومن هناك أرسل غيبونز تقريراً يقول في مطلعه:

استُهدفت السفينة لاكونيا التابعة لشركة كونارد، والبالغة حمولتها 18000 طن، وعلى متنها سبعة وثلاثون مسافراً بين رجال ونساء وأطفال من بينهم ستة مواطنين أمريكيين

– ويديرها فريق مختلط من مئتين وستة عشر بحاراً، والمتجهة من نيويورك إلى ليفربول محملة بمواد غذائية وقطن ومعدات حربية، استهدفتها مساء أمس ودون إنذار طوربيدات غواصة ألمانية قبالة الشواطئ الإيرلندية وغرقت في أربعين دقيقة.

ثم وصف ما جرى تلك الليلة: الضربةَ، (بينما كان يثرثر في غرفة التدخين «تمايلت السفينة فجأة على كلا الجانبين وإلى الأمام، وانبعثت ضجة مكتومة مثل باب كبير يُصفَق على مسافة بعيدة...»)، وغرقت السفينة 60 قدماً في البحر؛ وعمليةَ الإخلاء المنظمة على عكس التيتانيك؛ وسلوك المسافرين («واحدة وحسب من المسافرات أصابتها نوبة هستريا، الآنسة تيتسي سيكلوسي، ممثلة فرنسية بولندية»)؛ وتمايُلَ قارب النجاة بزاوية 45 درجة في أثناء إنزاله؛ والصرخةَ التي سمعها من الأعلى («... قفز رجل من السفينة ومرّ وراءنا واندفع في الماء على بعد ثلاثة أقدام من القارب...»)؛ وقبطانَ قارب الصيد الكهل الذي تولى قيادة القارب؛ وإصابةَ الطوربيد الثاني بعد نصف ساعة من إصابة الأول؛ والدقائقَ الأخيرة للسفينة («... خفتت أضواء السفينة وتحولت ببطء من اللون الأبيض إلى الأصفر فالأحمر... ولم يبقَ سوى الشكل العام لهيكل السفينة المعتم ينتصب فوق الماء مثل قطعة أرض محروثة تمتد داخل البحر، وقد صدرت عنه إنارة خافتة قبالة السماء الشاسعة»)؛ وغرقَها («غرقت السفينة بسرعة عند مؤخرتها حتى انتصب قيدومها في الهواء. ثم انزلقت بصمتٍ إلى الأسفل وتلاشت عن الأنظار تدريجياً مثل مشهد سينمائي...»)؛ والغواصةَ التي وقفت على مقربة من قارب النجاة رقم ثلاثة؛ والصوتَ الذي سأل بإنكليزية رطينة عن السفينة التي أغرقوها تواً؛ وكيف تفرقت قوارب النجاة خشية أن يصطدم واحدها بالآخر؛ والساعاتِ التي قضوها في التجديف ودوار البحر؛ والبردَ القارس، إلى أن لمحوا، بعد ست ساعات، ضوءاً في البعيد، كانت كاسحة ألغ م بريطانية ولم يلبثوا أن وصلوا إليهم.

امتدت إلينا أيادٍ كثيرة، وعلقنا بين الأذرع القوية الموشومة لأولئك البحارة البريطانيين الشجعان، نحملق إلى وجوههم الفتية التي لوحتها الشمس، ونغمغم بالحمد والشكر، ونقرأ على قبعاتهم المسطحة «هـ. م. إس. قوطيسوس».

تضمن تقريره رواية إيبل سيمان والي عن كيفية سحب موجة لامرأتين أمريكيتين إلى حتفهما، ونشرته جميع الصحف اليومية الأمريكية، وتُلي في مجلس النواب والشيوخ الأمريكيين، وبعد خمسة أسابيع، أعلنت أمريكا الحرب. وبتاريخ 8 حزيران، أبحر قائد قوات الطليعة، الجنرال بيرشنغ - معلومة غير مؤذية البتة، لولا أن الرقابة البريطانية منعت المراسلين من الإشارة إلى مكان نزوله. تصدى غيبونز لهذا التحدي، وأبرق إلى صحيفته: «نزل اليوم اللواء جون ج. بيرشنغ في مرفأ بريطاني واستقبله محافظ ليفربول». وطبعاً، مررتها الرقابة.

أواسط شهر حزيران، كان غيبونز في فرنسا وهو واحد من ثمانية عشر مراسلاً حربياً أمريكياً ملحقين بقوات الحملة الأمريكية. وسرعان ما أخذ يتأفف من القيود المفروضة على المراسلين، فقد رافقهم ضباط ومترجمون إلى مناطق معينة من الجبهة، وأُعطوا حرية التجول بقدر الحرية المعطاة لأطفال يذهبون في رحلة مع دار الحضانة. لذا، ولأنه غيبونز، فقد اختفى. لم يكن لدى زملائه، ومن بينهم ديمن رَنين من نيويورك أمريكان، أدنى فكرة عن مكان وجوده، وشُغلوا طوال أسابيع ستة بالتفكير فيما حلّ به في حين ينتظرون أن يؤخذوا إلى القصة التي تشوّقوا إليها: إطلاق أمريكا رصاصتها الأولى في الحرب. في آخر الأمر، وصلت أنباء تقول: إن البداية ستكون من المدفعية. فانطلق المراسلون بمرافقة مرشديهم ومعاونيهم، إضافة إلى المترجمين والمراقبين الذين تبعوهم، في رحلتهم إلى الخط الأمامي حيث سيقع الحدث العظيم. وفي طريقهم إلى هناك تبادلوا عبارات الأسف المزعوم لأن غيبونز -أينما كان- سيفوت القصة. لكن بعضهم كان آسفاً بالفعل. وعلى بعد خمسة أميال عن الجبهة خرج إليهم خفير فرنسي فأوقف قافلتهم ولم يسمح لها بالمرور. توقفوا إلى جانب الطريق وأشعلوا سجائرهم ووقفوا يراقبون في حين دوّى في البعيد صوت سرية من المدفعية الأمريكية. تطلّع رَنين إلى الأعلى وتراءى له أنه لمح شخصاً مألوفاً يجلس إلى جنب مدفع الميدان. فصاح قائلاً: «اللعنة. ها هو غيبونز! كيف وصل إلى هناك».

فكيف وصل غيبونز؟ قبل ستة أسابيع، توجه غيبونز حنوباً والتحق فعلياً بسرية مدفعية الميدان السادسة، فأصبح على الفور فرداً في فريق البطارية «A». قُدّر لغيبونز المميز أن يسلك هذا الفريق إلى جانب فِرَق البطاريات «B» و «C» و «D» هذا الدرب إلى موعدهم مع

التاريخ. وعندما أطلقت البطارية «C» قذيفة أمريكا الأولى، كان غيبونز حاضراً. فسجل الزمانَ (السادسة وخمس دقائق وعشر ثوان صباحاً يوم 23 تشرين الأول 1917)، والمكانَ (كيلومتر واحد شرق باتليمون)، وأسماءَ الفريق. بل واحتفظ بالمظروف الفارغ. ومرة أخرى، حجز غيبونز لنفسه الصفحة الأولى.

غير أن حُسن حظّه كان ليفارقه في مرحلة ما، وهذا ما حدث فعلاً في حزيران عام 1918. فقد حذّروه أن مرافقة سرية المارينز الخامسة في إحدى دورياتها في الغابة القريبة من لوسي -لو- بوكاج على مسافة أربعين ميلاً شمالي باريس محفوفة بالمخاطر، لكن هذا لم يثنه عن عزمه. وقد ثبتت صحة مخاوفهم. فبينما كان الرائد ينيامين إس. بيري ورجاله، يرافقهم غيبونز، يعبرون حقل قمح تعرضوا لنيران غزيرة من بنادق آلية. انبطح الجميع أرضاً، لكن بيري أصيب في يده، وهمّ غيبونز بالزحف نحوه. لكنه لم يذهب أبعد من ياردة أو اثنتين عندما أُصيب في ذراعه اليسرى بداية، ثم في كتفه الأيسر، وأخيراً، في المرة الثالثة والأخطر، عندما ارتدّت طلقة عن صخرة فاقتلعت عينه اليسرى وهشّمت جمجمته وخرجت من الجانب الأيمن من خوذته مخلفة فيه فجوة بعرض ثلاثة إنشات.

كانت الساعة آنذاك السادسة مساء، وبقي غيبونز ممدداً هناك ينزف بغزارة لكنه لم يفقد وعيه طوال الساعات الثلاث الآتية، إلى أن دمرت المدفعية الخفيفة الرشاشات الألمانية وأُخرج من المكان. نُقل غيبونز من وحدة الإسعاف الأولى إلى وحدة الإجلاء على مسافة عشرة أميال، ومن هناك، في صندوق شاحنة ذخيرة، إلى المستشفى العسكري الميداني رقم واحد حيث خضع لجراحة. في هذه الأثناء نُشرت على نطاق واسع في الولايات المتحدة القصة التي أرسلها قبل خروجه في الدورية. يقول في مستهلها: «أنا موجود على الجبهة وبرفقة المارينز الأمريكي أدخل غابة بيلو....»، وعلى الرغم من كشفها ماهية وحدة عسكرية بالاسم وموقعها، إلا أن الرقباء مرروا القصة؛ لأنهم ظنوا أن غيبونز يحتضر ومن الإجحاف إيقاف رسالته الإخبارية «الأخيرة». غير أن الجيش الثالث الذي يحارب إلى جانب المارينز دفاعاً عن باريس تمنى لو أنهم فعلوا. فقد أسهمت قصة غيبونز وما ولّدته من حماسة وتبصّر إسهاماً عظيماً في إيجاد الانطباع أن المارينز

وحدهم أنقذوا العاصمة الفرنسية، وولّدت، أكثر من أي مقالة صحفية أخرى، الانصياع أن هذه القوات هي القرين في القرن العشرين لـ فرقة انخيالة السابعة.

استرد غيبونز عافيته سريعاً وعاد مباشرة إلى الجبهة أواسط تموز، وقد غطى عينه بالرقعة البيضاء التي ستغدو جزءاً من أسطورته. بعد شهر واحد، منحه الفرنسيون وسام صليب الحرب واختير لإلقاء سلسلة من المحاضرات في الولايات المتحدة. عاد إلى نيويورك ليجد نفسه آخر مشاهير الحرب، حيث استقبله حرس شرف المارينز وتدافَع عدد كبير من الصحفيين للفوز بلقاء معه. وفي النهاية، استقبله الرئيس ويلسون، كما استقبله حشد كبير من الناس غصت بهم قاعة كارنيجي. عاد إلى باريس، وقد ازداد غروراً، ليدير الخبعة الخاصة بالجيش من شيكاغو تريبيون والقسم الأوروبي من مكتبٍ مجاور لمكتب هاري بـر.

والواقع أن وظيفته الجديدة وفقدانه إحدى عينيه لم يمنعاه من المراسلة. بل سافر إلى إيرلندا ليغطي قمع الشين فين (ويخدع ثانية الرقباء البريطانيين فيخرق الحظر الذي فرضوه على إجراء لقاءات مع سجناء جمهوريين). وفي عام 1920 قصد وارسو ليغطي الحرب البولندية الروسية. ولكي يصل إلى هناك، استأجر طياراً مع طائرته العتيقة، وأقلعا من باريس، في حين أمسك غيبونز بين قدميه خزان وقود احتياطي. لكن اختلطت عليهما قراءة البوصلة، فانتهى بهما المطاف بتحطّم طائرتهما عند سفوح جبال الألب. انطلق غيبونز عائداً إلى باريس، وأبرق إلى طائرة أخرى لكي توافيه، لكن هذه الأخيرة تحطمت أيضاً حين كانت تحطّ في الموعد المحدد. لم يثنه كل هذا عن عزمه، بل قاد سيارته على طول الطريق إلى الحدود البولندية، وهناك، وبعد أن علّق على زيّه القديمة أوسمته جميعاً (إضافة إلى بعض الأوسمة البرّاقة التي حصل عليها من سباقات الكلاب)، شقّ بالحيلة طريقه عبر الحرّاس، وتقدّم أمام رئيس أركان الجيش البولندي وطلب منه بفظاظة توفير مرافق عسكري. كان له ما أراد، وبقي المراسلَ الأجنبي الوحيد على الجبهة طوال سبعة وأربعين يوماً.

جاء أعظم انتصاراته عام 1921: المجاعة الروسية. ففي ذلك الصيف، تسربت شائعات خارج الدولة الروسية الفتية مفادها أن ملايينَ من الناس تتضور جوعاً في منطقة الفولغا. وكان التوثق من صحة هذه الشائعات أسهل على الصعيد النظري منه

على الصعيد العملي. ذلك أن الحكومة البلشفية لم تسمح للمراسلين الأجانب بالوجود في موسكو، وكانت تغطية الأخبار في أيدي المراسلين الذين تسكعوا خارج مطاعم مدينة ريغا، وتحدثوا إلى النازحين من روس بيض وشهود آخرين غير موثوقين. وبينما اكتسبت التقارير الموجزة عن هذه المجاعة المخيفة زخماً وقوة عظيمين، كذلك فعلت القصة في الولايات المتحدة. وفي أواسط آب تلقى غيبونز البرقية الآتية من شيكاغو: «احشد جميع المراسلين المتوافرين في روسيا، فهي اليوم القصة الأهم في العالم. لابد أن نحصل على أول تقرير حصري عَياني من مراسل موجود في موقع الحدث». أرسل غيبونز مراسلين اثنين انضما إلى المراسلين الآخرين الذين كانوا يحومون حول لاتفيا بانتظار السماح لهم بدخول روسيا. لم يسمح لهم السوفييت بالدخول، ذلك أنهم طمعوا بمعونة غذائية من الولايات المتحدة، لكنهم خافوا من افتضاح الحجم الحقيقي للمأساة. وبعد أسبوع كامل لمضاه مراسلا التريبيون دون التوصل إلى نتيجة، أبرقت الصحيفة من شيكاغو تطلب من غيبونز أن يتوجه بنفسه إلى ريغا، التي وصلها بعد يومين واعتُقِل مباشرة لدخولها دون تأشيرة. لكن رشوةً تكفلت بالأمر، وعندما أُطلق سراحه، عمل بنصيحة زميله جورج سلدز ووضع خطة تمكّنه من دخول روسيا. ففي حين تقدّم باقي الصحفيين بطلبات دخول رسمية، لم يفعل غيبونز وطلب من طياره الألماني البقاء على أهبة الاستعداد، وأشاع في المحادثات أنه يفكر في القيام برحلة جوية غير شرعية إلى روسيا. وبالطبع، علم المخبرون بالقصة واستُدعي غيبونز في اليوم الثاني لمقابلة ليتفينوف، السفير الروسي.

وَضَعَ ذلك الاجتماع أدهى عقلين في ريغا وجهاً إلى وجه. قال ليتفينوف إنه على علم بشأن طائرة غيبونز وحذّره من إسقاطها إن هو حاول عبور الحدود. لكن غيبونز لفت نظره إلى أن الحدود الروسية تمتد من البلطيق إلى البحر الأسود، وأن مضادات الطيران لا تغطي سوى قطاع صغير منها. بعدئذ هدّده ليتفينوف أن يعتقله، فأجابه غيبونز أن السوفييت أطلقوا أخيراً سراح جميع السجناء الأمريكيين لديهم؛ كي يضمنوا الحصول على المعونة الغذائية، وأنه من المستبعد أن يشرعوا في اعتقال الأمريكيين ثانية. أُسقط في يد ليتفينوف. وفي حين كان باقي الصحفيين مشغولين بالتوافه في ريغا تلك الليلة، استقلّ غيبونز قطاراً إلى موسكو برفقة ليتفينوف، وبعد أيام قليلة قضاها في العاصمة، استقل قطاراً آخر إلى

الفولغا. استغرقت رحلته أربعين ساعة، غير أن المشهد الذي استقبله هناك كان مشهد موت من القرون الوسطى، كما لو أن رحلته تلك كانت عودة في الزمن إلى الوراء. فقد كانت الرائحة النتنة تبعث على الغثيان عندما ترجل من عربته، وكان خطر الكوليرا أو التيفوس محدقاً، ما اضطره إلى العمل وقد غطى وجهه بمنديل مغموس بالمواد المعقّمة. يتضمن تقريره واحدة من الصور الخالدة في وصف الكوارث:

> طفل في الثانية عشرة له وجه رجل في الستين يحمل رضيعاً في شهره السادس متدثراً بفراء قذر. وَضَع الرضيع تحت مقصورة شحن وزحف وراءه ثم أخرج من جيبه بيض رؤوس السمك الجافة وشرع يلوكها بنهم شديد ومن ثم، بعد أن قرّب فاه الرضيع من فِيه، زقّ المعجون الأبيض اللزج المؤلف من رؤوس السمك وعظامها مبللاً بالريق في فم الرضيع مثل أنثى من الطير تزقّ صغارها.

كانت كتابة هذه المقالة مسألةً وإخراجُها مسألةً أخرى تماماً. ذلك أن غيبونز عندما قصد محطة التلغراف المحلية وجد أن لوحة المفاتيح المستعملة لبثّ الرسائل لا تحتوي، بطبيعة الحال، سوى أحرف سلافية، ما اضطره إلى إعادة كتابة تقريره، مستبدلاً بكل حرف لاتيني مكافئَه المحلي. إذن، وبهذه اللغة الهجينة، أرسل غيبونز تقريره إلى موسكو التي وصلها في هذه الأثناء سلدز فترجمه وأرسله إلى صحيفة شيكاغو. فكان أول تقرير عن المجاعة من مصدر غير روسي.

في شباط عام 1923 كُلّف غيبونز بمهمة مستحيلة أخرى، إنما من نوع مختلف تماماً، النوع الذي يسيء بطبيعته إلى المراسل الحربي أو المراسل المختص بالكوارث من حيث الجدية العالية التي يجب أن يتحلى بها. كانت مهمة جريئة، والأسوأ من ذلك أنها تمسّ هوليوود. قالت البرقية الواردة من شيكاغو إلى غيبونز:

> نظّم قافلة جمال وجهّزها؛ لتعبر الصحراء الكبرى، ولتحصل على مقابلات وصور حقيقية لشيوخ تغريهم النساء الأنجلوسكسونيات والأمريكيات. ذلك أن كتاب السيدة هولز يوجِد اهتماماً واسعاً بين النساء هنا، شأنه شأن الدور الذي يلعبه رودولف فالنتينو في الفيلم. أعلمنا بموعد رحيلك.

من المستبعد اليوم أن يُطلب من مراسلي الخطوط الأمامية القيام بمهمة من هذا القبيل، أما آنذاك فكانت الأوضاع مختلفة، فضلاً على أن المراسل هو غيبونز وليس أي مراسل آخر. انصبَّ اهتمام غيبونز جميعه على المشروع، وعَمِل على وضع الخطط المناسبة لاجتياز مسافة الألفي ميل من الصحراء الكبرى بنصف الوقت المعتاد الذي تتطلبه الرحلة. وفي أواخر شهر آذار انطلق من كولومب بيشار في الجزائر وقد ارتدى حلة الشيخ، وفي إثره قافلة كاملة التجهيز. غير أن رحلته لم تكن نزهة كما تُصوّرها المشاهد الخلفية في الفيلم، بل كانت عواصف رملية وقطّاع طرق ودرجات حرارة تبلغ 145 درجة مئوية وأسابيع من انقطاع الاتصال بالعالم الخارجي والضياع في الصحراء ثلاثة أيام في أثناء محاولة العثور على البئر الوحيدة على مسافة خمس مئة ميل، فضلاً على التهاب إصبع قدم طباخه التهاباً شديداً ما اضطر غيبونز إلى قطعها. وفي الأول من تموز، بعد ثلاثة أشهر وخمسة أيام على بدء رحلته، حطّ غيبونز ورفاقه الرحال في تومبوكتو. كانت رحلته هذه انتصاراً شخصياً له، لكنها كانت مخيبة آمال محرريه. فقد فشل، بعد كل شيء، في العثور على شيخ واحد أسمر البشرة شبيه بفالنتينو ممن يخطفون الشقراوات على حمالهم ويفرون تحت جنح الليل.

وفوق هذا كله، أبحر غيبونز في زورق مسافة 800 ميل في نهر النيجر، واستكشف شاطئ إفريقيا الغربي وصولاً إلى كيب تاون، ثم عاد إلى باريس مروراً بلندن، ومنها إلى روما ليغطي انتخاب كاردينال أمريكي، وليعود إلى الولايات المتحدة المرة الأولى منذ خمسة أعوام. لم يمكث فيها سوى ثلاثة أسابيع حيث أرسلته الصحيفة إلى أستراليا كي يكتب عن حكومتها العمالية، فأجرى لقاء مع دايم نيللي مِلبا، واختتم جولته بتقارير من نيوزلندا وغينيا الجديدة وسنغافورة والصين وسيبيريا. وبعد أسبوعين وحسب قضاهما في باريس، انطلق ليغطي الحرب في المغرب. وبدأ بعد عودته من هذه الحرب بالظهور عبر الإذاعة، وبعد وقت قصير من ذلك أخذ يلقي محاضرات منتظمة بوصفه «صياد العناوين الرئيسة»، لقبٌ لاريب أنه بدا أقل إزعاجاً آنذاك مما هو عليه الآن. ولأنه غيبونز، لم يكتف بقراءة المادة الإذاعية مثل أي مذيع آخر، بل كانت علامته الفارقة قدرته على القراءة أسرع من أي صوت إذاعي آخر، فقد سُجِّل عنه أنه قرأ ذات مرة 217 كلمة في دقيقة واحدة. لكن العدد

الأكبر من المستمعين فهموا كلامه السريع المتلاحق، ولم يلبث أن صار يتلقى آلاف الرسائل من المعجبين يومياً.

عام 1930 فضّ غيبونز إلى غير رجعة شراكته مع تريبيون. لذا، وعندما لاحت في الأفق الحرب بين الصين واليابان، توجه غيبونز إلى منشوريا عبر طوكيو لحساب خدمة الأخبار الدولية. وهناك قابل ضباطاً يابانيين قادة قدّموا له آنية زهور مزخرفة هدية وسألوه، كما درجت العادة عندهم آنذاك، أن يوقّع إيصالاً باستلامها. وكعادته، رفض غيبونز تلقائياً أن يقوم بما يقتضيه البروتوكول، واصطحب الإيصال معه إلى السفارة الأمريكية، حيث أخبره أحد المترجمين أن الإيصال هو، في حقيقة الأمر، موافقة على التجسس لحساب اليابانيين. تشبّث غيبونز بموقفه وطار ليغطي الحرب من كلا الجانبين، وكان الأمر الأكثر إثارة بالنسبة إلى المراسل العتيق مشاهدةُ الطائرات اليابانية تقصف شنغهاي من على سطح فندقه. عاد بعدئذ إلى الولايات المتحدة ليقوم بجولة متواصلة من البرامج الإذاعية والمحاضرات وتغطية الأخبار الرئيسة، مثل المؤتمرات الحزبية لمصلحة الإذاعة وخدمة الأخبار الدولية في آن معاً.

لا يمكن لأزمة قلبية أن تثنيه عن العمل. والحق أنه عانى أزمة قلبية في أثناء إجازة في كانون الثاني، غير أنه قَبِل بعد عام واحد عرضاً من خدمة الأخبار الدولية لتغطية الحملة الإيطالية في إثيوبيا. وكما هو متوقع، كان غيبونز أول الواصلين إلى الجبهة، أرسل تقاريره، طوال أشهر عدّة، من قاعدته الواقعة على ارتفاع 8000 قدم حيث بلغت درجة الحرارة 135 درجة نهاراً وانخفضت إلى 50 درجة ليلاً. لم يكن هذ بالمكان المناسب لرجل في الثامنة والأربعين يعاني أزمة قلبية، ومن ثم انهار في أثناء البث وتعين نقله إلى الخرطوم بالطائرة. أمضى مدة نقاهته في القاهرة، وبعد خمسة أيام وحسب على بدئها أخذ التوق إلى الأخبار ينهشه، فانتقل إلى القدس وعمل طوال أسبوعين على تغطية العداء المتنامي بين العرب واليهود. وفي طريق عودته إلى الولايات المتحدة، توقف بعض الوقت في روما حيث أجرى لقاء مع موسوليني. وبعد نحو ستة أشهر أبحر إلى إسبانيا ليغطي الحرب الأهلية، وهي الحرب التاسعة التي يغطيها بوصفه مراسلاً. غطى غيبونز هذه الحرب من كلا الجانبين، ولم يكن

ذلك عملاً خالياً من المخاطر. لكن، في إسبانيا ذلك الزمان، كان كل أسلوب تقريباً من أساليب السؤال أو التعبير الحر عن الرأي قاتلاً على الأرجح، الأمر الذي اكتشفه غيبونز عندما دلف إلى الأستوديو ليجد فيه اثني عشر جندياً موالياً للحكومة ليسوا مسلحين وحسب بحراب مشرعة وإنما أيضاً بأوامر لرميه بالرصاص إذا ما تفوّه بأي شيء ضد الجمهورية الإسبانية. ولم تخفف من توتره حقيقة أن أحداً منهم لا يتكلم الإنكليزية.

نجا من تلك الحادثة وأبحر عائداً إلى الوطن حيث شرع أخيراً في إنفاق الثروة العظيمة التي جمعها، فابتاع مزرعتين وبختاً. وفي الوطن، بعد ما يزيد بقليل على عامين، وفي السرير ذاته الذي أبصر فيه النور، فارق غيبونز الحياة بسبب أزمة قلبية في سن الثانية والخمسين.

على هذا النحو انتهت حياة أعظم سعاة القصص. يبدو غيبونز، بقساوته الظاهرية وانعدام ثقته بالجميع تقريباً وحساسيته العالية لما فيه خيره الخاص، رجلاً الإعجابُ به عن بُعد أسهل من معرفته عن كثب. لكن ثمة غيبونز آخر لم يغيّبه قط سعيه الحثيث وراء الأخبار، يَظهر أحسن ما يظهر في القصة التي كتبها من قرية سان تيبول في عيد الميلاد عام 1917. فهنا، حاء موسم الأعياد وثمة سبعون طفلاً قضى آباؤهم وأشقاؤهم وأعمامهم وأخوالهم نحبهم أو كفوا بعيدين على الجبهة. وبحسب العادة المحلية في موسم الأعياد، وضع هؤلاء الأطفال جزماتهم وأحذيتهم على مصطلى مدافئهم، غير أن الكبار عرفوا أن الأمل ضعيف في أن يملأها بابا نويل لهم بالهدايا. إلى أن قرر الفوج الأمريكي الموجود في القرية التخطيط سراً لاحتفال بعيد الميلاد. جمعت حملة التبرعات ألفاً وثلاث مئة فرنك وجرى شراء الهدايا، وأُلبِس «رِدّ باورز»، وهو «أقصر وأسمن رجل في الفوج» مثل بابا نويل وجرّ هندنبرغ، «أقوى بغل بين بغال الجرّ»، عربة الجليد، وعزفت فرقة الفوج الموسيقا، وانطلق الاستعراض ليسحب الأولاد المتحمسين من بيوتهم إلى كنيسة القرية. هنا، وفي احتفال جعله غياب الرجال عاطفياً ومؤثراً، نودي على الأطفال بالاسم؛ كي يتقدموا ويحصلوا على هداياهم.

وجاء جميع الأطفال، إلا طفلاً واحداً – الصغير بيير لافيت الذي، في محاولة لتحسين فرصته مع بابا نويل، استعار في وقت سابق جزمة تصل حتى الورك من موريرتي، وهو

أطول رجل في الفوج. نودي بالاسم على كل طفل آخر، لا مرة واحدة وحسب، بل أربع، حتى خمس مرات، وصارت كومة الهدايا على الطاولة أصغر شيئاً فشيئاً، بينما كان الطفل لا يزال قاعداً وجزمته فارغة. وفي آخر الأمر، نودي على بيير وجرّ الجزمة المطاطية الكبيرة على طول الممشى.

...راقب جميع الكبار في الكنيسة خطاه بينما تقدّم.

«لأجل بيير لافيت» كرر ثانية م. لاكومب، في حين رفع عالياً الجزمة الكبيرة، «حذاء جلدي حقيقي على مقاس القدم في الجزمة». ووضَعَه هناك.

«وساقان خشبيتان تناسبان ساق الجزمة». ووضعهما هناك.

«وطقم من الجنود، أربع وعشرون بالعدد، ومعهم جنرال قائد»، وضعهم إلى جانب الساقين في الجزمة.

«وزوج من القفازات وقلنسوة» فوق الجنود.

«وكرة قاعدة ومضرب» فوق القفازات.

«وملء كل الفراغ الباقي بالمكسرات والتين والسكاكر». جيد، بيير؟

وبهذه الكلمات، صبّ السكاكر بكمية كبيرة في أكبر جزمة في الفوج.

وسط تهليل الرجال، وفي مقدمتهم بيغ موريرتي. قصد بيير مقعده، باذلاً جهده في جرّ الجزمة الثقيلة وما فيها من غنائم بالجملة، وقد سرَّه إدراكه أنه حصّل في فردٍ واحد من الجزمة خمسة أضعاف ما حصله رفاقه.

غنّى رباعي الفوج أغنية «نزولاً في المدخنة»، وانطلق الجميع إلى الشارع، في حين عزفت الفرقة خارج الكنيسة. كانت الشمس قد غربت، وأرخى الليل الشتوي لمبكر عتمته وأظلمت السماء.

قصة مؤثرة فعلاً، زاد من جمالها أنها رويت دون عزف مصطنع على نياط القلب أو إضافة مسحات رومانسية في الخلفية. ومع ذلك، استغرب غيبونز أن تكون القصة الأكثر اقتباساً في

كتب المقتطفات الأدبية من بين آلاف القصص التي كتبها -عن الجرائم والمعارك والمجاعات والقصف، وعن الأحداث الكبرى، والتقارير التي غيرت مزاج عصره- هي قصة الصفير بيير لافيت وجزمته المستعارة.

obeikandl.com

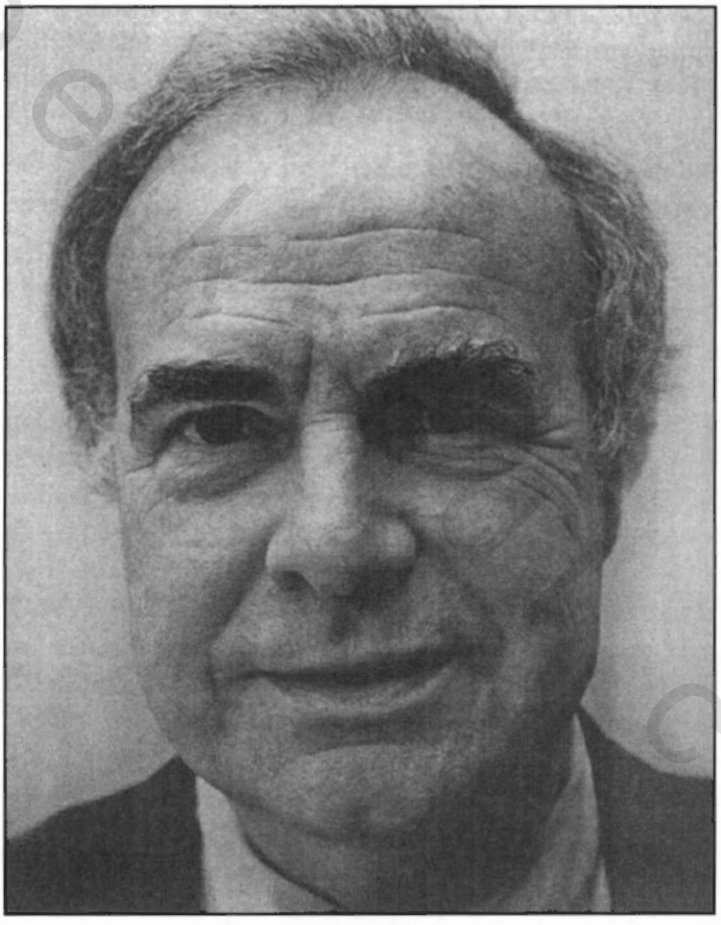

هيو مكلفاني

10

هيو مكلفاني

1934 -

أفضل كاتب استعمل الكلمات في الصحافة

أحد الأمور التي تبعث فيَّ إحساساً بالرضى هو أنني عملت عن قرب بعض الوقت، في أواخر عشرينياتي ومطلع ثلاثينياتي، مع ظاهرة حقيقية في مهنة الصحافة ولم أُدرك ذلك قطّ. كنت أُدرك آنذاك أن هذا الرجل متميز، وأنه الأفضل بما لا يقاس على هذا الجانب من الأطلسي، لكني لم أقدّر مدى تميزه إلا عندما شرعت في دراسة من مجّدهم الآخرون بوصفهم الأعظم وانغمست في القراءة التي يتطلبها إنجاز هذا الكتاب. عندها أدركت أن هيو مكلفاني هو بلا شك أفضل من كتب للصحافة.

وكما هو متوقع من صحفي بارع بهذا القدر، لم يكن مكلفاني من الصحفيين الذين تتطلب المحافظة عليهم جهداً واهتماماً قليلين، سواء من حيث المرتب الذي يتقاضاه أو الحريةِ والمساحةِ الممنوحتين له، أم من حيث القلق العظيم الذي عبرّ عنه محرروه حول هل سيرسل المادة للنشر في الموعد المحدد، أم حتى، في بعض المناسبات، مكان وجوده بالضبط. لكن إن وصل مكلفاني وفي جعبته مقالته، وهو ما فعله دوماً بالتوقيت الدقيق وبعنصر المفاجأة اللذين عُرِفا عن الخيالة السابعة، أثبت أنه جدير بذلك كله. فقد كان بمقدوره أن يرتجل على الهاتف عرضاً مطولاً لحدث رئيس، تجد فيه الإبداع والوضوح والتروي كما لو أنه استغرق وقتاً طويلاً في كتابته. كانت مقالاته مدروسة على نحو جدّي، حملت كل جملة فيها، كما أصرّ على الدوام، «شحنة» ما. وحملت كتاباته ظُرْفاً و خفة ظل عظيمين، بيد أنه لم يكن قطّ، مثلما قال، ذاك الكاتب الذي «يطرق الدروب الفرعية لا لشيء سوى ليدسّ فكاهة في صندوق رسائلك». لكن تمكُّنه من اللغة و مقدرته على

التعامل معها هو ما جعله، أكثر من ذلك كله، بالغ التميز، وكان ذلك أوضح ما يكون عندما يعلّق على موضوع ما على الهاتف. ولأولئك غير المطلعين على عمله، هاهنا عينة صغيرة عن مكلفاني يعلّق على:

- الطقس السيئ في حلبة آير للسباقات: «بدت الريح كأنها تكشط لحمك عن عظمك وتعود لتسلب نقي عظامك».
- المدير الفني لفريق ليفربول كيني دالغليش الذي اشتهر بتحفظه على الإدلاء بالتصريحات: «يوم يُطلق تصريحاً إشكالياً، سوف تصطف الحجارة لتبرع بالدم».
- وطنه الأم إسكتلندا عندما خرجت من منافسات بطولة كأس العالم: «قُدّر عليها ألا تكون أكثر من ملهى ليلي يقدم راقصين بسراويل إسكتلندية في نهائيات كأس العالم».
- الفارس بيل ويليامسون: «الذي تبدو ضحكته أحياناً مثل ضحكة رجل يحاول أن ينتزع كبسولة سيانيد بين أسنانه».
- القدّ البالغ النحافة لبطل السنوكر ستيفن هندري: «لم يسبق قطّ أن كان أحد المدعوين إلى مآدب العشاء بحاجة ماسة إلى العشاء بهذا القدر».
- اللكمة التي هزم بها جورج فورمان أحد منافسيه: «جاءت اللكمة التي أطاحت بـ تيري أندرسون بالترانزيت السريع...».
- الملاكم جوي بنغر: «بنيته بنية تمثال إغريقي، لكنه أقل حركة».
- هدف في الدقيقة الأخيرة هَزَمَ إسكتلندا في بطولة دولية للركبي: «إن كان لأمّة بأسرها أن تُركل بين ساقيها، فإن الركلة الأخيرة من قدم جون كالارد فعلت ذلك في ملعب موراي».
- نزال في الملاكمة تعمّد جمع ملاكمَين متفاوتَين في المستوى: «قُصِد بهذا التنافس إظهار التفاوت بين رجل مدرّب على عرض عسكري ورجل من عامة الناس».

- نتيجة هذا النزال: «دام تجسيد ماك نيللي لشخصية درويش راغب في الموت 89 ثانية فقط عندما وضع حدّاً له تدخل غير قانوني من مدير أعماله، الذي وجد أن شجاعته داخل الحلبة كانت أقل مما أظهره عند توقيع العقد».
- وعلى كل مشجع تذمّر بعد النزال: «مثل رجل يبكي انعدام الحب الحقيقي في أحد المواخير».
- مباراة سيئة و محبِطة في كرة القدم بين إنكلترا و إيرلندا: «وصل فريقنا إلى كأس العالم مثل شخص يصل إلى حفل سيمفوني على لوح تزلج حاملاً قارئ أقراص مضغوطة أو مسجّلاً يصمّ صوته الآذان».
- فريق ريال مدريد و نجومه: «تبدو احتمالات بقاء المدير الفني محتفظاً بسلطته وسط النجوم الذين تغص بهم غرفة تبديل الملابس مساوية لاحتمال فخذ من لحم الضأن في حوض يعج بأسماك البيرانا».

يعلم الذين يعرفون مكلفاني أن تعليقاته هذه كانت جزءاً من الكتابة التي جاءته عفو الخاطر، ذلك أنه لم يتعمّد كتابتها لأجل الصحافة، بل كانت تلك طريقته في الحديث. ولم يكن استخدام اللغة بهذا الأسلوب أمراً تدرّب على القيام به، وإنما صفة لازمته منذ نعومة أظفاره. أبصر مكلفاني النور في كليمارنوك، إسكتلندا، عام 1934 و شبّ في مكان يدعوه البريطانيون جمعية سكنية و يدعوه الأمريكيون مشروعاً إسكانياً. قد يستغرب بعضهم أن يخرج رجل يكتب بمثل هذه البراعة(حاله في ذلك حال شقيقه الروائي ويليام) من أسرة عامل منجم وامرأة تركت المدرسة في مرحلة مبكرة جداً، لم يتسنّ فيها لمعلماتها أن يحفظن اسمها. لكن احتمال أن يولد الكتّاب والفنانون العظماء على قارعة الطريق أكبر من احتمال أن يولدوا في المقصورات الفخمة، كما في حالة مكلفاني، فقد عوضت والدته، التي كانت مخزناً عظيماً للقصص الذكية والكتب، افتقارَ المنزل إلى مكتبة غنية ومتنوعة. وعلى الرغم من قساوة الحياة في غرب إسكتلندا آنذاك، إلا أن احترام العلم كان في صلب ثقافة الطبقة العاملة. وهو ما أوضحه مكلفاني في مقابلة مع مراسل الأوبزرفر، كيفن ميتشل، لأجل أرشيف الصحيفة عام 2002:

يولي الناس اهتمامهم لأولئك الجلف في تلك الورش الصعبة، لكن تأثرهم بشعص من هناك يتحدث حديثاً منطقياً يكون أعظم بما لا يقاس ... لقد نشأتُ بين أناس فهموا بحق أن اللغة جزء لا يتجزأ من الحياة اليومية.

تَرَك مكلفاني المدرسة في سن السادسة عشرة وعمل لحساب كليمارنوك ستاندرد، ثم انتقل إلى كبرى الصحف وأقدمها في بلاده، الـ سكوتمان. وهناك كتب أخباراً ومقالات قصيرة إلى أن طلب إليه محرّره أليستاير دَنيت، عام 1960، أن يبدأ بتغطية أخبار الرياضة، وأقدَم على مغامرة محسوبة عندما أعطى لهذا الكاتب الشاب الواعد نسخة من ذي سويت ساينس، مجموعة من مقالات أ. ج. لايبلنغ عن الملاكمة. تلاشى التردد الذي أحسه مكلفاني بداية، وإذ به الرجل المؤتمن على تغطية الأحداث المهمة. كان أول حدث كبير يغطيه هو نهائي كأس الأمم الأوروبية بين ريال مدريد وإنتراخت فرانكفورت في غلاسكو. فاز ريال مدريد 7-3 في مباراة حماسية كانت ستُربك كاتباً يعمل لحساب مجلة شهرية، فضلاً على كاتب مثل مكلفاني انهمك بإعداد «تعليق إخباري مفصل»، مقالة تصف بالتفصيل مجريات المباراة تُكتَب و تُرسل إلى النشر في حين تدور أحداث المباراة (على سبيل المثال، 400 كلمة بين الشوطين، 350 كلمة بعد انقضاء ثلاثة أرباع الوقت، و«مقدمة» و -إن حالفك الحظ- خاتمة من 250 كلمة). استهل مكلفاني تقريره:

حالف الحظ ليلة أمس قرابة 13000 من مشجعي كرة القدم الإسكتلنديين برؤية لاعبي ريال مدريد، حيث أبرزوا مواهبهم الاستثنائية التي جعلتهم أعظم نادٍ في تاريخ كرة القدم

بدا شغلُهم بالفوز بالكأس الأوروبية المرة الخامسة على التوالي حقيقةً حتمية وعَرَضية بالمثل، في واحد من أروع العروض الفنية الرياضية التي لم يشهدها ملعب هامبدن بارك قطّ.

وفي المقابل، استجاب ملعب غلاسكو العظيم بأعلى هتاف وأطوله صدر عنه من أجل رياضيين غير إسكتلنديين. وكانت الحماسة الغريبة، التي طغت على الجماهير الغفيرة عندما طاف فريق ريال مدريد الفائز بالملعب وهم يحملون الكأس التي احتكروها منذ انطلاقها، قد بيّنت أن تسليتهم لم تكن بالأمر الهين. لقد أثّرت فيهم وحركت مشاعرهم تجربةُ حضور مباراة لُعِبَت حتى حدودها القصوى.

كان مكلفاني في السادسة و العشرين آنذاك. لم يبين تقريره هذا ما غدا لاحقاً فرادته وحسب، بل: طلاقته اللغوية واستحضاره العبارة المميزة («...أن نعدد أسماء لاعبي ريال مدريد يعني أن نؤرخ للعَظَمة...»)، وإنما بينَّ أيضاً مقدرته النادرة على الاحتفاء بخصوصية ما يشاهده. ولقد كان حُكمه الذي أطلقه عفو الخاطر أن المباراة بلغت حدود الكمال حُكماً دقيقاً كل الدّقة. إذ لا يزال المدربون حتى اليوم، وبعد مرور قرابة خمسين عاماً، يعرضون للاعبيهم الشباب المتحمسين فيلماً عن تلك المباراة على أمل أن تنتقل إليهم عدوى حماستها.

قرّر مكلفاني بعد عامين أن يقوم بمحاولة للانتقال إلى لندن. وكما قال لـ ميتشل في مقابلة عام 2000:

> استمعت إلى زملاء كثر في إسكتلندا وهم يحكون عن سهولة اقتحام المشهد الصحفي في لندن، وأن الأمر وحسب هو أن المكان لم يرقهم. لم أشأ أن أتحدث على هذا النحو بعد عشرة أعوام أو خمسة عشر عاماً، لذا كتبت بعض الرسائل.

حاء أكثر الردود تشجيعاً من الـ أوبزرفر، أقدم صحيفة تصدر يوم الأحد في بريطانيا، وقصد مكلفاني لندن ليجري المقابلة. كان أول سؤال طرحته على الـ أوبزرفر هو: «أين يمكن أن أحلق ذقني؟»، لقد نسي إحضار شفرة حلاقة، ولم تكن هذه آخر مرة يظهر فيها فجأة إهمال هذه الناحية الثانوية أو تلك من نواحي الحياة العملية. لكن الصحيفة غضّت الطرف عن هذا، ثم إن مقالاته أعجبتها فقدّمت له وظيفةً.

لم تكن وظيفة كتابية، بل كانت مساعداً لمحرر الرياضة كليفورد ماكينز، رجل من خلفية استثنائية حتى بالمعايير البوهيمية لـ أوبزرفر. كان ماكينز مدير مسرح سابق انتقل إلى تأليف سلسلة من الرسوم المصورة عن حياة السير ونستون تشرشل، وأشرف على تحرير إيغل: مجلة مصورة رائدة للفتيان، وعلى تحرير بعض الكتب مثل كتاب الفتيات السنوي عام 1962. وعندما عُيّن محرراً للرياضة في الـ أوبزرفر، عُرف بتفوقه على الجميع في احتساء الشراب في أثناء استراحة الغداء في حانة الـ فينو الشهيرة في شارع فليت، وكان، كما وصفه قلم زميله كريستوفر وودزوورث، «أسطورة حقيقية في استراحة الغداء». فضلاً على هذا كله، كان ماكينز غراً نسبياً فيما يتعلق بالنتاج

الصحفي، غير أنه تحلى، على أي حال، بنظرة لا تخطئ في اكتشاف موهبة الكتابة. لذا، وعندما بدأ الشاب مكلفاني، بعد قرابة أسبوع، يشعر بالملل من التعامل مع التعقيدات التي ينطوي عليها ترتيب المواد الصحفية في صحيفة يوم الأحد، لم يمنعه ماكينز من كتابة أولى مقالاته الصحفية. تلتها مقالة ثانية في تشرين الثاني عام 1962، وكانت عن ملاكم يدعى فونسي لاساغا جرى إحضاره من نيوفاوندلاند ليكون ضحيةً لملاكم بريطاني صاعد من الوزن الثقيل يُدعى بيللي ووكر. قصد مكلفاني النزال ووصَف كيف أن لاساغا «قوّس الحبال وانبطح مباشرة بعد ذلك». وعندئذ سأل ماكينز وبعض العملاء في الصحيفة أنفسهم لَم لا يكتب هذا الإسكتلندي المزيد للصحيفة، وبعد مدة وجيزة، أُعتق مكلفاني إلى الأبد من العمل المكتبي.

كان عالم المراسلة الرياضية في صحيفة وطنية، هذا العالم الذي دخله مكلفاني في الـ أوبزرفر، مختلفاً عن ذاك الذي خَبُرَه أقرانه الأمريكيون (أُعجب مكلفاني بالمتميزين منهم أيما إعجاب). فقد تعين عليه أن يكتب بثقة في مجال أوسع من الرياضات: كرة القدم وسباقات الخيول والغولف واتحاد الركبي ودوري الركبي والكريكيت والملاكمة وألعاب القوى وكرة القاعدة وكرة القدم الأمريكية والسنوكر، وأي رياضة من الرياضات الأخرى، مثل التجديف، يمكن أن يُحرز فيها بريطاني ميدالية أولمبية فجأة. لم يكن رهابه من ركوب البحر خياراً، حاله في ذلك حال أقرانه الأمريكيين في بوسطن ونيويورك. لكن التشابه بين تجربة مكلفاني في الستينيات والسبعينيات مع التجربة الأمريكية، واختلافها عن تجربة المراسلين البريطانيين اليوم، كان يكمن في سهولة الوصول إلى مشاهير الرياضة التي تمتع بها من يكتبون لصحف رائدة. إذ لم يكن اللقاء مع المشاهير وقضاء وقت مميز برفقتهم أمراً ممكناً وحسب، بل كان أمراً اعتيادياً لدى مراسل بمثل حماسة مكلفاني للقيام بالمهمة شخصياً لا على الهاتف أو بواسطة سجلات أرقامهم القياسية. قضى برفقتهم ساعات طوال، كما في حالة لاعبي كرة القدم أمثال جورج بِست وبَدي كريراند وتشارلي كِوك، والمديرين الفنيين مثل: بيل شانكلي ومات بِسبي، وكانت النتيجة أنه عرفهم معرفة حقة بدل الاكتفاء بإمطارهم بالأسئلة في مؤتمر صحفي. نسوق هنا بعض الأمثلة، يتضمن ونها تلك الليلة في أيار عام 1967، عندما بات فريق سيلتيك، بقيادة مدربه جوك ستين، أول

فريق كرة قدم بريطاني يفوز بالكأس الأوروبية. فبعد تحضيره المشهدَ («اليوم عاد لشبونة تقريباً، ليس تماماً، بأيدي البرتغاليين في نهاية أعظم احتلال هستيري مفعم بالحيوية عرفته مدينة على الإطلاق...»)، يصف مكلفاني المباراة، و يختتم بما يأتي:

....شقّ على ستّين الاحتفاظ بمظهره الهادئ وفَرَض في النهاية المجهود الذي بذله للاحتفاظ برباطة جأشه ضريبته عليه عندما اندفع إلى غرفة الملابس قبل دقيقة واحدة من نهاية المباراة، غير قادر على احتمال المزيد. وعندما لحقنا به إلى هناك، وجدناه يغمغم: «يا له من أداء». تركنا الأمر لـ بيللي شانكلي، المدير الإسكتلندي لفريق ليفربول (والمدير الإنكليزي الوحيد الحاضر) ليزودنا بالتعليق الذي يلخص كل شيء. قال شانكلي بوقار رجلٍ يعدّ كرة القدم دينه: «جون، لقد خلّدك التاريخ».

لكن الدخول إلى غرف الملابس لم يولد دوماً مثل هذه الذكريات الدافئة. أحد المشاهد التي يُعدها مكلفاني من أكثر مشاهد الرياضة إثارة للحزن هو المشهد بعد أن هزم هنري كوبر عام 1970 جاك بودل، ملاكم من ريف ديربي شاير زادت تصرفاته الخرقاء الريفية سوءاً، بدل أن تقلّ، مع اقترابه من النجومية:

بعد نصف ساعة على نهاية النزال، وبينما كان كوبر وبقيتنا نستعد لمغادرة غرفة الملابس الأخرى في الرواق، ظهر بودل فجأة في رداء الملاكمة خاصته وارتمى على أحد الكراسي في الغرفة الصغيرة القبيحة قرب الباب مباشرة. حمل زجاجتي شراب وبدا واضحاً أنه في مزاج طيب للحديث. كان من المستحيل ألا نحس بالعطف تجاه هذا الرجل الضخم الودود الصافي السريرة. بدت السخرية في تلك اللحظة الغريبة الغبية منه عملاً وحشياً حقيقةً. ترددنا جميعاً إذ أحسسنا أنه في حاجة إلى الرفقة، بيد أن كوبر كان يستضيف حفلة، لذا اندفعنا خارجاً ونحن نغمغم بعبارات ملاطفة لا تفي بالغرض، تاركين الخاسر وحيداً في غرفة ملابس الفائز.

غدا بعضهم ممن تمتعوا بهذه العلاقة الطيبة بالرياضيين أكثر قليلاً من وكلاء دعاية جوّالين وغير مدفوعي الأجر، ولعبوا دوراً شاقاً ومهيناً من التزلف. لكن على الرغم من ولعه بالتقرب من هؤلاء الأبطال، إلا أن هذا لم يكن قط أسلوب مكلفاني. بل لقد وجد عدد كبير

من أساطير الرياضة أن ميله إلى أن يكون له القول الفصل لم يكن مقتصراً على مقالاته يوم الأحد. و كان أحد هؤلاء السير آلف رمزي الذي قاد إنكلترا إلى الفوز بكأس العالم عام 1966. ففي إحدى المناسبات اعترض رمزي على مقالة كتبها مكلفاني، وبعد أن عبّر عن ذلك أمامه، اختتم حديثه بسؤال أمِل أن يكون مفحماً لـ مكلفاني: «كم قبعة [التذكار القماشي الذي يُقَدّم في المناسبات الدولية] لديك؟». فأجاب مكلفاني: «ليس لدي أي قبعة ولم أكن قطّ قريباً من الحصول على واحدة. ما من أحد يحترم الخبرة أكثر مني، لكني أرى أن الخبرة مهمة فقط في علاقتها بالذكاء الذي تكشف عنه. إن قمت بإرسال نبتة لِفت حول العالم، فإنها تبقى نبتة لفت عندما تعود، لا جغرافياً محترفاً»، قال رمزي: «كلمات، كلمات، كلمات»، فردّ مكلفاني: «آلف، الكلمات مفيدة جداً عندما تريد قول شيء ما».

لم تشهد الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين نقصاً في الأبطال الاستثنائيين أو الأحداث الاستثنائية التي استعمل مكلفاني في وصفها لغته المدهشة. فبمعزل عن فوز إنكلترا بكأس العالم، كان ثمة مواهب متميزة مثل لاعب كرة القدم جورج بِست («قدم بمثل مهارة يديّ نشال»)، وملاكمين مثل محمد علي(«بالمقارنة به، يبدو أشد أسلافه قوة مثل هيئات مشوشة وغير واضحة ترقص وراء زجاج أغبش»)، والفرسان مثل لِستر بيغوت («برتانج حبيس في جبل جليد»). ولأنه الكاتب الرياضي الرئيس في الـ أوبزرفر، فقد جَدْولت أعماله الأحداثَ الرياضية الكبرى في الغرب كلها - لا الأحداث الرياضية البريطانية، كمهرجان الصيد الدولي في تشلتنهام والـ غراند ناشيونال ونهائي كأس الاتحاد الإنكليزي وبطولة الدوري والبطولات الدولية في الركبي والديربي وبطولة الغولف المفتوحة، وإنما أيضاً الأحداث الدولية مثل نزالات الملاكمة المهمّة وبطولة الماسترز في التنس، وواحد أو أكثر من سباقات تريبل كراون الأمريكية والجوائز الكبرى والدورات الأولمبية. لم يمض وقت طويل قبل أن تجعله نوعية كتابته واحداً من الكتّاب البريطانيين القلائل الذين عملوا لحساب سبورتس إلّستيراتيد عندما كانت في ذروتها.

توزّع نتاج مكلفاني، على مدى سنوات طوال، بين مقال وسيرة موجزة ولقاء أو مراجعة 1500 - 2000 كلمة في الصفحات الداخلية، ومن ثم العمل على تقرير حي من مضمار سباق أو ملعب كرة قدم عصر يوم السبت. و بالنظر إلى أن الموعد النهائي لصحيفته كان السلطة

الخامسة عصراً بالنسبة إلى أحداث لم تنته قبل الرابعة والنصف، فقد أرسل تقاريره بصورة تقارير حية في أثناء السباق أو المباراة، حيث كتبها بلغة كاملة حتى نقطة معينة ثم ارتجل الباقي على الهاتف، واقفاً طوال الوقت. يقول رونالد آتكينز، الذي غالباً ما رافقه إلى نهائي الكأس وكتب التعليقات الجانبية لمقال أو لقاء:

كان يتابع الشوط الأول ويدوّن ملحوظات، ثم يرفع سماعة الهاتف ويملي من ملاحظاته عرضاً متناسقاً و جميلاً. وعندما يبدأ الشوط الثاني، يتابع الإملاء على الهاتف ويرسلني لأدوّن أحداث ما يجري. «يضغط ليفربول في الدقائق الثلاث الأولى من ناحية اليمين على نحو رئيس ...إلخ». ثم يترجم كلماتي العادية إلى كلماته العبقرية.

غير أن ضغط الوقت لم يمنعه قطّ من ابتكار مقدمة تجعل الدم يغلي في العروق، كما في هذه المقدمة التي أرسلها من الـ غراند ناشيونال عام 1977:

همى من الدموع الساخنة ما يكفي لصنع حاجز مائي إضافي في مضمار آينتري البارحة عندما انطلق رِد رُم، الحصان الأكثر شعبية على الإطلاق في سباقات الخيول البريطانية، مبتعداً عن ملاحقيه المتفرقين ليغدو أول حصان في التاريخ يفوز بثلاثة سباقات غراند ناشيونال.

أحبّ مكلفاني الوقت الذي قضاه في الـ أوبزرفر. «كنت أقصد مكتبي بنشاط وحيوية كما لو أنّ نوابض في قدميّ». لكن على الرغم من الرفقة المثقفة والحرية المهنية والسياسات الليبرالية التي مثّلتها الصحيفة جميعاً، إلا أنها غصت بأناس، سيطروا عليها بالتأكيد، أبحسروا النور في ظروف معيشية أكثر يسرةً بكثير من مكلفاني. وكانت النتيجة أنهم نظروا إلى المرتبات، على قلّتها، على أنها مكافأة تمنحها الصحيفة لموظفيها لا إعانة مالية يتوقعونها. لذا، وفي عام 1972، أغراه الانتقال إلى الديلي إكسبريس، وكانت آنذاك في بداية درب انحدارها الطويل، إنما لم تتخلّ بعد عن إيمانها بأن الصحفيين المميزين يجب أن يحيوا حياة مرفهة مع مرتّبات مناسبة. كتب مكلفاني لحساب هذه الصحيفة من الشرق الأدنى عن تداعيات حرب فيتنام، ومن إفريقيا (حيث أجرى لقاء مع الطاغية عيدي أمين)، ومن الشرق الأوسط ومن الولايات المتحدة حيث غطى مؤتمر الحزب الديمقراطي عام

1972. غير أن تجربته بصفته مراسلاً متجولاً مع الـ إكسبريس لم ترضِ طموحه. يقول بعض الأصدقاء: إنه وجد طول المقالات الذي حددته الصحيفة مجحفاً، ويروي أكثر من واحد منهم حادثة أنه اتصل، في واحدة من مهامه الأولى إلى أحد السباقات، بالصحيفة ليسأل عن الطول المسموح به، ويقال: إنه صاح قائلاً: «ثمان مئة كلمة وحسب! ربّاه، إن تصديري أطول من هذا». لكن مكلفاني يقول: إنه فضّ العلاقة؛ لأنهم سألوه «أن يخفف من نشاطه بدل أن يزيده»، مثلما كان يفعل عندما عمِل لحساب الـ أوبزرفر. و قبل أن يتصل بـوكيل أعماله باغنال هاري في (كان واحداً من قلة قليلة من المراسلين البريطانيين ممن لديهم وكيل أعمال)، قدّم هذا المقال الموجز والبليغ عن آسكوت، لقاءات النخبة في سباق:

على الرغم من فخامة السباق، إلا أن آسكوت يعاني في الغالب السيئات التي يعانيها حفل كوكتيل في الهواء الطلق. المكان مرتب ومزين ومعطر، يسهر على حمايته بيقظة و حذر جيش من المحاربين والموظفين الرسميين القليلي الشأن. يوزّع هؤلاء الرجال الذين يخلفون الانطباع بأنهم على وشك أن يبلغوا رتبة رقيب أول، وقتهم بين تملق ومداهنة الموسرين والنظر شزراً إلى كل من يبدو كما لو أن في مطمورته أقل من خمسين ألف جنيه.

كانت أولى مقالاته بعد عودته إلى الـ أوبزرفر، في تشرين الثاني عام 1973، من مضمار آخر هو مضمار لودلو في شروبشاير الضبابية والخريفية. رأى مكلفاني، إلى جانب «المنصة بأعمدتها وواجهتها المتآكلة التي تشبه واجهة محطة قطارات في العصر الفيكتوري، سيدةً مالكة توزع القبل في كل اتجاه مثل طلقة خردق رطب». ووقف يشاهد، عندما فاز جوادٌ يدعى أوفرأول، يملكه أصدقاؤه، بسباق حواجز للمبتدئين تبلغ جائزته 204 جنيهات، بسرعة «كانت تتطلب المنظار الموجود في مصرف جوردل لرؤية باقي المضمار». وبعد أقل من سنة، شهد مكلفاني انتصاراً من نوع مختلف: تغلّب محمد علي على المرعب جورج فورمن. وصف مكلفاني النزال بأنه «لاشك أروع حدث رياضي عشته على الإطلاق». جاء فورمان إلى اللقاء بصفته بطل العالم في الوزن الثقيل الذي، كما قال عنه مكلفاني، «يقيس الحلبة بحسّ هندسي قاتل ويوظف مناوراته المحسوبة أحسن توظيف؛ لتقطع سبل الفرار على الخصم

مثل حاجز طُرقي». لكن عندما وصل الأمر إلى النزال كان علي، الذي فاز باللقب للمرة الثانية، في قمة عطائه التي لا تدانيها قمة. استهل مكلفاني تقريره كما يلي:

كان حرياً بنا أن ندرك أن محمد علي لن تقر له عين بنهاية عادية قديمة الطراز. لقد تعين عليه أن يبحث عن زخرفة إضافية. لذا، وبعد أن أزاح الصخرة بعيداً، ضرب بها رأس جورج فورمان.

ما أعطى المقالة طابعها المميز هو الوقت الذي قضاه مكلفاني عقب اللقاء برفقة صحفي آخر في المنزل الذي استأجره علي، ومن ثم زيارته في وقت لاحق من ذلك اليوم لـ فورمان في غرفته في فندق كينشاسا. وكان الحُكم الذي خلص إليه مكلفاني:

لن تكون الذكرى الأوضح هي الإلهام في تكتيك علي أو روعة تقنيته، على الرغم من أنهما لافتان للنظر...بل ستكون أعصابَه الماسية التي لا تشوبها شائبة... ولا بد أن ننظر إلى قراره بدعوة فورمان إلى الانقضاض عليه كفعل شجاعٍ ومحسوب يدعو إلى الدهشة. إن مقدرته على اللعب بطاقةٍ عظمى، دون أدنى تشتت في التركيز، في حين تتطاير القنابل من حول رأسه في الدقائق الأولى، يشهد على شجاعة وانعدام خوف قلما أنجبت مثلهما ملاكمة المحترفين...كان في مقدوره أن يقطف الأزهار في حقل ألغام فلا يترك أي زهرة.

غمس مكلفاني قلمه في حبر من نوع آخر بعد أربعة أعوام عندما كان في الأرجنتين لمشاهدة فريق كرة قدم إسكتلندي كان مديره الفني ماك ليد قد أكد لحشد غفير من المشجعين لا تنغصهم البتة التوقعات الحالمة، أن فريقه سيعود وفي حوزته كأس العالم بالتأكيد. كان زعمه هذا، حتى في ذلك الوقت ودون الحاجة إلى خاصية الإدراك المتأخر، زعماً مستحيلاً، وكان على مكلفاني أن يقف مشاهداً في حين تهاوى المشروع لحظة اصطدامه بأول عقبة: إيران. وبعد الخسارة أمام البيرو، كتب مكلفاني: «بدا ماك ليد مثل رجل يتعثر خارجاً من حطام طائرة»، وبدأ مقاله الآتي: «لو كان ثمة كأس عالم لتدمير الذات، لتجرأت أمم قليلة وحسب على تحدي الإسكتلنديين». بعد اثني عشر عاماً، وعقب فشل إسكتلندا في الفوز على كوستاريكا في كأس العالم عام 1990، كتب يصف أداءً كان بمنزلة «صرح يشهد على مستوى

هابط يفتقد الرشاقةَ ويبعث على الملل»، تزيده سوءاً «محاولات بطيئة لتخطّي منتصف الملعب والتحرك بوتيرة تأتي بأفضل منها امرأة تدفع عربة أطفال».

قد تدفع هذه التعليقات اللاذعة قارئاً غير مطلع على عمله إلى الاستنتاج أن حدة تعليقاته تجاوزت أحياناً حيثيات الوضع. لكن الحقيقة هي أن مكلفاني كان مولعاً بالدقة والإحكام، بل مدمناً عليهما. يقول في مقابلة لأرشيف الـ أوبزرفر:

عندما تحاول أن تحلل مباراة أو أن تفهم كثيراً أو قليلاً طبيعة أي لاعب، فلا أظنّ أن التحليل العام والشامل يساعدك كثيراً. أرى أن عليك الغوص في التفاصيل والتحقق، قبل أن تكتب أي شيء، أن هذا الشيء واضح تماماً في ذهنك. قد لا يكون ما تكتبه فائق الأهمية، وقد لا يسلط الضوء على أمر مهم أو يثير الناس إلى حد عظيم، لكن قبل أن تكتبه يجب أن تكون واثقاً ودقيقاً فيما يخص العواطف والأحداث. أرى أن ثمة واجباً يحتّم عليّ العمل باستمرار على ما أكتبه. فأنا أكره بالفعل أن أكتب شيئاً ما لم يكن صحيحاً قدر المستطاع.

كان هذا عملاً مضنياً بالفعل. يقول دونالد تريلفورد الذي أشرف على تحرير الـ أوبزرفر طوال سبعة عشر عاماً من الثلاثين عاماً التي قضاها مكلفاني في الصحيفة: «يعود سبب تميزه بهذا القدر بنحو أو بآخر إلى عمله على ذلك بنشاط فاق نشاط أي صحفي آخر. ولطالما أنجز قسطاً هائلاً من البحث لأجل كل مقال». استشار مكلفاني على نطاق واسع كتّاباً زملاءَ ورياضيين في أي مجال كان يناقشه ذلك الأسبوع، وليس رونالد آتكينز الوحيد الذي قال: إن كل معلومة أو نادرة شاعت خضعت لتحقيق موسّع من مكلفاني مع شهود آخرين قبل أن يقبلها بوصفها موثوقة وحقيقية. يروي ألان هوبارد الذي عرف مكلفاني محرراً لأخبار الرياضة وزميل كتابة، عندما كانا في برشلونة يغطيان دورة الألعاب الأولمبية عام 1992 : «ذات ليلة، كان هيو يكتب في وقت متأخر كعادته وأراد أن يتوثق من معلومة عن الفريق الألماني. اتصل بي وأيقظني، وفعل الشيء ذاته مع زميل ألماني، وفي آخر الأمر اتصل بالسفارة الألمانية عند الساعة الواحدة صباحاً وتوثق من المعلومة». أما إن كان يعمل على تقرير مباشر، فإنه عندئذ يحسّن ويُرصّن وبعبارة هوبارد، «يلتمس الكمال طول الوقت». كان يقصد مباراة كرة القدم في ليفربول أو مانشستر أو شيفيلد، ثم يسافر عائداً

بالقطار ويندفع إلى المكتب عند قرابة الساعة العاشرة والربع ليلاً، فيسأل عن المعلومات كي يتفحصها بدقة. فإن تعذر عليه الاتصال بمكتب لندن، أيام ما قبل الهواتف النقالة، عُرِف عنه أنه يترجل من قطاره ويسافر في قطار لاحق؛ كي يقوم بما يعده صحفيون آخرون تغييراً تافهاً. يحكى عنه. على سبيل المثال، أنه اتصل ذات مرة بمحرره عند الثانية صباحاً؛ كي يسأله هل بمقدوره أن يبدل «أواخر الربيع» بـ«مطلع الصيف».

عَمِلتُ فيما مضى مساعداً لمحرر الأخبار الرياضية في الـ أوبزرفر، وبحكم موقعي هذا كنت أحد مديرَين تنفيذيين مسؤولَين بالاسم عن هيو مكلفاني. وهذا يشبه إلى حدّ ما قولك إنك كنت رئيس بتهوفن لأنك أسهمت في إدارة الصالة حيث يقدم العرض الأول. أي إن إسهاماتك اقتصرت على توفير المكان - بل وانتابك القلق هل سيأتي في الوقت المناسب. ومع مكلفاني، لم يكن هذا بالأمر التافه. ففي مطلع شبابه كان ولعه باحتساء الشراب من وقت إلى آخر يعني ضياع عدة أيام في ثقب الحياة الاجتماعية الأسود، وكان بمقدوره جعل معاطفه ونظارته ومحفظات الجيب خاصته ونقوده وحقائب سفره ومأجوراته من موس بروِ تختفي بمثل فاعلية مثلث برمودا؛ واحتفظ برقم قياسي في إثارة مشاجرات يمكن أن تنتهي بالعراك. ذات مرة، في إحدى الحفلات في نيويورك، ردَّ على اصطدام غير متعمد من نورمان ميلر بأن أطاح بالروائي أرضاً بلكمة من يده اليمنى. ويصور المثال الآتي، من السيرة الذاتية لكاتب زميل هو بيتر بات، جانباً من جوهر الشاب مكلفاني، وإن كان لا يطبع بطابعه سلوكه في جميع مطارات العالم:

> بعد يوم حافل من تناول المسكرات في ألمانيا، وصلتُ برفقة مكلفاني إلى مطار لندن «متعبين ومشحونين عاطفياً»، على حد ما جاء في مجلة برايفت آي. تشاجرنا مع بعض الحمالين عند نقطة استلام الحقائب وألفيت نفسي ممدداً على بساط الحقائب حيث ثبتتني هناك مجموعة من الحمالين وانهال عليّ أحدهم، شاب كالعجل اسمه فرِد، بلكمات لا تُحصى، يرافقه صوت مكلفاني وهو يعلق على المشاجرة، ويدعو الحشدَ الذي تجمهر ليتفرج على هذا المشهد غير اللائق إلى المراهنة.

كذلك لم يُعرف عن مكلفاني وصوله إلى مباراة كرة قدم قبل وقت طويل من ركلة البداية، ولقد شغَل عصر يوم سبت الفاصلَ بين الشوطين بإرسال القسم الثاني من مقالة

كان يجب أن يُسلمها قبل أربع وعشرين ساعة. فإن اتصل كي يسلم تقريراً عن مباراة، كانت العملية، بحسب ما يقوله العامل الذي يستلم التقرير في الـ أوبزرفر، جون هوكينز، «أشبه بعملية ولادة. لكن النتيجة كانت رائعة على الدوام. ولم ينس قطّ، في نهاية الاتصال، أن يعتذر ويشكرنا. غير أن متاعب كتابة تقرير عن المباريات كانت أمراً تافهاً مقارنة بمتاعب مقال». وبحسب محرر الرياضة والكتب والصديق بيتر كوريغان، كانت الكتابة بالنسبة إلى مكلفاني مثل «نَفَق. فإن كنا في عمل معاً، اتصل بي وقال: (ألم تخرج من النفق بعد ؟) كانت الكتابة بالنسبة إليه مثل اقتلاع الأسنان، عانى في أثنائه أكثر من أي شخص آخر أعرفه» ومثلما كتب مكلفاني هو نفسه ذات مرة: «إن كنت ترى أن قراءة المقال محنة، فحري بك أن تجرب كتابته».

قاتل مكلفاني، إن أحس بالرضى عن مقالته، مثل قطٍّ بريٍّ سجين؛ كي يحافظ على كل كلمة ضد ضروب السلب والنهب التي قد يمارسها عليها محررو الرياضة أو المحامون. قال مرة في مطلع السبعينيات من القرن العشرين استبقى مكلفاني صديقه وزميله المراسل كولن هارت في غرفته في فندق ألغونكوين، نيويورك طوال مدة الظهيرة، في حين صرف ذلك الوقت كله على مكالمة هاتفية مكلفة عبر الأطلسي وهو يتجادل مع محامي الـ أوبزرفر و محررها ومحرر أخبارها الرياضية حول رغبتهم في حذف سطر واحد يشير إلى صلات المافيا بشخص يدعى «الشريف» بيلي دالي. يقول هارت: «جلستُ هناك ساعتين ونصف الساعة في حين اشتغل هيو بالجدال، إلى أن قبلوا السطر في نهاية الأمر. عندئذ أقفل السماعة وقد غمره شعور بالرضى. لكن الغداء فاتنا». ون كان هناك أي خطأ قواعدي أو مطبعي في قصته عند نشرها، غدا مكلفاني انتحارياً. فعلى سبيل المثال، غطى مساء يوم سبت نزالاً في ألكساندرا بالاس، لندن. تأخر النزال عن موعده، وكذلك تأخر مكلفاني، وتعين في الصحيفة كتابة تقرير هاتفي على عجل لملء المساحة قبل أن تصل قصة مكلفاني لإعداد الطبعة النهائية. وفي صباح اليوم الثاني، كان محرر الرياضة ألان هوبارد في سريره يتصفح الصحف عندما رن جرس الهاتف في الثامنة صباحاً. كان المتصل مكلفاني: أيّ كارثة!»، ثم قال: «البارحة. كارثة حقيقية». اعتقد هوبارد أنه يتحدث عن تأخر قصته، لكن الأمر لم يكن كذلك. كانت «الكارثة الحقيقية» خطأً مطبعياً غيّر تهجية اسم الحَكَم.

بحلول عام 1980، أتمّ مكلفاني في عمله مراسلاً رياضياً عشرين عاماً شهد في أثنائها ذروة عطاء رياضيين مثل محمد علي ولاعب كرة القدم جورج بِست، ووجد نفسه مضطراً الآن إلى كتابة الفصول الختامية لأساطيرهم. عام 1978، وفي مواجهة ليون سبينكس، انتزع علي اللقب العالمي المرة الثالثة، وحقق بذلك إنجازاً غير مسبوق، لكنه واجه بعد عامين لاري هولمز في لاس فيغاس. استهل مكلفاني مراجعته النزالَ: «على مدى قرابة عشرين عاماً جعل محمد علي حياته أشبه بحلم نابض بالحياة، لكن الحقيقة لا ريب كامنة في مكان ما تنتظر الأخذ بالثأر». وبعد أسبوع واحد كتب مكلفاني: «اكتسبت الآن تحركات محمد علي داخل الحلبة الرشاقة والسحر الرياضي الذي نراه في روليت روسيّة تُلعَب ببندقية ضغط». لكن بعد عام واحد جاءت الإهانة الأخيرة لـ محمد علي مع هزيمته على يد تريفور بيريك. كتب مكلفاني: «كانت رؤيته يخسر أمام ملاكم متواضع كهذا مثل رؤية ملك ينتقل إلى منفاه لأبدي على ظهر شاحنة قمامة».

سرعان ما وجد مكلفاني نفسه يكتب نعيا حقيقيا، إلى جانب النعي الرياضي. ولم يكن أي نعي آخر مؤثراً بقدر النعي الذي كتبه عن ثلاثة من أعظم المديرين الفنيين في بريطانيا: المدير الفني لفريق ليفربول بيل شانكلي، والمدير الفني لفريق مانشستر مات بِسبي، والمدير الفني لفريق سيلتيك جوك ستيك، وثلاثتهم قدموا من مجتمعات عمال المنجم ذاتها في غرب إسكتلندا التي قدم منها مكلفاني. وفيما يلي، يكتب مكلفاني عام 1981 عن شانكلي، الرجل الذي جعل فريق ليفربول لكرة القدم أفضل فريق في بريطانيا يرفضه، من بين حيل ذكية أخرى، الاعتراف بالهزيمة، حتى عندما تجرع الهزيمة في بعض المناسبات:

يخطئ خصوم فريق ليفربول إن اعتقدوا أنهم تخلصوا من بيل شانكلي. فبعد أن يُنثر رماد بيل على أرض ملعب آنفليد، فإن أي مهاجم زائر يهمّ بتسجيل هدف مهم يمكن أن يجد أن شيئاً ما دخل عينه.

...إن شانكلي، بتسريحته التي تشبه تسريحة مدرّب رقيب في الجيش، ووقفته التي تشبه وقفة ملاكم، وطريقته المتقطعة والجلفة في الكلام، خالف تصورات الجميع عن الرجل الرومانسي. لكن ذلك هو ما كان عليه، رجلاً صريحاً وغير مهادن، وكان مثالاً

خالصاً عن هذا النوع من البشر. أما سرّه الذي بقي طي الكتمان فهو أنه أحس في قرارة نفسه أن المقاربة العملية الوحيدة للرياضة هي المقاربة الرومانسية. وكيف بغير ذلك يقنع مديرٌ فني رجالاً ناضجين بقدرتهم على الوصول إلى المجد في لعبة للفتية؟ لقد فعل شانكلي ذلك و أكثر.

... سمعته ذات مرة يقول: «اضطررت، كوني لست متعلماً، إلى استعمال عقلي». وتقول إنه استعمل قلبه أيضاً. وكان قلباً كبيراً بقدر مدينة.

بعد أربعة أعوام، انهار جوك ستين على خط التماس في مباراة ويلز وإسكتلندا، الرجل الذي جمع فريقاً من رجال وُلِدوا في دائرة يبلغ نصف قطرها من غلاسكو ثلاثين ميلاً وجعله أفضل فريق في أوروبا. وعندما وردت، بعد دقائق معدودة، أخبار إلى حجرة الصحافة في الملعب تفيد بأنه قضى، كتب مكلفاني أن الأمر كان: «كما لو أن أرواحنا وحياتنا نحن زُهقت». ثم، في عام 1994، جاءت وفاة ثالث أركان هذا الثالوث، السير مات بِسبي. وكما هي حال مكلفاني عموماً، انطوت المقالة التي كتبها لحساب صنداي تايمز على أهمية فاقت إلى حد بعيد مجرد لعب كرة القدم:

العَظَمة، بلغة صفحات الرياضة، متوافرة بكثرة. أما حقيقة الرياضة، شأن حقيقة كل مجال آخر من مجالات الحياة، فتبين أنها نادرة بنحو يبعث على اليأس. العظمة لا تهيم في الجوار وتصل إلى الناس بالحفنات، بل تستقر على رؤوس قلة مباركة. وقد كان بِسبي واحداً منهم.

إن وقف بسبي وقد ارتدى ثياب العمل في المنجم، ووقف إلى جانبه أحدهم وقد ارتدى فرو القاقم، فلن تجد صعوبة في تحديد الأميز. إنَّ مَنْحه رتبة فارس لم يرفع من شأنه؛ إنما رفع، وإن يكن بمقدار ضئيل، من شأن ظاهرة نظام التشريفات الملتبس برمته.

شعّ بسبي حضوراً وجوهراً وقوة دون غطرسة. لم أعرف في حياتي قطّ رجلاً عامَل بطريقة أفضل المقدرة على التعامل معك كندّ، وفي الوقت ذاته تركك تعلم علم اليقين أنك أقل منه مرتبة. رجال كهؤلاء ليسوا بحاجة إلى أن يُنَصّبوا زعماء وقادة، ذلك أن ديمقراطية الغرائز والحواس تنتخبهم كي يكونوا في موقع المسؤولية.

كان تميزه بالفطرة مصدر تأثيره في لاعبي كرة القدم. لم يضطر قطّ إلى الصراخ، بل كانت نظرة واحدة من تحت حاجبيه المعبّرين تقابل عشر صيحات خوار من ذوي الطبيعة المحدودة.

في نهاية ذلك النعي، لفت مكلفاني النظر إلى أن شانكلي وستين وبسبي جاؤوا جميعاً من منطقة يغطيها منجم فحم انتشر في الماضي عبر جزء من لاناركشاير وجنوب آير شاير. ثم علّق قائلاً: «واضحٌ أن ثمة ما هو أكثر من مجرد عروق فحم تخترق ذلك المشهد الكالح في غرب إسكتلندا. ثمة عروق إنسانية غنية، من أنفة الطبقة العاملة وفطنتها وقوتها وشخصيتها». وبعد أعوام ثلاثة، حوّل فكرته القائلة إن أصول الرجال الثلاثة المشتركة ليست مصادفة إلى وثائقي تلفازي بعنوان «رجالات كرة القدم». وقال مكلفاني في معرض تعليقه عن ثلاثتهم عملوا في المناجم. «لقد فهموا الديناميات الحقيقية للروح الرفاقية؛ لأنهم شبوا بين أناس اعتمدوا في حياتهم على عمل الفريق».

لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تفتقر الرياضة إلى المفارقات. ففي العام ذاته الذي قضى فيه بِسبي، كتب مكلفاني عن نهاية مسيرة كانت في أواخرها مبهرجة بقدر ما كانت نهاية بسبي نبيلة. في أواسط الثمانينيات، كان دييغو مارادونا موهبة كروية تهدد أن تكون مكافئة لـ بيليه بوصفه أفضل لاعب كرة قدم على الإطلاق. من كأس العالم عام 1986 في المكسيك، التي فازت بها أرجنتين مارادونا، استهل مكلفاني إحدى مقالاته:

إن كان من طريقة ناجعة للقضاء على تهديد دييغو مارادونا بوسمه، فإن ذلك سيتضمن على الأرجح وضع صليب أبيض على قلبه وإحكام وثاقه إلى عمود قبالة فرقة إعدام. لكن حتى عندئذ ثمة خوف من أن يخفض كتفه ويدفع الرجال للشروع في إطلاق النار واحدهم على الآخر.

لكن اللاعب أخفق، بعد ثمانية أعوام، في اجتياز اختبار للعقاقير في كأس العالم، و كانت هذه المشكلة الأخيرة في سلسلة من المشكلات تضمنت الكوكايين والمومسات والقدرة المفرطة على تدمير الذات. استهل مكلفاني مقالته من تكساس:

عبرّت الجلبة المنفّرة التي سادت المؤتمر الصحفي المفاجئ في دالاس مساء يوم الثلاثاء أبلغ تعبير عن الحزن الذي ساد إثر فضيحة استبعاد مارادونا من تأمر العالم. ففي حين أطبقت عليه أيادٍ كثيرة تحمل ميكروفونات مثل نبات متسلّق، بدت النظرة المنكفئة الساهمة على وجه هذا الإسباني- الهندي عن طبيعة مأزقه وأسبابه أكثر مما روته كلمات الإنكار والشكوى المتوقعة التي نبس بها.

لم تكن هذه، بأي حال من الأحوال، المرة الأولى التي يجد فيها مكلفاني نفسه مضطراً إلى تغطية خبر عاجل، ذلك أن مجال عمله طلع عليه من حين إلى آخر بأحداث من هذا القبيل. والواقع أن مكلفاني عد نفسه مراسلاً رياضياً كما شاءت المصادفات، فقد غطى الاضطرابات في أولمبياد المكسيك، وإطلاق النار على رياضي إسرائيلي في دورة ألعاب ميونيخ، وكان حسّه الإخباري متطوراً مثل أي مراسل حربي، وهو ما أدركه عصر يوم 16 نيسان عام 1989. كان نهاراً صحفياً عادياً في الـ أوبزرفر، تزامن مع نصف نهائي تأمر رابطة كرة القدم، الذي كان مكلفاني يحضره في شيفيلد. بعد قرابة عشرين دقيقة من ضربة البداية المزمعة، قالت برقية رابطة الصحفيين: إن ثمة تأخيراً في موعد انطلاق المباراة في شيفيلد بسبب الشغب. «تستحق فقرة أو اثنتين على الصفحة الأولى». وبينما كنت جالساً في غرفة الأخبار رنّ هاتفي، «ديفيد، أنا هيو. أخبار سيئة. ثمة جثث على أطراف أرض الملعب، والشباب الذين يجرون لهم تنفساً اصطناعياً يفرون هاربين ورؤوسهم بين أيديهم». أذكر أنه بعد نصف ساعة أوردت رابطة الصحفيين وقوع وفيات، وكنت في أثناء ذلك قد شرعت والمحرر بإخلاء الصفحة الأولى على الرغم من الاحتجاجات من بعض الإخوة المفرطي الدقّة. كانت الـ أوبزرفر الصحيفة النوعية الوحيدة التي صدّرت الخبر في طبعتها الأولى، وهي ميزة كان الفضل فيها كله للإنذار من مكلفاني وتقريره اللاحق. وفي ساعات قليلة، ارتفعت حصيلة القتلى إلى 94.

بعد ثلاثة أعوام، وجد مكلفاني نفسه مراسلاً مختصاً بشؤون المحاكم، وفي مستهل تقرير عن محاكمة الملاكم مايك تايسون كان التقرير بمنزلة ردٍّ قاطع على أولئك الذين ينظرون إلى مراسلي الرياضة على أنهم أقل شأناً وأدنى مرتبة، يقول مكلفاني:

بعد انتظار دام قرابة الأسبوعين قبل أن يدلي بشهادته في محاكمة تهدده بستين عاماً في السجن، اعتلى مايك تايسون منصة الشهود؛ كي يعلن إقراره الشنيع بالذنب، إقرارٌ يمثل جزءاً من إستراتيجيته الدفاعية التي تهدف كما هو واضح إلى إثبات أنه عدواني وسليط اللسان ومتحرش جنسي لكن ليس مغتصباً. بصوت عالٍ، ومتلعثم بعض الشيء، يختلف تماماً مع البنية المفزعة لبطل العالم السابق، أمضى تايسون خمساً وسبعين دقيقة في وقت متأخر عصر يوم الجمعة يوضّح موقفه لهيئة المحلفين المؤلفة من ثمانية رجال وأربع نسوة في المحكمة العليا في ماريون بأسلوبه الخاطف والصريح وهو طريقته المفضّلة في التوسّل.

عام1993 بيعت الـ أوبزرفر إلى الـ الفارديان، الصحيفة النوعية الأخرى التي شاطرتها قيمها اليسارية وافتقارها إلى صحيفة اليوم السابع. لكن أولئك الذين أيدوا هذه الصفقة من زملائنا (كان البديل بيعها إلى الـ إندبندنت والانغماس في صحيفتها يوم الأحد) أغفلوا من حساباتهم الملّاك الجدد الذين، كما قال مكلفاني: «دخلوا مثل جيش احتلال». كانت تلك الصفقة انتصاراً لمن يعتقدون أنهم أقوم أخلاقاً من الآخرين كثر منها انتصاراً للأقوياء فعلاً، وبعد أن ذاقوا طعم الحياة الجديدة وقتاً قصيراً، سعى كثير من بيننا للتوصل إلى اتفاقٍ نسلم بموجبه جوازات سفرنا الخاصة بالـ أوبزرفر وننتقل. وسرعان ما دخل مكلفاني في مفاوضات مع صَنداي تايمز، وهي صحيفة منافسة لـ أوبزرفر أكبر منها وأكثر اندفاعاً، ومربحة على النقيض من الأوبزرفر. قدموا له عرضاً يفوق بقرابة 50% مرتبه القليل، وفي سن التاسعة والخمسين، كان من الطبيعي تماماً أن يقبل. لا يزال الآن في سبعينياته، يكتب عموداً ويضيف جوائز أخرى إلى قائمة الجوائز التي جعلته واحداً من أكثر الصحفيين الذين كُرِّموا، ويقوم ببعض المراسلة من حينٍ إلى آخر.

إن وصل الأمر لاختيار مقالة واحدة فقط تمثل شخصية مكلفاني، فإن زملاءه ومحرريه واثقون كل الثقة بالمقالة التي يجدر بها ذلك. كان مكلفاني قد كتبها في أيلول عام 1980 بعد ساعات قليلة على هزيمة الملاكم الويلزي جوني أوين وإسعافه فاقد الوعي من الحلبة

إلى المشفى. وعلى الرغم من أن الآتي أدناه مقتطف جائر من المقالة الأصلية الطويلة، إلا أن بعض الإلماعات إلى قوتها، وخصوصاً الفقرة الأخيرة، لا تزال باقية.

ما من عزاءٍ لأولئك في جنوب ويلز وفي لوس أنجلس، الذين ذرفوا الدموع قلقاً على جوني أوين في معرفة أن شجاعته الفائقة قد أوصلته إلى حافة الموت.

... في الشارع أو في ردهة الفندق أو حتى في منزل أسرته في إحدى الضواحي السكنية في ميرتاير تايدفيل، يكشف جوني أوين عن صمته وشدة تحفظه كما لو أنه بعيد المنال، وخجله الذي يبعث على اليأس بحيث إنه بلغ الرابعة والعشرين دون أن يحظى بموعدٍ حقيقي مع فتاة. أما في الحلبة فلطالما تغيرت شخصيته وتملكته روح قتالية عنيفة ساقت جسده الهزيل وغير الرياضي عبر سعير الأتون.

... كان في الجولة الرابعة عندما لكمته يد بنتور اليمنى في إشارة إلى القوة التي ستغدو جارفة لاحقاً، ... وفي الجولة العاشرة تبين بما لا يقبل الشك أن القوة فارقت كل جزء من جسد أوين ماعدا قلبه... لم يكن قد تبقى على نهاية الجولة الثانية عشرة سوى أربعين ثانية عندما بدأت معالم القصة المرعبة تتجلى. فقد أوقعت أوين لكمة يمنى قصيرة على ركبتيه. وبعد أن نهض عند العدّ إلى ثلاثة وأخذ عشرة إجبارية أخرى... أطاحت به يمنى عنيفة. غاب عن الوعي قبل أن يصطدم بالبساط وقد جعلت عضلاتُ رقبته المرتخية رأسه يرتطم بالحبال. دخل داي غاردنر [مدرب أوين ووالد الملاكم] الحلبةَ قبل أن ينتهي العدّ بوقت طويل وانضم إليهما الطبيب شواوتز الذي طلب إحضار الأوكسجين.

... لقد وفرت الملاكمة لـ جوني أوين السبيل الوحيد الإيجابي للتعبير عن نفسه. فقد كان خارج الحلبة شخصية غير مسموعة وتكاد تكون غير مرئية. أما داخلها فكان إيجابياً على نحو يبعث على الدهش وواثقاً بنفسه. لقد أحس داخلها أنه في منزله أكثر من أي مكان آخر، وكانت مأساته أنه عبّر عن نفسه بوضوح بهذه اللغة الخطرة.

بعد شهرين ودون أن يستعيد وعيه قضى جوني أوين في سن الرابعة والعشرين. ومثلما قال مكلفاني: «قد لا تكون الحقائق مهمة جداً في الرياضة، غير أنها ليست تافهة أيضاً». والحق أنه تعليق ينطبق، مع بعض التعديل، على جميع ما كتبه مكلفاني؛ ذلك أنه لم يكتب مقالاً تافهاً قط، وكانت بعض مقالاته جديرة بالاهتمام فعلاً.

obeikandl.com

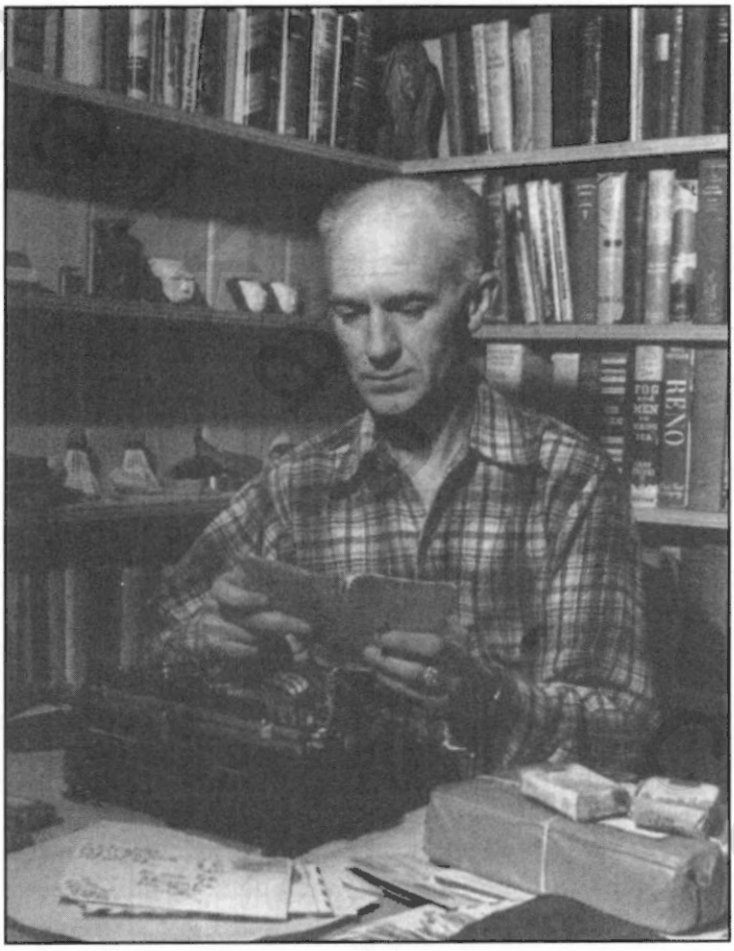

إيرني بايل

11

إيرني بايل

1900 - 1945

المراسل الذي لم ينس قطّ الناسَ الذين كتب لأجلهم

يتطلب الأمر من غير الأمريكيين الذين عاصروا مدة ما بعد الحرب العالمية الثانية بعض الوقت للإلمام بعمل إيرني بايل. وسواء كان ذلك لأن له اسماً يوحي بأنه شخصية ثانوية في فيلم It is a Wonderful Life، أم لأن مراسلته الحربية كانت الأساس لـ حكاية جي. آي. جوي، فسوف يتبادر إلى ذهنك لدى سماع اسمه أول مرة أنه كان جزءاً من ثقافة فلكلورية بسيطة خاصة بمنطقة محددة لم تبعد عن الشواطئ الأمريكية أبعد مما يبلغه قارب نهري في نهر هدسون. إنه، إن شئت، المكافئ الصحفي للأخويات والرحلات الكنسية والرجل الأمريكيّ القَبَليّ جداً، وهذا أمر يصعب على الدخيل فهمه فهماً كاملاً.

غير أن وجهة النظر هذه لا تصمد وقتاً طويلاً أمام قراءة بعض تقارير بايل الحربية. اقرأها، واقرأ عن حياته، تدرك أن ما حققه، والأهم من ذلك، كيف حققه، لا يجعله مراسلاً متميزاً جداً وحسب، وإنما مراسلاً نتعلم منه دروساً شاملة. لقد طوَّر إبان الحرب العالمية الثانية، عبر الصحيفة، ما يشبه العلاقة مع جمهور العامة لم يتوصل إلى مثلها سوى قلّة آخرون عبر شبكات الإذاعة أو التلفزة. كانت تقاريره من جانب الجنود الأمريكيين عندما كانوا يحاربون في شمال إفريقيا وإيطاليا والنورماندي والهادئ أشبه برسائل إلى الوطن منهم بقصص تقليدية، وقُرِئت في أربعة عشر مليون منزل تقريباً، عبر الاشتراك بأربع مئة يومية وثلاث مئة أسبوعية. أحاط الناس بايل والخطر الذي واجهه بقدر كبير من الحب، حتى دعته مجلة الـ تايم «أكثر رجلٍ يصلي الناس لأجله في أمريكا». وعندما قضى، أرداه رشاش في إي شيما قبل أسابيع قليلة من نهاية الحرب، بكاه الرئيس والمسؤولون والجنرالات

جهاراً، وبكاه سراً الجنود وأسرهم المنتظرة التي غدت رسائله الإخبارية بالنسبة إليهم الصلة اليومية الوحيدة مع محبوبهم.

لكن إن ذُكِر آنذاك بوصفه معهداً أمريكياً، فيجدر به الآن أن يُكرَّم بوصفه معهداً صحفياً، لأن ما جعل بايل مراسلاً عظيماً هو أنه كان مولّفاً على نحو لا يخطئ، مثل تلسكوب إذاعي بشري، على موضوعاته وجمهوره على حد سواء. لم يكن ذلك خدعة ولا مصادفة. وبايل ليس ريفياً أخرق «مرهف الحسّ، أبصر النور وقد منّ الله عليه بنعمة المشاركة الوجدانية، نعمة لا هو تعرّفها ولا فهمها». الحق أن بايل كان أبسط من ذلك كثيراً: كان مراسلاً أمضى سنوات يطوف أنحاء أمريكا ويلتقي قراء في ولايات فاق عددهم وعددها عدد ما التقاه أي مراسل آخر سبقه أو جاء بعده. و كان، إذا التقى هؤلاء القراء المحتملين، أصغى إليهم، وعندما كان بعيداً، يكتب عن أبنائهم وزوجاتهم وأقربائهم في الجيش، وقد تحلى بالسلوك الحسن والحس المرهف فلم ينس قط من كان يكتب لأجلهم. إنها موهبة خاصة قد يفقدها ذات يوم المراسلون على ضفتي الأطلسي، ممن يقصيهم عن حياة القراء العادية السفر بالسيارة والطموحات السامية وجمع الأخبار بواسطة الهاتف والإنترنت وبرامج العمل السياسية.

أبصر إرنست تايلر بايل النور يوم 3 آب 1900، الابن الوحيد لزوجين أدارا مزرعة، بأسلوب متواضع، على مقربة من دانا في إقليم كاونتي، إنديانا. في هذه الأرض بجداولها وسهولها وغاباتها، وبرفقة أصدقاء مثل تود هوكر والفتية في ساكستون، احتوت طفولته على جميع مقومات حياة شبيهة بحياة هكلبري فِن، باستثناء مقوم واحد: شخصيته. إرنست، كان هذ الاسم الذي دعته به أسرته على الدوام خجولاً ومتململاً، وهما صفتان لازمتاه طوال حياته لم يرغب بإتمام تعليمه الثانوي، وتاق بدل ذلك توقاً شديداً للانضمام إلى البحرية، بيـ أن والديه أقنعاه بالبقاء. لكنهما لم يقدرا، بأي أسلوب، على إقناعه بالعمل في المزرعة. عندما بلغ الثامنة عشرة قصد جامعة إنديانا كي يدرس الصحافة؛ لسبب فرعي بسيط هو أنه حَلَم نوعاً ما بحياة الترحال، أما السبب الرئيس فهو أنه علِم من الآخرين أن هذا الموضوع «سهل». كتب لـ ديلي ستيودنت، ومن ثم أشرف على تحريرها، غير أنه، لكي نكون صادقين، لم يبق حتى ينتهي المقرر الجامعي. فقد غادر قبل أشهر قليلة على إنهاء التخرج ليعمل

مر سلاً في لابورت هيرالد - أرغوس، حيث تسكع بضعة أشهر ثم يمّم شرقاً ليعمل لحساب واشنطن نيوز، صحيفة تابلويد الزهيدة الثمن الحديثة التأسيس ولا تزال غير واثقة كفاية بنفسها لتقبل، قبل وقت قصير من وصوله، ثلاثة محررين لأخبار المدينة في يوم واحدٍ.

انضم إلى الصحيفة عام 1923 بصفة مراسل، لكن المحررين سرعان ما وجدوا أنه يتحلى بموهبة في كتابة العناوين الرئيسة، وفي صحيفة صغيرة كتلك كانت هذه هبةً أثمن كثيراً من أن تُهدر بالتسكع في المدينة بحثاً عن الأخبار. نُقل إلى مكتب التحرير واكتشف، ربما أول مرة في حياته، وظيفة ومناخاً لم يجعلاه يحس أنه مجرد عابر سبيل. فقد التزم بعمله، ولَعِبَ الورق مع الشباب، ووقع في غرام جيري سايفولد وهي موظفة حكومية شابة، واستقر مرة واحدة وإلى الأبد. على أي حال، وبعد ثلاثة أعوام من كتابة العناوين وترصين المحتوى، وفي عام 1926 استقال وجيري من وظيفتهما، وابتاعا سيارة فورد رودستار بمبلغ 550 دولاراً وانطلقا ليجوبا حدود الولايات المتحدة. بعد عشرة أسابيع و9000 ميل وصلا إلى نيويورك، وعرّجا على الجادة الخامسة، كما كتب بايل لاحقاً: «تحت مطر مدرار، بسيارة صغيرة ذات مكبسين وعجلات بحجم غلاية الشاي في الإطارات الأربعة جميعاً، واضطررنا إلى بيع هذا الشيء الثمين مقابل مئة وخمسين دولاراً فقط؛ كي نبتاع ما نأكله». بعد يومين وحسب من بحثه عن عمل، وجد شاغراً في الوردية المقبرة، وردية منتصف الليل حتى الثامنة صباحاً في مكتب التحرير في الـ نيويورك وورلد. لم يلبث أن انتقل ثانية إلى الـ نيويورك بوست ثم عاد، قبل انتهاء العام، إلى واشنطن بصفة محرر مسؤول عن البرقيات الإخبارية. لم يكد يتسنى له أن يستقر في تلك الوظيفة عندما سُئِل هل بمقدوره كتابة عمود جانبي عن الطيران، وهو ما عنى انغماسه في واحدٍ من اهتماماته الخاصة، وفي الحماسة التي حركها عبورُ ليندنبرغ المحيطَ الأطلسي بالطائرة عام 1927.

ذاً، وعلى مدى الأعوام القليلة التي تلت، بدأ بايل صباحه كل يوم بالاتصال بكل مطار محلي ليسأل عن أخبار الطائرات التي تحطّ أو تقلع، وينتهي من تحريرها قرابة الثانية عصراً، ومن ثم يقصد مطار واشنطن - هوفر القديم، وقاعدة القوى الجوية البحرية في آناكوستيا، والمطارات الصغيرة من قبيل كوليج بارك في ماريلاند أو آرمي بولنغ فيلد.

وسرعان ما عرفه الطيارون وفريق المطار معرفة طيبة، حتى قيل إنه إن قفز أحد الطيارين بالمظلة، فسيعلم بايل بالأمر قبل أن يصل الطيار إلى الأرض. لاقى العمود نجاحاً كبيراً وغدا موظّفاً بدوام كامل، لكن، في عام 1932، وصل هذا العمل الملائم لطبيعة بايل ومزاجه إلى نهايته. فقد طلبت منه الصحيفة أن يكون مدير التحرير، الأمر الذي زرع الرعب في قلبه. أحس أنه غير قادر على الرفض، لذا، وبعد حفل وداع صغير ومؤثر في مطار واشنطن قدمت له فيه إميليا إيهارت ساعة يد باسم الطيارين وفِرَقِهم اندسّ متردداً في كرسي المحرر في الصحيفة القليلة الموارد. لم يحظَ بمكتب أو سكرتير، وإنما بوجع الرأس جميعه الذي ينطوي عليه إخراج صحيفة لائقة بعدد قليل من الموظفين. ولم يكن هذا تحدياً استلذّ به. كتب إلى صديقته جيني يوبيلهارت: «إنه عمل شاقّ ومضنٍ ولا أحظى بأي فرصة للكتابة». وصف حياته قائلاً: «روتينية ومهلكة»، وقد فرض ذلك ضريبته على صبره وصحته بعد أعوام ثلاثة. ففي عام 1934، وعقب نوبة زكام حادة، نصحه طبيبه أن يتعرض للشمس مدة طويلة. ومرة أخرى، انطلق وجيري في سيارتهما، إلى أريزونا وكاليفورنيا هذه المرة. ثَبُت أن تلك كانت واحدة من أكثر مدد النقاهة إنتاجية في تاريخ الصحافة، إذ أوجدت الدور الذي جعل بايل مقروءاً على نطاق واسع أولاً، ومن ثم، أسطورة. فقد غاب وجيني عدة أشهر، وعندما عادا كتب بايل سلسلة أعمدة عن رحلته هذه. لاقت هذه الأعمدة شعبية، وإذ استغلّ بايل هذه الفرصة ليتخلص من حياته بصفته مديراً تنفيذياً، تحدث إلى جورج «دِك» باركر، رئيس التحرير؛ كي يعيّنه مراسلاً جوالاً في وكالة أنباء سكريبس هوارد. كانت وظيفته أن يجول أنحاء أمريكا، فيكتب ستة أعمدة أسبوعياً عن الناس الذين التقاهم والأماكن التي زارها. كتب إلى جيني يوبيلهارت: «لقد حالفني الحظ. سأذهب حيثما أشتهي وأكتب ما أريد. إنه العمل الذي لطالما حلمت به».

تَرَك واشنطن برفقة زوجته قبل يوم واحد من عيد ميلاده الخامس والثلاثين. وقضيا طوال السنوات الخمس التي تلت، على ثلاث سيارات وهما يجوبان مئات آلاف الأميال، وقطعا أمريكا خمساً وثلاثين مرة، وذهبا شمالاً إلى كندا وآلاسكا، وسافرا ألف ميل نزولاً على طول نهر يوكون، ثم إلى هاواي ومنها إلى أمريكا الجنوبية، التي طافها عتدئذ

بالطائرة. كتب 6000 كلمة أسبوعياً -ستة أعمدة بمعدل 1000 كلمة للعمود- وأرسلها إلى واشنطن، حيث بيعت إلى عدد متزايد من صحف سكريبس هوارد. تناولت بعض هذه الأعمدة الأخبار الرئيسة آنذاك - كان عموده الأول، على سبيل المثال، بتاريخ الثامن من آب 1935، من نيوجرسي من منزل برونو هوبتمان، عن خاطف ابن ليندبرغ وقاتله. أما بعضها الآخر فكان مراسلة محضة، كتلك التي تناولت الدورة الأولى لانعقاد المحكمة العليا في مبناها الجديد («تحديت التقليد والذوق الرفيع معاً وارتديت معطفي ذا المربعات البنية والبيضاء الخاص بالسباقات وكنزتي الخضراء وبنطالي الرمادي»). وعندما مر بهوليوود لتقى، من بين نجوم آخرين، جنجر روجرز وشيرلي تمبل وجوان كروفورد وكلارك غيبل وأوليفيا دوهافيلاند («كانت فائقة الحُسن إلى درجة أني لم أقو على فعل أي شيء سوى الوقوف والتحديق إليها»).

بيد أن بايل لم يكن حقيقة مهتماً بالأخبار التقليدية، وبالطبع لم يهتم بأخبار المشاهير. قال ذات مرة لأحد الأصدقاء: إنه أمضى ثلاثة أسابيع دون أن يقرأ صحيفة أو يستمع إلى مذياع. كان أكثر من عشق الكتابة عنه هم الناس الذين التقى بهم، والأماكن التي مرّ بها على الطريق: رودي هيل، جامع الأقاعي المجلجلة المحترف من يوما، كاليفورنيا؛ غورتزون بورغلوم، الذي كان يعمل على نحت وجوه أربعة رؤساء في صخور ماونت روشمور، داكوتا الجنوبية؛ خوسيه بيرل، منقّب عن الذهب من وينميوكا، نيفادا؛ آيك بروبستال من تاكنا، أريزونا، الذي عثر على رجال مفقودين في الصحراء؛ كونراد، الطاهي في لافواندا، سانتا في، الذي اشتهر بطهي الديك الرومي بطريقة تجعله سهل المضغ «حتى ليَسَعُكَ تقطيعه بنظرة»؛ الهرج والمرج اللذان عمَّا أونتاريو عندما عُرِضت للسواح توائم ديون الخمسة الشهيرة؛ المزارع الكهل من هياوتا، كنساس الذي صرف كلّ ماله على تشييد تماثيل بالحجم الطبيعي له ولزوجته الراحلة (بلغ عددها أحد عشر تمثالاً حتى ذلك الحين)؛ سيم وِب من ممفس، الموقّد في كاسي جونز؛ وليام آندرو جونسون، آخر عبد حيٍّ مملوك لرئيس؛ فرِد هايسي، صديق قديم من الواشنطن نيوز يقضي حكماً بجريمة قتل في سجن لورتون، فيرجينيا؛ الزوجان المتقاعدان اللذان عاشا في وادي الموت، على مسافة ثمانين ميلاً من أقرب مخزن؛ كانون بال بيكر، السائق محطم الرقم القياسي من إنديانا الذي قطع أمريكا 118 مرة؛ آد

و بلينكي تويرفين من سان أنطونيو، تكساس، أفضل راميين متزوجين في الغرب؛ وآلافـ من الأمريكيين العاديين.

وصف بايل هذه المشاهد والشخصيات في مقالات لم تُقرأ بوصفها أخباراً، وإنما بوصفها رسائل من صديق مسافر. هنا، على سبيل المثال، يكتب بايل عن تربة مونتانا الجافة وعن سكان داكوتا في أثناء القحط:

ليس القحط بالمشهد الذي يخلب الألباب ... المحاصيل هلكت وأفلس المزارعون. الحرارة رهيبة، والمشهد برمته مروِّع. غير أني على ثقة أن رجلاً مدنياً إذا سمع عنه وقَدِم ليرى الخراب الحاصل فسيصاب بخيبة الأمل.

الناس هنا لا يلهثون طالبين الماء، و ما من نيران تضطرم في المنازل، أو ماشية نـفقة على الطريق، أو شاحنات تنقل أسر قبل الغروب والذعر يغمر نظراتها... بل ترى مزارعين يقفون جماعات و يتخذون قرارات يائسة. هذا ليس قحطاً. فالقحط لا يمهد السبيل إلى أزمة بهذه الصورة الواضحة و المحددة. لا يعرف المزارع في أي يوم بالضبط، أو حتى في أي أسبوع سيهلَكَ.

وعن اللقاءات مع نجمات السينما في هوليوود:

تاقت نفسي إلى الموت من محاولة الكتابة عن نجمات السينما. صحيح أن أولئك الـلاتي أتيحت لي رؤيتهن في نهاية المطاف كنّ غاية في اللطف، غير أن الإجراءات التي يتعين المرور بها والتسكع والانتظار والدقائق القليلة الثمينة التي يمنحنك إياها في آخر الأمر وعجزهن الواضح عن الانفتاح والتحدث بصراحة كل ذلك يزيدني أسىً.

وعن إيرفن روبنسون، الذي كان برنامجه الغذائي في الماضي فقيراً جداً حتى فَقَدَ أسنانه جميعاً بسبب الأسقربوط، ولأنه كان يقطن ناحية إيغل المنعزلة في آلاسكا، فقد صنع طقم الأسنان خاصته:

استخدم لأجل الأسنان الأربعة الأمامية أسنان ماعز الجبل. قال عنها إنها تشبه تقريباً أسنان البشر، سوى أنها أطول؛ لذا قصّرها بالمبرد. وراءها أربعة أسنان على

كل جانب، من أسنان أيل. ولأجل الطواحن استخدم أسنان دب... ثم صنع صفيحة الألمنيوم خاصته، وجعل فيها ثقوباً للأسنان، ووضعها في أمكنتها، ثم طَرَق الألمنيوم الساخن كي يثبتها. استغرق عمله هذا شهراً واحداً قام في أثنائه بصنع الأسنان العلوية والسفلية جميعاً. وقد بقيت في فمه لما يقرب من خمسة وعشرين عاماً. قال لي إنه تناول كثيراً من لحم الدب بواسطتها، لكن ليس الدّب صاحب الأسنان.

كانت هذه حياة بدوية بحق. كتب يقول: «لا منزلَ لدي. منزلي حيث يكون متاعي، وحيث أركن السيارة، وحيث يصادف أن أستلم البريد هذه المرة. منزلي هو أمريكا». قولٌ عظيم غير مميَّز لرجل كان على الدوام متواضعاً حيال نفسه (كان يخشى ألا يروق للناس) وحيال حاجاته. وما دوّنه في سجله اليومي بتاريخ الثالث من آب عام 1935 هو مثال على هذا:

غرفة لليلة واحدة	2.00 دولاراً
إفطار عدد 2	0.75 دولاراً
وقود (أندوفر ن. جي)	1.06 دولاراً
فاكهة	0.94 دولاراً
غداء عدد 2	2.20 دولاراً
	6.95 دولاراً

كثيراً ما دعاه الناس إلى النزول عندهم، غير أنه التمس عذراً على الدوام ونزل، بدل ذلك، في المنزل المحلي. كتب يقول: «تلتقيهم وتحادثهم وتلتقط المثير للاهتمام فيهم فتكتب عنه ثم تتابع المسير».

خلف هذا التعليق المقتضب الذي يصلح لفيلم من الدرجة الثانية يكمن قسط وافر من البراعة. لقد وجد بايل، مثل عدد كبير من الكتاب الجيدين ممن عملوا مراجعين ومدققين، أن هذه التجربة زادت من حدة بصيرته تجاه الخبر وأرهفت سمعه تجاه قولٍ أو تعليق جدير بالذكر، وصقلت مقدرته على صياغة عبارة قد تنفع كعنوان عريض. أضف إلى هذا كلّه عملاً دؤوباً لا يعرف الكلل. حمل بايل على مقعد سيارته الخلفي مكتبة ثريّة، إضافة إلى بطاقات فهرسة تبين خطوة بخطوة مراحل العمل على قصة ما وبعض الأفكار. وزار، في

كل مكان توقف فيه، الصحيفة المحلية والصيدلية ومحطة الوقود والمطاعم ومكاتب البريد وأي مكان آخر خامره شعور أنه قد يخفي بين جنباته مادة مهمة أو شخصية مفعمة بالحياة تصلح لتكون موضوعاً لعمود. فإن هو جمع ما يكفي لبضع مقالات، عاد إلى فندقه فأمضى قرابة نصف يوم يرصّن كل عمود، يدقّق التفاصيل الصغيرة ويقوم بالتغيير تلو الآخر بقلم الرصاص قبل أن يسلّم، في النهاية وعلى مهل، المقالةَ إلى زوجته جيري التي بدورها تقوم بطبع النسخة الخالية من أي عيوب وترسلها. بدت جيري، «رفيقتي في السفر»، مثلما عرفها قراء العمود، رفيقاً مثالياً. كانت اقتراحاتها لأجل المقالات اقتراحات جيدة في الغالب، قليلة الكلام حين يقود بايل السيارة، الأمر الذي راقه تماماً. لكن في مرحلة ما على درب السفر تحول الصمت الذي كان في أساسه احتراماً لعقل يركّز على الطريق، من جهة، وعلى العمود القادم، من جهة أخرى، إلى انعدام متعمد في التواصل، دلّ ذلك على اكتئاب حقيقي وخطر. وشيئاً فشيئاً أدمنت الخمر والعقاقير المهدئة وأخيراً البنزدرين، ما أرخى بظلاله عليه وعلى بايل لما تبقى من حياتهما.

استمرت حياة الترحال والكتابة على هذه الحال حتى أواخر عام 1940، عندما اقترح بايل عَرَضاً على رؤسائه في سكريبس هوارد أن يسافر إلى لندن لتغطية الحرب. ولقد دُهش عندما وافقوا لفورهم. فأبحر إلى إنكلترا على متن السفينة إكزتر يوم 16 تشرين الثاني ووصل لندن يوم 9 كانون الأول، وبعد عشرين يوماً أرسل مُراجعه السابق من إنديانا أفضل ما كُتب من مقالات عن قصف الألمان لندن بالطائرات:

ذات يوم عندما يعود السلام إلى هذا العالم القديم أريد أن أزور لندن ثانية وأقف على إحدى الشرفات في ليلة مقمرة وأشاهد التايمز الفضي الهادئ وجسوره المعتمة. وبينما أقف هناك، أود أن أحكي لشخص لم يرَ كيف بدت لندن ذات ليلة من ليالي صيف عام 1940...

في تلك الليلة حاصر الألمان لندن وحرقوها بالنار... فبعد وقت قصير من دوي صفارات الإنذار، تناهى إلى أسماعي أصوات الطائرات الألمانية تهدر فوق رؤوسنا. كان بمقدورك، حين تجلس في غرفتي بستائرها السوداء المسدلة، أن تحس بالاهتزاز

الذي تسببه المدافع وتسمع انفجار القنابل الثقيلة مرة تلو أخرى وهي تفعل فعلها في دكّ المباني و تقويضها...

جمّعت بعض الأصدقاء و خرجنا إلى شرفة عالية معتمة تطلّ على ثلث واحد من دائرة لندن كلها...

... اندلع حريق على مسافة قريبة كانت كافية لنسمع طقطقة ألسنة اللهب وصيحات رجال الإطفاء. ثم امتدت رقعة الحرائق واتسعت في حين وقفنا نراقب ... وفي المساحات المعتمة والظليلة تحتنا، سقطت دفعات كبيرة من القنابل خبط عشواء. رأينا دفعتين من القنابل تهويان في ثانيتين ... كان مفعول هذه الدبابيس البيضاء يبطل عندما يهيل عليها التراب أبطالُ اللحظة الراهنة غير المرئيين. لكن أيضاً، بينما وقفنا نراقب، انفجر بعضها الآخر، فشبّ في الحال لهب أصفر اللون في مكان سقوطها. لقد قامت بوظيفتها وها هي النار تندلع من مكان آخر...

شبّت أكبر الحرائق جميعاً أمامنا مباشرة. ارتفعت ألسنة اللهب مئات الأقدام في الجو وتصاعد دخان أبيض أحمر في غيمة عظيمة، ومن هذه الغيمة برزت شيئاً فشيئاً -بوهن شديد بداية حتى إننا لم نكن واثقين أننا نرى على النحو الصحيح- القبةُ العظيمة و أبراج كاتدرائية القديس بولس وقد أحاطت بها النار.

...في الأسفل أنارت القنابل نهر التايمز أكثر من ذي قبل، وعلى ضفتيه انتصبت أشباح الأبنية المعتمة والجسور التي شكّلت خلفية هذه اللوحة الفنية المخيفة.

...الشيء الوحيد الذي سأذكره أكثر من سائر الأشياء الأخرى التي شاهدتها في حياتي هو الجمال البري الذي انطوى عليه مشهد لندن في تلك الحالة وقد طعنتها نيران عظيمة وهزتها الانفجارات الهائلة وتلألأت أحياؤها المعتمة على طول التايمز برؤوس القنابل البيضاء، وغطى المشهدَ سقفٌ وردي اللون طوى تحته القنابل المنفجرة والمناطيد وألسنة اللهب وصرير المحركات الهمجية.

في أثناء موسم القصف المريع ذاك، كتب بايل أكثر ما كتب عن الناس بوجه عام، وعن أولئك المختبئين في الملاجئ بوجه خاص. وكتب عن مرابض المدفعية المضادة

للطيران، وعن مخافر الإنذار من الغارات الجوية، وعن الموظفين وسماسرة البورصة وهم يشاهدون الحرائق من على أسطح بناياتهم. والحق أن رؤساءه خبروا مع كتاباته لذة وحماسة عظيمتين. أبرق إليه روي هوارد يقول: «لم تُسبغ مقالاتك مزيداً من العظمة على مسيرتك المهنية وحسب، وإنما فاقت في تسليطها الضوء على الإنسان وما حملته في طياتها من وصف ملفت للانتباه كلّ ما نُشر في أمريكا منذ اندلاع معركة بريطانيا». غير أن ذلك لم يُقنع بايل تماماً. فقد كتب إلى زوجته يقول: «أعاني أكثر من أي وقت مضى الرهابَ وعقدة الدونية. لقد صار الخروج والتحدث إلى الناس مصدر رعب عظيم لي، أشعر أنني متآمر وجاهل، وأنني بلغت الأربعين ولّما تزل خبرتي قليلة إلى درجة أعجز فيها عن إقامة حوار مع جيل الشباب».

تغلب بايل على عفاريت الشك الصغيرة هذه، بيد أن زوجته لم تعد تقو على التعامل مع الشياطين الكبيرة التي سكنتها. وعندما طار عائداً إلى الوطن بعد أربعة أشهر، وجدها في قبضة «شخصية ثلاثية الوجوه»، مثلما دعاها في رسالة إلى أحد الأصدقاء. «الوجه الأول بهجة غامرة وافتتان بأناس لا تهتم لأمرهم البتة؛ والثاني عدوانية وخِسّة تجاه القلة التي تهتم لأمرها؛ والثالث سوداوية تكاد تدفعها إلى الجنون وإحساس بانعدام الجدوى والتشاؤم عندما تكون وحدها. ازداد مزاجها سوءاً بازدياد تعاطيها الكحول، و نزولاً عند اقتراحها. وبموافقة أطبائها وممرضتها ووالدتها، توصّلوا إلى علاج جذري: الطلاق، على أمل أن يصدمها ذلك ويدفعها إلى إدراك أن عليها أن تواجه الحياة كالآخرين». كتب بايل: «...فإن هي استطاعت استعادة نفسها في أثناء عام واحد أو نحوه، تزوجنا ثانية». غادر بايل منزله في الليلة ذاتها، تاركاً لها رسالة يقول في مستهلها: «عزيزتي، قلبي ينفطر أيضاً...»، وفي ختامها: «إن كان ثمة بصيص من أمل، فما من امرأة في العالم كله تستهويني...».

في هذه الأثناء دخلت أمريكا الحرب، وفي حزيران عام 1942 طار بايل ليغطي المعجة الأولى من القوات الأمريكية التي تتدرب في إيرلندا وبريطانيا. وفي تشرين الثاني، كان بايل على متن سفينة عسكرية متجهة إلى شمال إفريقيا، رست في الجزائر بعد أسبوعين من بداية الغزو. من بين تقاريره الأولى الجديرة بالذكر التي لم تثر في الوطن تلك الضجة العظيمة ولم يلبث تأثيرها أن تلاشى، ثمة تقريران عن السماح للمسؤولين الفرنسيين الموالين

للناتية بالاحتفاظ بمناصبهم وتنظيم أعمال التخريب. بعد ذلك بمدة قصيرة، وتحديداً في كانون الثاني عندما انتقل إلى القاعدة الجوية في بيسكرا، عاد إلى روتينه المفضل في الكتابة عن الناس البسطاء من أمثاله ممن وجدوا أنفسهم في خضم حرب لم يفهموها فهماً تاماً تقلهم إلى أماكن محفوفة بالمخاطر. يكتب بايل هنا عن المشهد في القاعدة الجوية عندما وقف الجنود محملقين إلى السماء يحدوهم أمل ضئيل في أن الطائرة المفقودة التي ذكرت التقارير أن النيران الأرضية أسقطتها ستنجح في العودة:

عندئذ وقع أمرٌ مثير... رأينا الطائرة – مجرد لطخة سوداء بالغة الصغر. بدت كأنها على الأرض تقريباً، فقد كانت منخفضة جداً، وأحسسنا الوهلة الأولى أنها كانت تطير بصعوبة، ولا تكاد تبقى في الجو، كانت تجرجر نفسها عائدة إلى الوطن، مشلولة ووحيدة، وقد تخلّفت عن البقية بساعتين... لطخة معتمة بعيدة تشق طريقها نحونا بجهد وبطء يدعو إلى الرثاء.

وقفنا جميعاً مشدودين، لا نفطن إلى وجود بعضنا. بدونا كأننا نجرّ الطائرة نحونا بأجهزتنا العصبية. أظنّ أن صورة لنا كانت ستظهرنا جميعاً نميل قليلاً إلى اليسار. لم يخطر ببال أي واحدٍ منا أن الطائرة قد تنجح أبداً في الوصول إلى المطار، لكنها كانت قادمة –ببطء شديد حتى شقّت علينا مراقبتها. بلغت الطرف المقابل من المطار، في حين لا تزال تحافظ على ارتفاعها المنخفض والمثير للشفقة. انزلقت فوق قمم الطائرات المتوقفة وتابعت الطيران... ثم لامست عجلاتها الأرض بنعومة. وبينما تهادت على طول المدرج، أدرك فجأة آلاف الرجال في أنحاء المطار الشاسع أن قواهم خارت وأنهم يسمعون قلوبهم تدق.

وها هو هنا يكتب عن عودة الرجال من الخطوط الأمامية في تونس في أيار 1943...

... يلتوي درب ضيق مثل شريط فوق إحدى التلال على بعد أميال، على طول منحدرٍ، عبر جدول صغير، صعوداً على منحدر وفوق تلة أخرى.

على طول هذا الشريط ثمة رتل رفيع من الرجال. لقد قاتلوا بضراوة طوال أيامٍ أربعة ولم يتناولوا سوى القليل ولم يغتسلوا قط، ولم يكد يغمض لهم جفن. كانت

لياليهم عنيفة بسبب الهجوم الذي تعرضوا له والرعب والقتل اللذان خبروهما. كان الأرق والتعاسة يسمان أيامهم بسبب إعطاب المدفعية. يمشي الرجال تفصل بين واحدهم والآخر خمسون خطوة، لأجل سهولة الانتشار. مشيتهم بطيئة، ذلك أنهم منهكون حتى الموت، وهو ما يمكنك معرفته حتى إن نظرت إليهم من الوراء. كل خطّ وكل انحناءة في أجسادهم تحكي عما هم فيه من إرهاق يتخطى احتمال البشر. يحملون على أكتافهم وظهورهم مناصب فولاذية ثلاثية القوائم وسبطانات البنادق الآلية وصناديق رصاصية من الذخيرة. تبدو أقدامهم كأنها تغوص في الأرض بفعل ما يحملونه من عبء ثقيل...

يمشون منتصبي القامة. لكن بطء كل خطوة يخطونها يفضح ما هم فيه من تعب مرعب. وجوههم سوداء وغير حليقة. فتية ورجال متوسطو الأعمار. ليس في عيونهم. وهم يمرون، كرهاً ولا حماسة، ولا يأساً ولا بهجة النصر الذي حققوه - ثمة فحسب ذاك التعبير البسيط الذي يرتسم على وجوههم كما لو أنهم باقون هنا إلى الأبد، يقومون بهذا العمل لا سواه.

يتحرك الرتل دون أن ينتهي قط. لا ينفك الرجال طوال العصر يلتفون حول التلّة ويختفون وراء الأفق. رتل واحد طويل متعب من رجال يشبهون النمل...

كان بايل في الثانية والأربعين في ذلك الوقت، رجلٌ صغير القد متعب، بل وهشّ (كان طوله خمسة أقدام وثمانية سنتمترات ووزنه مئة وعشر ليبرات فقط) يعتريه القلق بشأن حالة زوجته في الوطن أكثر مما يعتريه احتمال أن يُقتَل هو نفسه. ولم يكن مختلفاً في هذا عن الرجال الذين وجد نفسه إلى جانبهم. كان برفقتهم إذا لاذوا بخنادقهم عند مجيء القاذفات، وفهمهم عندما استغرقوا في الصمت لدى سماعهم أن الجندي الخفيف الظلّ في الفصيلة قُتِل، وانضم إليهم إن هم شتموا واشتكوا مما تنطوي عليه الحياة العسكرية من ضروب ذلّ غير جديرة بالذكر. وكما قال زميل سكنه في الجزائر، أ.جي. لايبلنغ، لم يتعامل بايل مع الحرب، على عكس مراسلين آخرين، بوصفها حملة عنيفة، أو فرصة لبلوغ المجد أو مغامرة صِبْية خطرة، أو عطلة بعيداً عن ملل العمل ورتابته في الأخبار الرياضية، بل تعامل

معها بوصفها «كارثة لا يمكن التخفيف من حدّتها». وعلى الرغم من الأسباب جميعاً التي جعلتها حرباً ضرورية ومبررة، فقد رآها على هذا النحو معظم الذين تورطوا فيها وأسرهم في الوطن. لهذا انسبب، ولأنه عرف من تجواله الدائم في أمريكا القارئ الوطني أفضل مما عرفه أي مراسل آخر سبقه أو جاء بعده، كان أن ضربت كتابته على وتر حساس. عند اندلاع الحرب، فقد كان عموده يُنشر في قرابة ثلاثين صحيفة يومية؛ ولم يلبث هذا العدد أن ارتفع إلى خمس وأربعين ثم ستين، وفي عام 1944، زاد العدد على مئة. وعندما انتهت الحرب، كانت كلماته تُنْشَر في ثلاث مئة صحيفة.

ثمة فائدة أخرى انطوت عليها سنوات الترحال تلك. عندما كتب عن الجنود، إذ لم يكن هؤلاء مجرّد أرقام بلا أسماء، «جندي من أركنساس»، أو حتى «الرقيب بيل (سكيتس) ميلر»، بل كان الجندي الأمريكي عندما كتب عنه بايل «العريف مارتن كلايتون جونيور، من 3ـ00 شارع برنستون، دالاس، تكساس»، «ضابط الصف إرنست بايك من سافوي، تكساس»، أو «الجندي فئة أولى وليام غروس من 322 شارع نورث فوستر، لانسنغ، متشغان». كان هذا أكثر من مجرد إحساس بأهمية المكان لدى الأمريكيين، فقد كان إيضاحاً بما لا يدع مجالاً للشك، في كلّ عمود تقريباً كتبه من الجبهة، أن الأعداد الهائلة في الجيش لم تكن مجرّد وحدات وألوية وفرق، بل كانت رجالاً حقيقيين من أمكنة حقيقية. لا ريب أن مراسلين كثراً كانوا ينظرون بازدراء إلى هذه اللمسات بوصفها ضيقة الأفق، لكن ليس بايل، كما لم يصف أي مراسلٍ آخر وصفاً أفضل حياة القوّات على الجبهة، هذه الحياة التي خلت، على حالها تلك ، من كل راحة:

لا يكاد يسعك تصديق حقيقة أن بمقدور البشر أن يتكيفوا على نحوٍ ملائم بهذا القدر مع نمط عيش يفوق بمقدار ضئيل مرحلة إنسان الكهوف...

لم يعرف هؤلاء الرجال طعم النوم في سرير طوال أشهر. ولقد خبروا هذا الشتاء القاسي ونجوا منه في حين ناموا في العراء على الأرض. ولم تُدفع لهم أجورهم منذ أشهر ثلاثة...

لا يخلعون عنهم ثيابهم ليلاً، باستثناء أحذيتهم. ولا يستحمون أكثر من مرة واحدة في الشهر... قلّة قليلة جداً من قوات الخط الأمامي حصلوا على مغادرة ... تقول

لي الممرضات إنه عندما يصل الجرحى ذوو الإصابات الخطرة إلى المشفى غالباً ما يغطون في نوم عميق دون عقاقير على الرغم من آلامهم...

... انعدام الراحة دائم. لا تنفك تحس بالبرد، وتغطيك القذارة على نحو شبه دائم... ما من كراسٍ أو أضواء أو أرضيات ممهدة أو طاولات. و ما من مكان تضع فيه أي شيء، أو مخزن تشتري منه أي شيء. ما من صحف أو حليب أو أسرّة أو أغطية أو مدافئ أو بيرة أو آيس كريم أو مياه ساخنة. حياتك مقتصرة هنا على الوقوف والقتال أو الاستلقاء والنوم، دون فاصل منشّط بينهما. لقد غادرت الهناءة والدّعة حياتهم.

قالت النيوزويك إن «مراسلين لا يحصرهم العدّ يغطون الحرب في شمال إفريقيا -وفيهم إرني بايل»؛ الذي دعته مجلة التايم «أكثر مراسل حربي مقروء في أمريكا»؛ وأوردت صحف مثل النيويورك وورلد- تلغرام مقالاته على صدر صفحتها الأولى؛ وقصّ القراء أعمدته وأرسلوها بالبريد إلى أبنائهم؛ وبدأت تنشرها صحف الخدمات مثل ستارز آند ستراييس. كانت النتيجة أن القوات لم تره كاتباً جيداً ودقيقاً و حسب، وإنما رأت أنه يمثّل صوتها. ولم يكن هذا إطراءً لا قيمة أو أساس له. ففي عمود من إيطاليا مطلع عام 1944، اقترح مايل أن يُمنح الجنود علاوة عندما يشاركون في معركة، على أساس أن الطيارين يُمنحون أجراً إضافياً على مهمات الطيران. وفي خمسة أشهر منح الكونغرس الجنود زيادة بنسبة خمسين في المئة عند المشاركة في الحرب، وعُرِف ذلك باسم قانون إيرني بايل.

كتب بايل في أثناء حملة شمال إفريقيا، وكذلك كتب من صقلية، وفي خضم هذا جميعاً افتقد جيري كثيراً حتى إنه رتب الأمر بحيث يتزوجها بالوكالة. في أيلول عام 1943 طار عائداً إلى الوطن، وأدرك المرة الأولى الوقع الذي خلّفته أعمدته. طلبت الـ وورلد -تلغرام مقابلته، وكذا فعلت إديتور آند ببليشر، ومخابرات الجيش والسفير البريطاني ووزير الحرب ستيمبسون والبنتاغون وشبكات الإذاعة- ألحت إحداها بشدّة حتى إنها عرضت عليه 1500 دولار مقابل حلقة إذاعية واحدة. رفض بايل العرض، ورفض عرضاً لإلقاء سلسلة محاضرات مقابل 25000 دولار. أراده مكتب المعلومات الحربية أن يعمل لحسابه في الإذاعة، كما فعل مكتب التجنيد في قوات جيش النساء وحملة وور بوند. حاصر أصدقاؤه والجنود القد مى

وأسر الرجال الذين كان معهم جميعاً فندقه في نيويورك بالاتصالات، ولحق به جامعو التواقيع، وطلبت الشركات منه الإعلان عن بضائعها، وأرادت هوليوود أن تحاوره حول فيلم مقتبس عن أعمدته. وبصرف النظر عن فراره كي يرى جيري في البوكويركيو ووالده في دانا، أدرك بايل الآن أنه وإن كان يفضّل إلى درجة كبيرة البقاء في الوطن، إلا أنه أوجد بكتابته واجباً تجده أناس كثر لا يسعه التنصّل منه. لقد تعين عليه العودة إلى الجبهة. كتب يقول: «أخاف ذلك وأخشاه، لكن ما باليد حيلة. أعرف آخرين كثر ممن يشعرون بالتردد أيضاً، وليس بمقدورهم حتى العودة إلى الوطن. وهنا يكمن صلب المسألة».

كانت إيطاليا المكان الذي قصده، وكان ذلك موقفه، ما دفع بوسطن غلوب إلى أن تنشر تقريره الأول تحت العنوان العريض «إيرني بايل يكتب ثانية» على صدر صفحتها الأولى. انضافت إلى قلقه المعتاد بشأن العمود معرفة أن الملايين كانوا الآن يعوّلون على كلماته، الأمر الذي صعّب عليه الكتابة. وجده مراسل الـ أسوشييتد برس دون وايتهد يعمل في غرفته ذات ليلة. نظر بايل إليه وقال: «هذه الكتابة مقرفة. يبدو أنني لم أعد قادراً على الاستمرار ثانية»، وكدليل على ذلك قذف في الهواء ثلاثة أعمدة. انتقى وايتهد أحدها، وكانت قصة الكابتن فاسكوف. إحدى أروع مقالات المراسلة الحربية وأكثرها إثارة للمشاعر في التاريخ:

الخطوط الأمامية في إيطاليا -عرفتُ في هذه الحرب ضباطاً كثيرين ممن أحبهم واحترمهم جنودهم، بيد أني لم أصادف قط أي رجل محبوبٍ بقدر الكابتن هنري ت. فاسكوف، من بلتون، تكساس.

... كنت في ذيل قافلة البغال ليلة جلبوا جثة الكابتن فاسكوف. كان القمر شبه بدر آنذاك، وكان بمقدورك رؤية مقدمة القافلة، بل وجزءاً من الطريق عبر الوادي في الأسفل. تحركت أشباح الجنود في ضوء القمر وهم يمشون.

استغرق جلب جثث القتلى أسفل الجبل المساء بطوله، وقد ربطت على ظهور البغال. كانت ممددة على بطونها على السرج الخشبي، تتدلى رؤوسها على الجانب الأيسر للبغل، في حين تبرز أقدامها من الجانب الآخر وتتحرك بطريقة خرقاء إلى أعلى وأسفل في حين يمشي البغل...

... وقف الجنود الذين يقودونها هناك في الانتظار. «هذه جثة الكابتن فاسكوف»، قال أحدهم بهدوء. حلّ رجلان وثاق الجثة عن البغل وحملاها فوضعاها في الظل بجانب الحائط الحجري، في حين أنزل رجال آخرون بقية الجثث. بقيت هناك خمس جثث في آخر الأمر، تتمدد واحدة تلو أخرى في تل طويل إلى جانب الطريق.

تحركت البغال التي استراحت من عبئها إلى حقل الزيتون. وبدا الرجال في الطريق مترددين في المغادرة. تحلقوا حول الجثة وأحسست بهم يقترون تدريجياً من جثة الكابتن فاسكوف، واحداً تلو آخر، لا بقصد إلقاء نظرة عليه، كما أظن، بقدر ما هو قول شيء أخير له، ولأنفسهم. وقفت قريباً منهم وكان بمقدوري سماعهم.

اقترب أحد الجنود ونظر إليه، ثم صاح: «اللعنة». هذا كل ما قاله، ثم سار مبتعداً... ثم اقترب آخر ووقف إلى جانب الضابط، ومال إليه، وتحدث هو أيضاً إلى الكابتن الميت، لا همساً وإنما بحنانٍ عظيم. قال:

«آسف حقاً، سيدي»

ثم جثم أحد الرجال وأخذ اليد الميتة بين يديه، وجلس هناك خمس دقائق كاملة على هذه الحال في حين تفرّس في الوجه الميت، ولم ينبس ببنت شفة طوال جلوسه.

وفي آخر الأمر وضع اليد على الأرض وجثا إلى جانبها وسوّى برفق ياقة قميص الكابتن ثم رتّب الحواف الممزقة من بزّته حول الجرح. انتصب واقفاً بعدئذ ومشى مبتعداً أسفل الطريق يغمره ضوء القمر، وحيداً...

كان غروف باترسون، محرر توليدو بّليد، يتحدث باسم كثيرين عندما وصف هذه القصة بأنها «أجمل قصة صحفية مكتوبة قرأتها في حياتي». في كانون الثاني عام 1944، نُشِرت هذه القصة على الصفحات الأولى عبر أمريكا، بل لقد أوردت إحدى الصحف، واشنطن ديلي نيوز، نصها الكامل على صفحتها الأولى دون عنوان. ونفدت

مبيعات الصحيفة جميعها. صار العمود الآن في أكثر من مئتي صحيفة يومية، وجاءت جائزة البوليتزر في حينها. ومع حقوق النشر والتوزيع والمبيعات التي حققها كتابٌ يضم مجموعة من مقالاته، اغتنى بايل.

عاد إلى لندن في أواسط شهر نيسان من العام 1944. حيث غطى تحضيرات الإنزال في النورماندي. وفي الثالث من حزيران كان على متن السفينة الحربية LST 353 المتوجهة إلى شاطئ أوماها. عُرِض عليه مضجع مريح على متن سفينة القيادة الخاصة بالجنرال عُمر برادلي أوغستا، بيد أنه رفض. نزل إلى الشاطئ في اليوم د1+:

كان يوماً مناسباً للتنزّه على طول الشاطئ. وثمة رجالٌ يغطون في النوم على الرمال، غفا بعضهم إلى الأبد. وآخرون يعومون على وجه الماء، لكنهم لم يعرفوا أنهم في الماء، لأنهم موتى. المياه ممتلئة بقناديل البحر الطرية بحجم راحة اليد. كان ثمة ملايين منها وفي وسط كل واحد منها شكل أخضر اللون يشبه تماماً ورقة البرسيم، رمز الحظ الطيب. نعم، اللعنة، الحظ الطيب بالفعل.

وبتاريخ 17 حزيران، أَتْبَعَ عموداً عن حطام المعدات العسكرية على الشاطئ بما يلي:

بيد أن ثمة فضلات أخرى أكثر إنسانية تمتد في خط رفيع عدّة أميال على طول الشاطئ، مثل العلامة التي يخلّفها المدّ بالضبط. إنها العدّة الشخصية المبعثرة، عدّة لن تُستعمَل مرة أخرى، لأولئك الذين حاربوا وقضوا كي يسهلوا لنا دخول أوروبا.

هاهي حقائب الجنود تتبعثر في نسق غير منتظم يمتد ميلاً بعد ميل. ثمة جوارب وملمع للأحذية وعلب خياطة ومفكرات وأناجيل وقنابل يدوية... ثمة فراشٍ للأسنان وشفرات حلاقة وصور للأسرة في الوطن تحملق إليك من الرمال. ثمّة دفاتر جيب ومرايا وسراويل إضافية وأحذية مدمّاة تخلى عنها أصحابها... ثمة أغماد أسلحة ممزقة و مطرات قماشية للماء وعلب للإسعافات الأولية وأكوام متفرقة من سترات النجاة. التقطتُ إنجيل جيب كُتِب عليه اسم جندي ووضعتُه في سترتي. حملته معي مسافة نصف ميل أو نحوه ثم وضعته على الشاطئ ثانية. لا أعلم لَمَ التقطته أو لَمَ أعدته.

يحمل الجنود معهم إلى الشاطئ أشياء غريبة. تجد في كل غزوة جندياً واحداً على الأقل ينزل إلى الشاطئ في ساعة الصفر وقد تدلت آلة بانجو الموسيقية على كتفه. أكثر المعدات التي تسم شاطئنا -شاطئ اليأس بداية، ومن ثم النصر- إثارة للسخرية هي مضرب تنس جلبه معه أحد الجنود. يستلقي هذا المضرب وحيداً على الرمال غير ممسوس بسوء.

بتاريخ 25 آب، كان بايل برفقة فوج الجنرال لوكليرك عند دخوله باريس، ووجد نفسه، في غمرة الاحتفالات، يقبّل الأطفال مثل سياسيّ ويقول: «كل من لا يضاجع امرأة الليلة هو مجرّد استعراضي». غير أن مزاج الانشراح لم يدم طويلاً. فقد مضى على وجوده ما وراء البحار تسعة وعشرون شهراً، وكتب ما يزيد على 700,000 كلمة، ورأى رجالاً يلقون حتفهم أكثر مما رأى أي شخص آخر. كتب يروي لقرائه: «بدا لي أنني إن سمعت طلقة واحدة أخرى أو رأيت ميتاً واحداً بعد فسوف أُجنّ. لا أظن أن بمقدوري المتابعة دون أن أجنّ». لذا أبحر عائداً إلى الوطن، منهكاً تماماً لكنه واثق أيضاً أنه يتخلى عن رفاقه. عاد إلى العروض التي صارت الآن مألوفة من محطات الإذاعة وجولات المحاضرات واللقاءات والدعوات (طبعاً لم يكن ليرفض بعضها، مثل الدعوة إلى تناول الشاي في البيت الأبيض بصحبة إليانور روزفلت). سأله أحد المدعوين: «قل لي، ما هو بالضبط الشيء الذي لا تحبذه بشأن الحرب؟». كتب بايل لاحقاً: «أظن أن الشحوب اعتراني، وكل ما فعلته كان أن نظرت إليه مصدوماً وقلت:(يا إلهي، إن كنت لا تعرف فليس بمقدوري أن أقول لك)». مرّ بهوليوود أيضاً؛ كي يتابع عن كثب أخبار الفيلم المقتبس عن أعمدته حكاية ج.آي. جوي. جرى العرض الأول للفيلم، الذي لعب فيه دور البطولة بورغس مريديث في دور بايل وروبرت ميتشوم في دور كان، في الواقع، الكابتن فاسكوف، في تموز عام 1945.

ومن بعد، كانت هناك جيري التي حاولت الانتحار مرتين ذاك الربيع. وعندما حان الوقت للتفكير في العودة إلى الحرب، احتار بايل بين واجبين متناقضين: البقاء إلى جانب زوجته التي اشتد عليها المرض على نحو متزايد، أو الكتابة متسائلاً عن حال الجندي الأمريكي على الجبهة الوحيدة التي لمّا يزرها بعد: الجزر في المحيط الهادئ. فاز الواجب الثاني كتب يقول: «سأذهب ببساطة؛ لأن ثمة حرباً تدور وأنا جزء منها... سأسافر ببساطة؛ لأنه يتعين

عليّ الذهاب – وإن كرهت ذلك». في كانون الثاني عام 1945، ودعته من سان فرانسيسكو، في مطاهرة للأمل الذي سافر برفقته الآن، فرقة الجيش النحاسية وألف رجل أخذوا بالتشجيع والهتاف. كان بايل قد وعد جيري (ونفسه) أن هذه ستكون رحلته الأخيرة.

أبحر بايل إلى غوام بداية، ثم سايبان، القاعدة التي انطلقت منها قاذفات ب - 29 في مهماتها إلى اليابان، وكان جزءاً من عمليات الإنزال على أوكيناوا. أحس بايل، مع كل عمل عسكري، أن حظه لن يدوم طويلاً. كتب إلى أحد زملائه: «لن أراهنك بسنتين اثنين على احتمال بقائي حياً بعد عامٍ من الآن». لكنه استغل الفرصة عندما سنحت ليكون بين أفراد فرقة المشاة السابعة والسبعين في حصارها آي شيما، جزيرة لا تزيد مساحتها على عشرة أميال مربعة. في اليوم الثاني على عمليات الإنزال التمهيدية، وفي حين لم يُؤمّن سوى شريط ساحلي ضيق. قصد بايل الشاطئ على متن رِد بيتش 2. وفي صباح اليوم الثاني كان في سيارة جيب يقودها الكولونيل جوزيف ب. كوليدج من هيلينا، أركنساس، عندما شرع رشاش ياباني في إطلاق النار على إحدى التلال فوقهم وهم يقتربون من مفترق طرق. ضغط كوليدج على الفرامل وغاص، مع بايل واثنين آخرين، في ترعة. في الفاصل ما بين انفجارين، رفع بايل رأسه وسأل كوليدج: «هل أنت بخير؟»، ثم انهال انفجار آخر فغطس كوليدج. وعندما توقف، التفت إلى بايل. كان يستلقي ووجهه إلى أعلى، وقد أصيب في صدغه الأيسر وفارق الحياة.

دُفن، بمراسم حربية تمت على عجل، في مقبرة مؤقتة على تلك الجزيرة الصغيرة، ودفن مهندس على أحد جانبيه وجندي مشاة على الجانب الآخر. صنع الجنود كفناً خشبياً وأصروا أن يرتدي بايل خوذته. كتب القس لاحقاً: «أحسوا أنه بدا طبيعياً أكثر على تلك الحال». وفوق الأرض المحفورة حديثاً نصب الرجال هذه اللافتة:

في هذه البقعة

خسرت الفرقة 77 مشاة

رفيق سلاح

إيرني بايل

18 نيسان 1945

ولما لم يعد لديها ما تعيش لأجله، بقيت جيري حيّة ما يزيد قليلاً على سبعة أشهر أخرى، و توفيت في البوكويركيو بتاريخ 23 تشرين الثاني 1945، لكنها أصرّت قبل ذلك: «لا يجب جعب جثة بايل إلى الوطن في مراسم تأبينية فخمة وإنما يجب أن ترتاح على الدوام برفقة أولئك الذين قضوا في حملة الهادئ». واليوم، يستقر جثمانه في المقبرة الوطنية الخاصة بذكرى من قضوا في الهادئ في بنشباول كراتر، على مقربة من هونولولو.

كان خبر مقتل بايل خبراً رئيساً من المحيط إلى المحيط. حملت التايمز نعياً شغل صفحة كاملة عنونته ببساطة «إيرني»، وانهالت برقيات التعزية، من الرئيس ترومان ووزيري الحرب والبحرية، والجنرالات من أيزنهاور، حتى مارك دبليو.كلارك. بل لقد كان صمت الآخرين أكثر بلاغة. عندما علم الجنرال عمر برادلي، دفن رأسه بين يديه ولم ينبس ببنت شفة بعض الوقت. على أي حال، لعل النعي الأكثر إثارة للمشاعر منها جميعاً، النعي الذي يود مراسل لو يحصل عليه، كان احتفاظ الناس بعمله، لا في الأرشيف أو المتاحف والكتب والمواقع الإلكترونية، وإنما داخل المنازل عبر أمريكا. لا تزال قصاصات أعمدته، وإن كانت قد اصفرت الآن، مطوية بعناية واضحة، محفوظة في أدراج التذكارات وعلب الجنود القصديرية وفي الإطارات على جدران مكاتب رجال تقدم بهم السن، وفي دفاتر القصاصات، أو تهوي بتثاقل على الأرض ما إن يُفتح كتاب عتيق.

دلّت معرفته بالأمريكيين العاديين التي حازها من رحلاته قبل الحرب جميعها أنه عرف أفضل من أي مراسلٍ آخر كيف يختار لغة مقالاته وموضوعاتها. لكنها أيضاً عنت أمراً آخر، أمرٌ ميّز علاقته الخاصة بقرّائه: أنه لم يخدعهم. فلم يحدث قط أن ادّعى أنه يعلم أكثر مما يعلمه، أو يردد رأي محرّر منظّر بما كان يكتبه، أو يعطي الأحداث منحى سياسياً، أو يحجب الحقيقة بحماسة وطنية منقطعة النظير أو ينغمس في العواطف. عندما لقي حتفه، كان ثمة تقرير أخير غير مُنته في جيبه عن نهاية الحرب في أوروبا، وبعد أن كتب عن مدى حزنه؛ لعدم وجوده برفقة أصدقائه في ذلك المسرح لحظة النصر، أضاف ما يلي:

ليس علينا في غمرة ابتهاجنا أن ننسى موتانا. لن يرغب أولئك الذين رحلوا أن يكونوا عبئاً حزيناً يلتف حول رقابنا. بيد أن ثمة أحياء كثراً نقشوا في أذهانهم إلى الأبد

المشهد غير الطبيعي لرجال موتى باردين تبعثروا على التلال وفي المستنقعات على طول الحدود العالية في شتى أنحاء العالم.

موتى بالجملة -في بلد تلو آخر- شهراً بعد شهر وعاماً بعد عام. موتى في الشتاء وموتى في الصيف. موتى يكتنفهم ذاك الغموض المألوف حتى يصيروا رتيبين. موتى بهذه الوحشية اللامتناهية حتى لتكاد تكرههم.

هذه هي الأشياء التي لا يتعين عليكم أنتم في الوطن أن تحاولوا حتى أن تفهموها. إنها بالنسبة إليكم مجرّد لوائح من الأرقام، أو مجرد قريب لكم خرج ولم يعد. لم ترونه ممدداً على هذه الصورة الغريبة جداً والشاحبة على جانب الطريق المفروش بالحصى في فرنسا.

نحن رأيناه، رأيناه بالآلاف.

لا يتعين على أولئك ممن يرون أن كل جيل من الصحافة أفضل من الذي سبقه سوى أن يتفكّروا ملياً في هذه الكلمات، ثم يقارنوها بتغطية الصراعات الأكثر جدّة، في الخليج والعراق. أيهما أصدق؟ و أيهما يخدم بلده أفضل؟ لا ريب أن إيرني بايل كان أمريكياً، وليس أي أمريكي، كان أمريكياً في الحرب، بيد أنه احتفظ بوطنيته الحقة للحقيقة.

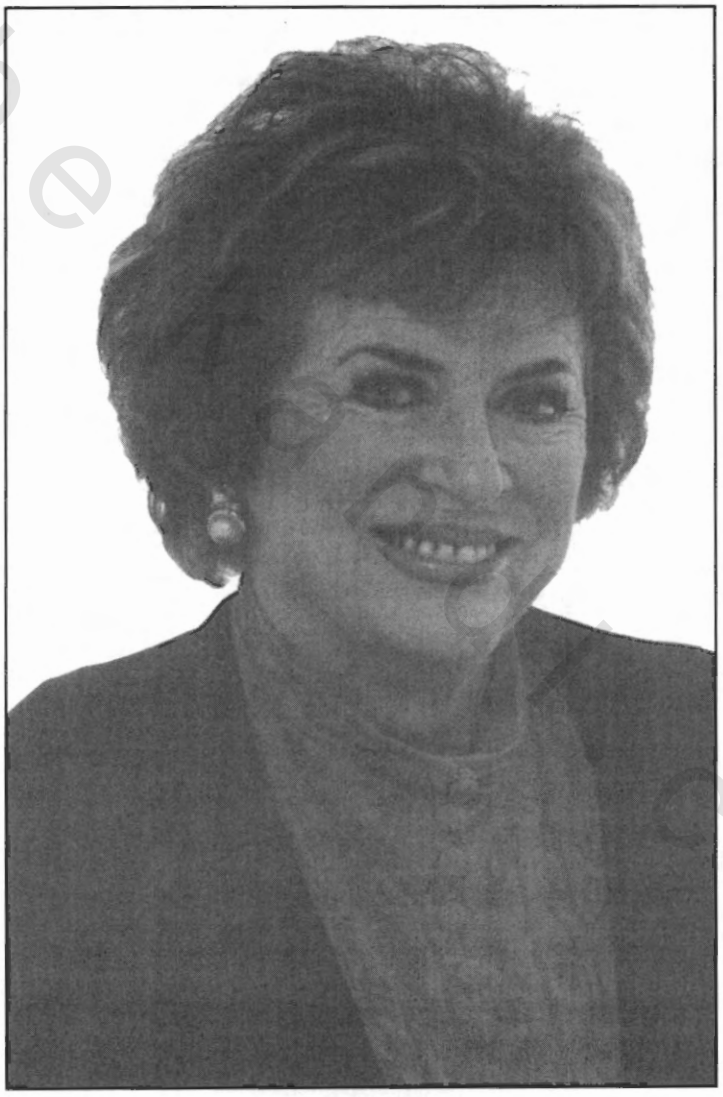

آن لزلي

12

آن لزلي

1941-

المراسلة الأكثر تنوعاً وغنىً في الموضوعات

أواخر صيف عام 1989، وإبّان تداعيات مذبحة ميدان تيانانمن، أخذت امرأة إنكليزية متوسطة السن تتنقل بين الذين بقوا أحياء من المنشقين وتجري معهم سراً لقاءات عبر مترجمها. بعد شهرين آخرين عبرت في سيارة ألمانية شرقية صغيرة عتيقة ما كان، قبل أربع وعشرين ساعة فحسب، حاجزاً لا يمكن اختراقه عند نقطة التفتيش تشارلي في برلين. وفي العام الآتي، كانت خارج أحد السجون في جنوب إفريقيا عندما أُطلق سراح نيلسون مانديلا. وفي الذي تلاه، قطعت إجازتها؛ كي تطير إلى موسكو وتشهد الانقلاب على غورباتشوف يتقيض في مهزلة زادت الفودكا من حماستها. كانت هناك في العراق عام 1991 تشاهد القوات الأمريكية تقف على الطريق إلى البصرة ويبكي أفرادها، في حين يرون الأسر العراقية تحاول عبثاً الفرار من فرق الإعدام التي أرسلها صدّام. وكانت في أحد مطارات نيو مكسيكو عندما ثبّتها بيل كلينتون المرشح للرئاسة بتحديقته الساحرة، ثم أطلق سراحها عندما تبين له أنها ليست ناخباً. وفي الجوار عندما قُصف سوق سراييفو، على مقربة أكثر عندما قال الصرب: إن الأمر برمّته خدعة قام بها المسلمون كي يخدعوا الغرب. وكانت هناك عندما سُلّمت هونغ كونغ للصينيين، وحين حُمل جثمان الأميرة ديانا إلى مثواه الأخير على بحرٍ من الحزن لفَّ الإنكليز جميعاً، وحين جعلت هيئة محلفين أمريكا تشهق عندما أقرّت أن أو. جي. سمبسون غير مذنب، وحضرت انتخاب بوتين، إبّان تداعيات 9/11، ومرة ثانية هناك عندما أتت الحرب إلى العراق. وكيفما اتجهت الأنظار في أواخر القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين كانت لزلي هناك.

وكانت حاضرة في الوقت الذي لم يرغب فيه أي مسؤول بوجودها هناك. متخفيةً، في الصين، تجري لقاءات مع المنشقين ثانية. في هنغاريا، عندما دمّر الجيش الأحمر في أثناء انسحابه كل ما وقع في طريقه وسمّم التربة بالنفط. في نيو إنغلاند، تبحث بفضول في عالم آل كينيدي الغريب. في السلفادور، عندما دخل المتمردون غرفتها في الفندق وذكّروها ببنادقهم أنه يتعين عليها الرحيل. في زنزانات المحكومين بالإعدام في فرجينيا، تسألهم عن شعورهم عندما حُكم عليهم بالإعدام. في كوبا، تبحث عن ابنة كاسترو غير الشرعية فتعثر عليها وتجري لقاء معها. على الحدود الكورية الشمالية، تتحدث دونما ترخيص إلى ضحايا المجاعة الرهيبة في تلك البقعة النائية. في غرفة في موسكو، تسأل رجل الأعمال الأكثر إثارة للخوف في روسيا، عن صفقة قتل. وفي طهران، متخفية في الرداء الرسمي الذي يغطي المرأة المسلمة من رأسها إلى أخمص قدمها، تلتقي بالمنشقين تحت جنح الظلام. زارت آن لزلي هذه الأماكن كلّها.

وكانت حاضرة أيضاً لتسجّل قصصاً أخرى: حفل للرولينغ ستون؛ مصارعة لسومو؛ الحياة الجنسية للأميرة ديانا؛ مسابقة وطنية في رقص الديسكو؛ ذوق شيري بلير المميز في الأزياء؛ اضطرابات الأكل لدى المراهقين؛ مسابقات انتخاب ملكة جمال العالم؛ النزاعات على الحدود بين سكان الضواحي؛ أحذية إميلدا ماركوس. وأجرت لقاءات مع ميخائيل غورباتشوف وخوليو إيغليسياس، ومع إنديرا غاندي، ولاعبي تنس سويديين، ومارغريت تاتشر، وشيرلي ماكلاين، ورئيسين أمريكيين، وبطل العالم في الملاكمة للوزن الثقيل، وأفضل عارض أزياء في أوروبا، وثلاثة محكومين بالإعدام، وأميرات عربيات، وضيوف في برامج حوارية، وإرهابيين كثر، ومصابين بجنون العظمة، ومجموعة من الديماغوجيين، وآندرو لويد وِبر. وأوردت تقاريرها السلسلة الكاملة من الشخصيات السيئة الصيت في أواخر القرن العشرين بدءاً بعيدي أمين وصولاً إلى بيازا دورا. لم يسبق أن كان لها مثيل بين الصحفيين، فعلى مدى ما يزيد على أربعة عقود، كتبت آن لزلي من أكثر من سبعين بلداً عن مجموعة من الموضوعات قلّ نظيرها.

ربما ليس مفاجئاً أن هذه المرأة التي قضت قسطاً عظيماً من حياتها تتسلّل إلى أقل الأماكن إثارة للبهجة فتستكشف ما تنطوي عليه من عادات غير صحية، أن تكون حفيدة

أوّل مهندسة صرف صحّي في العالم- ماري مارتن، رائدة في مجالها مارست حرفتها في الحي الشرقي من لندن، لكنها قضت الشطر الأكبر من حياتها في الصين حيث عُرِفت بـ الجدّة مينغ؛ أما أجداد لزلي المباشرين فكانوا هامشيين وأقل غرابة في أطوارهم. وُلِدت لزلي لرجل نفط ثري، فيما يُعرف الآن بباكستان، عام 1941. قضت طفولة غير طبيعية كون والدتها امرأة ابتليت، كما قالت لزلي لاحقاً، بجمال يفوق التصديق، وبدت آنذاك متجاذبة وجدانياً حيال وجود ابنتها ذاته. وبفعل الغياب الدائم لهذه الشخصية الاجتماعية غير الأمومية، كان المصدر الرئيس للحب والحنان لدى الصغيرة لزلي هو خادم والدها، ياه محمد. فعندما تحتاج إلى من يخفف عنها تهرع إليه دون أي شخص آخر، وعشقت هذا المسلم الأمي بشدة تفوق الاحتمال؛ وقد بادلها ياه محمد مشاعرها هذه. تعامل بهدوء مع أفعى مميتة اقتحمت غرفة نومها، وفي أثناء مجزرة كلكتا عام 1946، عندما ذبح المسلمون والهندوس بعضهم في الشوارع في حين كانت هذه المسؤولة الصغيرة تتجوّل، خاطر ياه محمد بحياته في الأزقة والشوارع الخلفية حتى عثر عليها وحملها إلى برّ الأمان على ظهره، كانت شجاعته تستحق الإعجاب، ذلك أنه كان في خطر من العنف الطائفي أكبر بما لايقاس مما كانت هي فيه، حقيقة ذكرتها بعد قرابة خمسين عاماً في وصفها رحلةً قامت بها برفقة والدتها عام 1947:

قَعْقَع القطار الهندي الطويل ودوّى حتى توقّف في مكانٍ ما وسط اللامكان. ساد صمت مفاجئ ثم تعالت الصرخات. ضمتني والدتي إليها وغطّت عينيَّ وطلبت مني ألا أخاف، إذ لا شيء يدعو إلى الخوف. ولم يكن بالفعل ثمة ما يدعو إلى الخوف، ليس بالنسبة إلينا، على الأقل ... نحن في المقصورة الرثّة التي غدت لاحقاً قطارات الموت؛... في فورة الانغماس في حمام الدم الطائفي قُتِل قرابة مليون شخص وشُرِّد على الأقل أربعة عشر مليوناً... لِمَ لم أقتل ووالدتي في ذاك العصر الصيفي المهول؟ لأننا نحن، المدعوين، الظلّام الكولونياليين، لم نكن مهمين... لم نكن هدف المسلحين السيخ الذين كمنوا للقطار... بعد أعوام عدّة، حكت لي والدتي كيف أن القطار، عندما تحرك ثانية، كان مغطّى بالدماء والجثث، رجال ونساء وأطفال، وقد دُقَّت رقابهم. تبعثرت مزيد من الجثث في التراب المدمى على طول الطريق.

كانت في السادسة فقط الفتاة التي ستغدو في قابل الأيام مراسلة مختصّة بالشؤون الخارجية.

طلب الكولونياليون الملاذ من الاضطرابات الدينية التي تشهدها المدينة، ومن قيظ الصيف في المنتجعات الجبلية. كانت أوتاكاموند هي المنتجع الصيفي لأسرة لزلي، نسخة مبهرجة ومعاد تصنيعها من قبل إدواردیان شوري، اكتملت بفلل ذات جمالونات سُميت «Iris Cottage» كوخ النرجس و«Sunnyside» الجانب المشرق، ولأجل الصغيرة آن، مدرسة ابتدائية اسمها مدرسة القديسة هيلدا. لكن العادة الكولونيالية كانت أن يُرسل الأطفال، عندما يبلغون العاشرة أو الحادية عشرة، إلى الوطن؛ كي يتعلموا، لذا، أُرسلت لزلي في حينه- دون والديها ودون ياه محمد- آلاف الكيلومترات إلى المدرسة في إنكلترا. أمضت إجازاتها الطويلة برفقة والديها حيثما كانوا (في العشرين، كانت قد أضافت باكستان وأفغانستان والعراق إلى لائحة الأماكن التي دعتها: الوطن)، وفي هذه الأثناء فازت بمنحة دراسية لتدريس الإنكليزية في ليدي مارغريت هول، أوكسفورد. لم تكتب في أثناء أعوام ثلاثة سطراً واحداً في الصحافة الطلابية، لكن عندما أزف موعد إنهاء التخرج بدت وظيفة المراسل أكثر الخيارات المتاحة إيجابية. وعندما قررت ماذا تريد بالضبط أن تفعل بحياتها، تقدّمت إلى مقابلة مع الديلي إكسبرس، وحين مثلت في الموعد المحدّد أمام المحرر في لندن، سألها شخص مزاجيّ لم ينظر إليها قط بضعَ أسئلة عابرة، ثم أعلمها، بطريقة بدا فيها الرفض وارداً، أن تبدأ عملها في مانشستر يوم الإثنين. ودون أن تُظهر استعداداً أو حماساً كبيرين، وجدت لزلي نفسها صحفيّة في صحيفة وطنية في سنّ الحادية والعشرين.

لم تلبث حيثيات الحياة في مدينة إنكليزية جنوبية أن بددت كل فتنة حاضرة. كتبت مانشستر مريعة، حيث قالت لجوهان هاري من إندبندنت أون صنداي في لقاء عام 2004:

كرهني محرّر الأخبار لحظة دخولي المكتب. كنت كلّ ما يكره- امرأة، متضمخة بالعطر، قَدِمَت من الشمال، تلقّت تعليمها في أوكسفورد... كنت قد قرأت كوزموبوليتان -أو أياً كانت نظيرتها- حول كيف يجدر بامرأة موظفة أن تلبس، لذا ابتعت بزّة رخيصة جداً. علّق أحد الرجال في المكتب: لستِ في بلاد السافو يا آنسة؛ وفي أوّل أيامي قال محرر

الأخبار المتوحش هذا إنني حللت محلّ صحفي بارع؛ الحق أنه لو لم يكرهني بهذا القدر ولو لم أكرهه لكنت على الأرجح تركت الصحافة فوراً، غير أن القساوة دخلت قلبي وقررت أن أترك العمل بناء على شروطي الخاصّة.

ولذ عقد هؤلاء الظرفاء عزمهم على إثبات أن جامعة الحياة أرفع مقاماً وأسمى من أوكسفورد، أرسلوها إلى المعارض الحرفية في المقاطعات؛ كي تعمل وحدها على إنتاج طبعات خاصة تتألف الواحدة منها من ثماني صفحات، وأرسلوها لإجراء اتصالات بالشرطة مع علمها أن أي تفاصيل واعدة تحصل عليها من سجلّ اليوميات سيُحتفظ بها لأجل محرّر أخبار الجريمة، وأخفوا عنها النظام الداخلي لـ إكسبرس، الذي دونه لم يكن أي صحفي من العاملين سيأمل معرفة الكليشهات وضروب السلوك غير السوي التي أصرّت عليها الصحيفة آنذاك (كانت كل الأطعمة المشوية على العشاء، على سبيل المثال، لحوماً كثيرة العصارة غير ناضجة)، وكل مهمة تتطلب جماعات تتحول تلقائياً إلى عمل مقيت. وارتدى المصطافون يوم العطلة القمصان، على الدوام، ما لم يكن الثلج قد غطى الأرض فعلاً؛ استجابت لزلي مرةً بدموعها وأخرى بصرير أسنانها، بحسب ما رأت أنه أجدى وأنفع، ولم تحقق سوى تقدّم طفيف إلى أن أُرسلت إلى أولدهام؛ لإجراء لقاء مع قزم قال إنه كان في مدرسة واحدة مع كاري غرانت. استمتعت لزلي بما قدّمه لها موضوعها من كميات وافرة من مخزونه غير الشرعي من الخمور، ومن ثمّ كشفتها زوجته، بما يمكن أن يُدعى جرماً مشهوداً صحفياً. (ألقت نظرة على زوجها المخمور، وقد حول عينيه بفعل الخمر وهذه الشابة الغريبة، قالت لزلي لهاري، وطاردتني حتى خرجت من أولدهام)؛ عندما عادت إلى المكتب، دوّنت اللقاء الذي سبّب نهايته المبكّرة، وأُخذ المحرر الليلي بالقصة فأوردها مع تعريف مؤطّر بكاتبتها، وكان هذا آنذاك المكافئ الصباعي في الـ إكسبرس لمسيرة طبول. وبصرف النظر عن الاستجابة الجلفة التي صدرت عن مكتب الأخبار أُرسلت في اليوم الثاني لتغطي نزاعاً على حضانة ببغاء أسترالية بين جارين في ستوك بورت - وألّفت من هذا قصة مشوّقة، وهكذا حققت تقدماً في الكتابة بين هذه الأمزجة المختلفة.

نافستها أيضاً بعض الوقت مراسلة أكبر سناً تُدعى بيغي روبنسون. رأت روبنسون أن من الضروري ارتداء بزّة مموّهة كي تغطي بنينس، منطقة ريفية شمال إنكلترا ذات جمال كئيب، لكن في الحقيقة، تحوي قلّة من القنّاصين. تعلمت لزلي من هذه الشخصية المتحمسة للقتال بعض المهارات التي رأتها آنذاك ضرورية لممارسة الصحافة في إنكلترا: ذخيرة واسعة من الألفاظ البذيئة، وحيلة إزالة طبلة الهاتف من الهواتف العامة فلا يقدر منافسوك على استعمالها، وكيفية تعطيل سياراتهم كي تتقدم عليهم.

كان ذلك في مطلع ستينيات القرن العشرين، حيث نفذت أخيراً ثقافة الشباب، التي بدأت قبل أعوام عدّة، إلى عقول الرجال الذين أداروا الـ إكسبرس. ولدهشتهم العظيمة، وجدوا أنّ العالم، إضافة إلى كونه مسكوناً بمصطافين يرتدون القمصان ويتناولون لحوماً مشوية كثيرة العصارة غير ناضجة وهم يقرؤون عن mercy dashes وعن نجمات السينما الصاعدات وعلاقاتهنّ الغرامية ثلاثية الأطراف، ضمَّ أيضاً بشراً تحت سنّ الخامسة والعشرين ممن لم يكونوا بالضرورة أغراراً، أو طلبة مدرسة. أُسّست صفحة الشباب، في أثناء بحثهم في غرفة الأخبار عن شخص يملؤها، استقرّت أنظار المحررين في الصحيفة على المرأة التي نظروا إليها حتى ذلك الحين بوصفها موظفتهم ذات الثقافة الواسعة، التي تحوّلت في أنظارهم الآن وعلى الفور إلى الحسناء الشقراء ذات الواحد والعشرين ربيعاً، آن لزلي. وجدت لزلي نفسها وقد نُقِلت من عملها السابق وأخذت، بدل ذلك، تجري لقاءات مع فرق غنائية من المدن الشمالية، من قبيل فرقة البيتلز التي كانت شبه مجهولة آنذاك. كانت النتيجة مقالة مسلية نوعاً ما، عدّها المسؤولون تواكب الدارج بالقدر الكافي، ما ضمن لها أن تُستَدعى سريعاً إلى لندن، حيث أفرد لها المحرر روبرت إدواردز مساحة على الصفحة الأولى وكتب عنها عموداً عنوانه اسم جديد مثير- على الرغم من أنها في الثانية والعشرين فحسب. وبالإضافة إلى شبابها، استغلت لزلي نظراتها الساحرة، ففي حين افتقدت جمال والدتها الأسطوري (ما دفع، من بين معجبين آخرين، المخرج السينمائي ديفيد لين أن يخرّ عند قدميها، والشاعر المشهور جون بيتيمان أن يبدع)، كانت مستعدة أتم استعداد لتتأنق وتتزين كي تحصل على قصة. ففي أيار عام 1966، على سبيل المثال، طار محمد علي إلى بريطانيا، جالباً معه حاشيته وحبّه المشهور لـ «الثعلبات الصغيرات»، كما عُرِفت آنذاك

الشابات بتنانيرهنّ القصيرة وتبرّجهن المبالغ فيه. وعلى أمل أن تحصل على بضع دقائق مثيرة من الرجل العظيم، هرعت نصف الصحف في شارع فليت إلى مطار هيثرو وانتظرت في ردهة الوصول. وقفت لزلي بعيداً عنهم، ترتدي ثوباً قصيراً زاهياً دون أكمام، وتتزين بنظارات تستقر على أنفها المكسو بمساحيق التجميل، وتحاول جهدها أن تبدو كما لو أن لا علاقة لها بحشد الصحفيين. آتت حيلتها هذه ثمارها -بالإضافة إلى همسة مع وكيل أعمال كان يتسكع في الجوار وبرفقته معارف علي. وعندما شقّ أشهر رياضيّ في العالم طريقه بين الصحفيين، لمحها وسألها إن كانت تريد لقاءً مع البطل، وقادها إلى الرولز رويس المنتظرة. وبينما سارت السيارة حاملة عليّاً وهذه البطلة الشابة الجديدة الغامضة، وتاركة وراءها المراسلين وقد فغرت أفواههم، لم تستطع لزلي أن تقاوم إنزال زجاج النافذة والصراخ: في الحقيقة، أنا آن لزلي من الـ ديلي إكسبرس وقد سبقتكم جميعاً.

بمقالتها عن علي، توّجت لزلي بالنجاح سمعتها بوصفها محاورة، وأُرسلت في الأعوام القليلة التي تلت، في حين ظلّت حبيسة دورها المقولب كممثلة لجيل الشباب، كي تنتزع أقوالاً مثيرة للاهتمام من الموضوع الرئيس والأثير آنذاك: زوجات المشاهير. لم يكن هذا ما طمحت إليه، خصوصاً عندما أُرسلت المرة الثالثة لإجراء لقاء مع زوجة كابتن المنتخب الإنكليزي للكريكيت، بل كان ما طمحت إليه هو تغطية الأخبار، ويفضّل أن تكون أخبار ما وراء البحار. وهو ما أراده أيضاً محرر الشؤون الخارجية في الصحيفة، ديفيد إنغليش. أرسلها في بعض المهام، في الولايات المتحدة بوجه خاصّ، وعيّنها مديرة مكتب الصحيفة في نيويورك، لكن بعضهم قال له: لا يمكن لامرأة أن تدير مكتباً. لذا تركت الصحيفة وعملت مراسلة مستقلة، فكتبت من أماكن مثل أستراليا وجزر الباهاما وفيجي لحساب مجلّات راقية مثل كوين ونوفا، وغطّت، من بين أخبار أخرى، محاكمة مانسون في لوس أنجلس. بل عملت بعض الوقت بصفتها محررة للصور القادمة من أوروبا في البلاي بوي، وإن لم تظهر مهاراتها في الغرفة المظلمة على الصور التي كانت آنذاك الهدف الرئيس للبيع لدى المجلة في هذه الأثناء. كان ديفيد إنغليش قد غدا محرراً أولاً للـ ديلي إسكتش، ومن ثم للـ ديلي ميل، التي حوّلها إلى أكثر صحيفة مرهوبة الجانب في الصحافة البريطانية. وكان سرّه هو، أولاً،

أن يعكس على أتمّ وجه اهتمامات إنكلترا الوسطى (تكتيك حاولت الصحف المنافسة تقليده بيد أن أياً منها لم يستمر بالحماسة ذاتها)، وثانياً، استثمار مبالغ مالية ضخمة في المراسلة (سياسة لم تستنسخها الصحف الأخرى على نطاق واسع). وكانت فكرة العمل لحساب إنغليش ثانية، مع معرفة أن بحوزته المال لإرسالها في مهمات بعيدة المدى، هما ما أغرى لزلي بالعمل لحساب الديلي ميل.

على هذا النحو بدأت لزلي مدة زادت على ثلاثين عاماً استعملت فيها فضولها القاتل في مختلف بقاع العالم، أحياناً في الحروب والأزمات الراهنة، وأحايين أخرى في حالاتٍ و موضوعات لفتت انتباهها أو انتباه إنغليش. وفي أثناء ذلك، طوّرت ما غدت لاحقاً إحدى علاماتها الفارقة: التقرير المتعدد الأجزاء، ففي عام 1975، على سبيل المثال، كتبت سلسلة نساء الإمارات العربية المتحدة، اخترقت فيها حاجز الحُرُم (لفتت النظر إلى أن الحُرُم ليست المواخير البيتية التي يختلقها خيال الرجل، وإنما البيوت التي تقطنها زوجات الرجال الذين حكموا حديثاً إمارات الخليج الغنية بالنفط؛ التي تحلّت إحداها، أبو ظبي، بالصدق فحملت على نقودها المعدنية نقوشاً تمثّل حفارات النفط). وكتبت عما كان يُعرف آنذاك باسم روديسيا، التي حاربت أقليتها البيضاء في مواجهة المتمردين للحفاظ على سيطرتها. وكتبت عن أكاديمية هثرنغتون للرقص التي قدمت عرضاً مسلياً عن Here,s Entertainment، دعماً لصندوق تقاعد حرس الحدود. ثم جاءت سلسلة «China Exposed»، عام 1979، أمضت في أثنائها أمسية غير مرخصة مع تشياني وغلاديس يانغ، اللذين يقضيان حكماً بالسجن أربعة أعوام لجريمة لم تحدّد قط، ثم أجرت لقاء مع أحد القضاة وعلمت منه حيلة النشالين الصينيين المفضّلة وهي تعقّب ضحاياهم إلى المراحيض العامة ومن ثم، عندما يجلسون لقضاء حاجتهم، يقبضون عليهم وقد أنزلوا سراويلهم. والتقت عاشقين مثاليين يعملان على مخرطة (عندما سألت لزلي الفتاة عما جذبها إلى صديقها قالت الأخيرة: حملت شكراً عميقاً ليانغ لمشورته في مساعدتي على تحسين أساليبي في العمل على المخرطة). وكتبت عن القديسين الشيوعيين، أمثال شيه شوان سيانغ، الخياط المثالي؛ وتشن تاي- شان، عامل السيارات المثالي؛ ولي فنغ، الجندي المثالي:

جالت معارض لي فنغ أنحاء الصين، عارضة صور حقيقية لـ لي فنغ يساعد عجوزاً في قطع الشارع، لي فنغ يقدّم غداءه لرفيق نسي حقيبة غدائه، لي فنغ يغسل سراً ثياب رفيقه. فيالها من مصادفة عظيمة أنه كلما قرر الجندي المثالي القيام بعمل نبيل سري جداً مع حقائب الغداء أو العجائز أو توافه تخصُّ جنوداً آخرين، صادف أن كان ثمة مراسل رسمي حاضر.

فإن هي لم تنهمك في العمل على سلسلة، عملت على مجموعة مقالات رائعة: العنف في زيمبابوي ذات أسبوع، يليها في الأسبوع الآتي مقالة عن المسابقة المصغرة لانتخاب ملكة جمال المملكة المتحدة؛ جرائم قتل الأطفال في أتلانتا ذات شهر، يليها في الشهر الآتي تغطية لـ"تم ديفيد نيفن؛ الجريمة في سنغافورة؛ جولة ملكية؛ حملة انتخابية؛ ليلة في ملاهي لندن الليلية؛ كي تحاول إيجاد مصدر الإغراء الذي دفع كنّة دوقة بدفورد إلى أن تبذّر ثلاثة ملايين جنيه إسترليني في أقل من ثلاثة أعوام. وأجرت لقاءات مع ساسة يساريين إشكاليين، ومع التسوية غير ماين غرير، والأمير تشارلز وروجر فاديم، ومع إيميلدا ماركوس في إحدى لقاءاتها الأخيرة قبل سقوطها؛ لم يمض وقت طويل على هذا اللقاء عندما اضطّرت المبذّرة الفليبينية إلى الفرار من البلاد برفقة زوجها، مخلّفة وراءها 1200 فستان، 200 مشد، 500 صدرية، 1000 بنطال، 6000 حذاء. كتبت لزلي لاحقاً: كانت المرأة الأكثر غروراً التي قابلتها في حياتي، وهو تعليق من الأهمية بمكان حيث إن مجموعة لزلي الخاصة من سيدات مكبث ضمّت أيضاً إليها تشاوشيسكو الرومانية وميرا ميلوزوفيتش الصربية، اللواتي كان حجم شعرهنّ المستعار -كما علّقت لزلي- دليلاً ثابتاً على تخبّط أنظمة زوجيهما؛ كان تعليقها هذا في محلّه. إن ما أعطته لزلي لقراء ميل كان مراسلة ملتزمة أشدّ الالتزام، كما في كتابتها في آب عام 1987 عن جيم وتامي باكر، الداعيَين الإنجيليَّين على شاشة التلفاز الأمريكي اللذين صلّيا مع مريديهما المؤمنين ولأجلهما، ولم يلبث أمرهما أن انكشف وصدمت سمعتيهما:

قال لهم جيم وتامي: إن الله شاء أن يصير المؤمنين ممن اهتدوا أغنياء، تماماً كما صار الملحدون. إن صليتم لأجل مقصورة للتخييم، حثَّ جيم مريديه بمكر، فلا تنسوا

أن تقولوا له ما لونها؛ لقد جعل المقدس يبدو مثل مغناطيس سماوي يجتذب الطلبات بالبريد- لكن بدل أن ترسلوا مدخراتكم وشيكات تقاعدكم إلى السماء، أرسلوها إلى جيم وتامي باكر. فإن لم تصل الثلاجة قط وبقيت مقصورة التخييم حلماً مستحيلاً (ليس لأنكم أرسلتم النقود إليهما)، فإن ذلك ليس خطأ جيم وتامي بل خطأكم أنتم؛ لأنكم لم تؤمنوا بالقدر الكافي.

وفي نيسان عام 1987، كتبت عن معسكر «Hell» (الجحيم) في اليابان، مكان كئيب دو ساحة تدريب متجمّدة وسلالم حديدية وعسكر وأضواء كاشفة، لكن دون مدد استراحة أو تلفاز أو زيارات، حيث يعمل السجناء ست عشرة ساعة يومياً:

... رأيت رجالاً ينشجون كالرضّع ويقهقهون بجنون وينهارون على الأرض بيأس ويتحملون إهانات لا تنتهي على أيدي حُرّاسهم؛ ولماذا؟ ما الجرائم التي ارتكبها هؤلاء النزلاء؟ لا شيء. هؤلاء موظفون محترمون مطيعون للقانون. إنهم المكافئ في اليابان لذاك السيد تومبكينز اللطيف في قسم المبيعات أو السيد بندل المرح، الرائد في مجال التخطيط المستقبلي. ليس هذا معسكراً لأسرى الحرب، وإنما دورة تدريبية يابانية في الإدارة.

... على الرغم من مضي ساعتين على استيقاظهم، لا زال هؤلاء الموظفون المنحوسون بلا إفطار. في أحد المهاجع، يرمي أحد المرشدين على الأرض أغطية وملاءات من الخزائن ويصيح بالنزلاء؛ فأسياد الصناعة اليابانية هؤلاء لم يطووا ملاءاتهم بالشكل الملائم، مما يوجب عليهم أن يفعلوا ذلك ثانية. في غرفة أخرى، ثمة مجموعة من الرجال يجثون على الأرض وقد انكبّوا على بعض الأوراق. إنهم يكتبون، رسالتهم اليومية إلى رؤسائهم، يصفون فيها ما يحرزونه من تقدّم. يقرأ هذه الرسائل مرشدون- ويصححونها تبعاً لمدى التزامهم بصيغة محدّدة.

لم تكن معظم قصص لزلي فاكهة ريّانة تتدلى من أشجار الرسميين بانتظار أن يقطفها برويّة كل من يقرأ بياناً (لم يحدث قطّ، على الأرجح، أن كتب أي مراسل آخر بهذا القدر

وستخدم كلمة «ناطق» بهذا النحو المتكرر). بل تعيّن عليها أن تتقّب عنهم، متخفية أحياناً، أو بتقديم نفسها، في أحايين أخرى، بوصفها أبعد من أن تكون مراسلة مختصّة بالشؤون الخارجية، كما حدث معها في أول مهمة خارجية رئيسة، في الستينيات من القرن العشرين؛ كي تتابع المحاكمات المتعلقة بجرائم المخدرات في المكسيك. فبينما كانت تتجول في منطقة ريفية نائية تنبهت أنها وقعت في كمين نصبه رجال مسلحون قفزوا من مكمنهم في أكمة الصبار. والحال أنهم هم، على الأرجح، من أُخِذ على حين غرّة، ذلك أنهم رأوا لزلي تتجه صوبهم وقد ارتدت، كما لو أنها قاصدة آسكوت، ثوباً أبيض وأصفر مطبّعاً وقفازات بيضاء وحقيبة يد من اللون ذاته. لذا أخفضوا بنادقهم كما يجب. اكتشفت لزلي أيضاً فائدة أن تلعب دور ما دعته «المرأة الصغيرة العقل»، خصوصاً في الثقافات الذكورية التي تغذّي الحروب والتمرّدات. وفي إسهام لها في كتابٍ عنوانه أسرار الصحافة، كتبت:

> حتى أكثر الأمثلة عن الرجولة المحلية وقاحة وفساداً أخلاقياً وتباهياً برجولته يؤمن في قرارة نفسه أنه -مقارنة بمجرد امرأة- سيد الكون. والمرأة التي تشاكل تصوّره السائد عن الغباء لا تمثّل من ثمّ أي تهديد إطلاقاً بالنسبة إليه... مهمتكِ ليست تثقيفهم في سياسات المساواة بين الجنسين، وإنما جعلهم يساعدونك.

وإن عنى ذلك أن تبدو شأن سائحة أو هاربة من نزهة كنسيّة أو أن تلبس معطف فرو على الجبهة في البوسنة، كان هذا ما فعلته لزلي عندئذ. وبالمثل، إن هي افتقدت أوراقاً مهمة عند الحدود، نقّبت في حقيبة يدها الممتلئة بمحتويات لا حصر لها حتى ينفد صبر الخفير الأحمق ويسمح لها بالعبور. إضافة إلى ذلك، فضّلت لزلي أساليبها هذه على تلك التي حثّتها عليها ذات مرة معلمتها الخاصة وصديقتها آن شاربلي: عند الوصول إلى مكان غريب، ضاجعي أولاً مراسل رويترز، بحيث تقرئين تقريره قبل إرساله، ثم ضاجعي رئيس الشرطة المحلية. لقد فضّلت لزلي التظاهر بالشرود والبلاهة على المضاجعة والتفكير بمقالتها.

ما أخفاه هذا (أو في بعض المناسبات، عند الضرورة، تقمّصت شخصية ابنة الراج ذات الصوت المدوّي) كان ذلك سعة حيلة ومكر خالف كل صورة سائدة، سواء عن المرأة أو خلافه. ففي السلفادور عام 1984، وبينما كانت مسافرة برفقة رفيق على

طريق، قتل المتمردون فريق تصوير هولندي، أدركت ورفيقها أن مركبتهما تفتقد رايةً بيضاء. فما كان من لزلي إلا أن وضعت في الخدمة تنورتها التحتانية. وحين كانت في طوكيو عام 1990 لتغطية مأتم الإمبراطور هيروهيتو، اعترضها رجال أمنٍ أصروا على إبقاء الصحافة في خيمة على بعد نصف ميل، فكان حلّها أن تعبر دون أن تعير انتباهها لنقاط التفتيش الكثيرة وقد ارتدت معطف الفرو خاصتها، متجاهلة بعجرفة الطلبات جميعاً بأن تبرز أوراقها الثبوتية، إلى أن وجدت نفسها تقف في الصف ذاته الذي وقف فيه الرئيس جورج بوش. ما أعطى لها، ولها وحدها، خبر اليوم، ذلك أنها كانت قريبة كفاية لتلاحظ أن الأمير فيليب، على عكس الرؤساء ميتران وبوش وأغونيو، لم ينحنِ لبقايا رجل كانت جيوشه فيما مضى مرادفة للوحشية. كتبت لزلي: لم أر قط لغة جسد بليغة بهذا القدر.

وأخفت أعمالها هذه وراءها شيئاً آخر بعد، فقد كانت واحدة من أوائل من تبنّوا التكنولوجيا الحديثة وواكبوا آخر ما قدّمته من صرعات. وقبل أن يسمع بزمن طويل رفاقها عن البريد الإلكتروني والحواسيب المحمولة، وقبل أعوام على تخطي بعضهم رهاب استخدامهما، كتبت لزلي، عام 1984، مقالات تمجّد فيها عجائب كليهما. فهي في النهاية، أيام كان الاتصال من لينينغراد، مثلاً، لا يعني التقاط هاتف نقال أو مرتبط بالأقمار الصناعية وإنما حجزه أربعة أيام والأمل بما هو أفضل. صارت هذه التكنولوجيا العطية ملك يمينها في تغطيتها الاضطرابات في زائير في عام 1993. فقد رفضت السلطات منحها تأشيرة دخول، ولذا تُركت على الضفة الخطأ لنهر الكونغو، في حين كان الحدث جميعه في كينشاسا على الضفة المقابلة. لم تعمل هواتف الأقمار الصناعية ولا الخطوط الأرضية المحلية، بيد أن لزلي عرفت ما يتعين عليها فعله. فقد عثرت على رجل يدعى السيد ماسمبا كان مسموحاً له بعبور النهر، وطلبت منه أن يحصل على هاتف نقال وبعض الأرقام من كينشاسا، وحصلت باستخدامها الرجل والهاتف النقال على قصة الفوضى التي سببها تضخم مالي بلغ 7000 في المئة في بلد حكمه وسرقه حتى أفرغه- موبوتو، رئيس بلغت ثروته ستة مليارات دولار، حيث بنى وسط الفقر، قصراً بضعفي حجم قصر باكنغهام وكثر فخامة بثلاثة أضعاف.

كانت لزلي، باعترافها هذا بفضل السيد ماسامبا، استثنائية إلى حدّ بعيد بين المراسلين الأجانب؛ ذلك أن غرور كثيرين في هذه الحرفة يدفعهم إلى عدم الاعتراف بدور الوسطاء، الأصدقاء المقربون المحليون لمراسلي ما وراء البحار، ممن يترجمون لهم ويقودونهم ولديهم اتصالاتهم ويعرفون من يرشون. لم تزعم لزلي قطّ أن حصولها على القصة كان جميعه عملها وحدها، ونظرت إلى الوسطاء على أنهم أصدقاؤها، فبقيت على اتصال بهم وبأسرهم بعد مدة طويلة على انتقالها إلى القضية الآتية. ولقد ردّ هؤلاء ولاءها لهم رداً حسناً ما بين عامي 1989 - 1991 الحافلين بالأخبار. ففي الصين كان السيد زهو وسيطها لتغطية الاحتجاجات الطلابية التي انقلبت إلى مذبحة تيناغن؛ وفي موسكو كان إيغور كوزمين، الذي، عندما طارت لزلي مباشرة من إجازتها في الألب السويسرية كي تغطي محاولة الانقلاب على غورباتشوف عام 1991، دبّر دخولها إلى روسيا دون تأشيرة بواسطة علاقاته القوية بزملاء سابقين في ك ج ب، ولعلّ أهمّ هؤلاء جميعهم هي المرأة التي عملت معها على الخبر الأهم عام 1989: سقوط جدار برلين. صمد هذا الحاجز الإسمنتي بطوله البالغ 28 ميلاً، الذي جعل الألمان الشرقيين يعانون رهاب الاحتجاز، طوال 28 عاماً. فُرّقت الأسر عن بعضها، ولقي كثيرون حتفهم على مرّ الأعوام في محاولة اجتياز المخافر الحدودية الشديدة الحراسة وعبر حقول الألغام في أرض متنازع عليها. لكن، في أواخر الثمانينيات من القرن العشرين، كان الضغط لأجل التغيير الذي استفحل داخل أوروبا الشرقية جاهزاً للانفجار. كان على شيء ما في مكان ما أن يخضع لهذا الضغط، وكان هذا المكان هو هنغاريا التي كانت لا تزال، رسمياً، في الكتلة السوفييتية، غير أنها لم تكن قطّ أحد أعضائها المتحمسين. في أيلول عام 1989، قررت حكومة بودابست أن تفتح حدودها مع النمسا، وكان أن تدفّق آلاف الألمانيين الشرقيين، وقد حزموا أمتعتهم في سياراتهم الصغيرة الوطنية الصنع إلى هنغاريا؛ لقضاء إجازة ثم عبروا إلى الغرب.

يعد أقل من شهر أخبر غورباتشوف قيادة ألمانيا الشرقية المتبلّدة الحسّ أن الأوان آن لإصلاح جذري. وفي الأيام التي تلت، اجتاحت مدن ألمانيا الشرقية مظاهرات شاسعة مؤيدة للإصلاح، واستقال زعيمها المتشدّد إريك هونكر. استمرت المظاهرات، على أي حال، حيث سار نصف مليون شخص في لايبزيغ، ويوم السبت 4 تشرين الأول خرج ما ينيّف

على مليون شخص في مظاهرة في برلين الشرقية. في اليوم الثاني، طارت لزلي إلى برلين وعبرت، بطريقة غير قانونية، إلى الشطر الشرقي. وهناك التقت وسيطها، فيبكه ريد، امرأة متميزة وزوجة ثانية لرجل أكثر تميزاً - دين ريد، أمريكيٌّ يُعرف بـ إلفيس الشيوعي (بعد نجاح متواضع في الوطن حققه في مطلع الستينيات من القرن العشرين، قصد ريد أمريكا اللاتينية حيث مزجت حفلاته الموسيقية أغانٍ رائجة مثل، توتي فروتي، مع دعوات إلى العمال بالنهوض. وبعد أن طُرِد من الأرجنتين وتشيلي، عمل في صناعة السباغيتي في إيطاليا، ومن ثم التقى فيبكه، فانتقل إلى ألمانيا الشرقية وغدا نجماً رئيساً فيها - في روسيا. كان يخطط للعودة إلى الولايات المتحدة، في عام 1986، عندما وُجد ميتاً في بحيرة في ظروف غامضة).

اكتست الأحداث في برلين الشرقية الآن أهمية لا سبيل إلى تجاهلها. فقد خرجت يوم الإثنين أضخم مظاهرة تشهدها المدينة حتى ذلك الوقت. استقال أعضاء البوليتبورو في تلك العملية، وفي اليوم الثاني سقطت الحكومة بأسرها. وفي وقت مبكّر من مساء الخميس، قصدت لزلي مؤتمراً صحفياً عقده زعيم حزب برلين الشرقية غونتر شابوفسكي. أضجر الحضور قرابة ساعة كاملة بلائحة عن أعمال الحزب، ثم على نحو طبيعي أعلن أنّ باستطاعة الألمان الشرقيين السفر بحرية إلى الغرب، «متى» سأل الصحفيون على الفور، جاءهم الردّ «بحسب علمي فوراً»، فعلا الصياح والضجيج. (عندما أجرت لزلي لقاء معه بعد عشرة أعوام، اعترف أنه ارتكب خطأً فظيعاً. فقد أراد الحزب أن يفرض إجراءات مشددة على السفر، لكن شابوفسكي لم يقرأ بيانه بالطريقة الصحيحة). وعندما أدرك الخطأ الذي ارتكبه، كان الوقت قد فات. بُثَّ المؤتمر على الهواء مباشرة، وفي أثناء دقائق عرف بالأمر نصف سكان برلين الشرقية، ولم يعد ثمة سبيل لإصلاح ما فسد. قصدت لزلي على الفور نقطة التفتيش تشارلي. بدت تلك النقطة، كما كتبت لزلي لاحقاً:

أضواء كاشفة، حواجز إسمنتية، حرس حدود مدججّون بالسلاح غاصوا في معاطف سميكة، في حين ينفخون في أصابعهم وتتصاعد أنفاسهم كالبخار في هواء الليل القارس: مشهد مرسوم من أفلام التجسس التي لا تُحصى... بمعزل عن الحرس: كنت الشخص الوحيد الحاضر هناك.

لم يأخذ الحراس علماً بما كان يجري، لذا قصدت معبراً آخر عند فريدرتش ستراسه. وتكررت القصة ذاتها.

وصل بضع شبان وشرعوا في الاصطفاف ثم وصل بضعة آخرون. ولم يلبث أن تحوّل المجرى إلى طوفان. كتبت لزلي تستعيد تلك الحادثة:

في الساعات القليلة التي تلت، شرعت موجة من أناس منفعلين ومنتشين تتدفق عبر نقاط التفتيش... برلين الشرقية -هذه المدينة الرثة الشاحبة التي تمور بروائح البترول الرخيص والفحم الحجري وتغفو باكراً في العادة- غدت مشحونة بالانفعال في تلك الليلة المحمومة.

طلق الألمان الشرقيون يتوجهون إلى المعابر بسياراتهم الترابانت والفارتبورغ، وأدركت لزلي أنها بالانخراط في هذا الخروج المبهج تحصل على قصتها. وإن حدث أن آتت ثمارها علاقة طيبة بوسيط، فقد كان ذلك الآن. ذلك أنه، بفضل فيبكه ريد، في الساعات الأولى من صباح اليوم الثاني، كان بمقدور لزلي أن تعبر إلى الغرب مثل الألمان الشرقيين - في سيارة فارتبورغ صغيرة وعتيقة. كانت تلك الليلة، كما قالت لزلي، أكثر ليلة عاطفية في حياتي:

... يثور هدير عظيم الحشد في ألمانيا الغربية في حين ندنو من تلك اللافتة التي، إذ زينتها الرايات البريطانية والأمريكية والفرنسية، تقول لنا ولمئات السيارات الصغيرة العتيقة وراءنا جميعاً: أنتم تدخلون الآن منطقة التحالف.

«لا أصدق هذا! تشج فيبكه». ها أنا، فيبكه ريد، أسوق سيارتي بحرية عبر نقطة التفتيش تشارلي. لقد حلمنا بهذا طوال حياتنا وانتظرناه، وها هو في النهاية يتحقق الآن على حين غرة...».

...أطفال صغار، بزقزقاتهم العالية، مثل نُجَيمات مبعثرة، يتحلقون حولنا ويزقزقون بحماس، «مرحباً بكم، مرحباً بكم»، ويرمون الشوكولا والسكاكر وقطع النقود في السيارة. «هؤلاء البرلينيون الغربيون يحبوننا، يبدو بالفعل أنهم يحبوننا» قال فيبكه باكياً «لم نعد أعداء».

ملأت تقاريرها ذاك الأسبوع الـ ميل صفحة تلو أخرى، وقد جعلها ما بذلته من جهد في ذلك، بالإضافة إلى انعدام النوم تقريباً، تشتكي إلى المحرّر ديفيد إنغليش بأنها منهكة. لا تشتكي إلي، يا امرأة»، أجابها. «لا يجدر بي أن أدفع لك، بل يجدر بك أنتِ أن تدفعي لي». وكما قالت لزلي: «لقد كان على حق».

بعد شهرين آخرين، تُكشف فصول مسرحية تاريخية أخرى، في كيب تاون هذه المرّة. بتاريخ 3 شباط 1990 استهلّت لزلي قصّة إخبارية بالقول: «كانت الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً بتوقيت جنوب إفريقيا عندما أخذ الرئيس دو كليرك الهوية الجنوب إفريقية برقبتها التي لوّحتها الشمس وهزّها محرراً إياها أخيراً من أوهامها المجنونة بفوقية البيض الأبدية». كان دو كليرك قد رفع الحظر عن المؤتمر الوطني الإفريقي، وبفعله هذا، مهّد المسرح لإطلاق سراح نيلسون مانديلا. بعد أيام ثمانية، وقفت لزلي بين حشد طاحن خارج سجن فكتور فيرستر، ترقب نيلسون مانديلا لحظة خروجه من السجن بعد 27 عاماً. وبينما مشى نحوهم ببزّة رمادية حيّاهم بقبضة مضمومة، فاندفع الحشد إلى الأمام ووقعت لزلي أرضاً. وبعد يومين، كانت في سويتو لتشهد عودة مانديلا إلى الوطن في إستاد رياضي، وتوثقت هذه المرّة من حصولها على إطلالة أفضل، وإن لم تكن آمنة أكثر. فبينما هي في طريقها رأت JCB كبيرة تسير على طول الطريق وقد غصّت مجرفتها الهائلة بـ «الرفاق». أوقفت سيارتها وركضت إلى خلفية الحفّارة وتسلقت على متنها. وعندما صارت هناك، سألت من أين حصلوا على هذه الآلة فقيل لها «اختطفناها».

جرح سؤالي، بطريقة أو بأخرى، مشاعر رفيق نحيل ذي سنّ مكسورة بدا عمره نحو الرابعة عشرة وقد حشر شعره الأجعد المغبر في بيريه سوداء، لباس خاصّ بالنضال، دارج في هذه الأنحاء... وهيه، أنت، ألست مع النضال؟ سأل بلهجة آمرة. «Amandla»، و«بقوة»، صحتُ بكل ما أوتيت من قوّة، وقد اعتراني القلق من أن أرتكب سوءة فهم قد تكون قاتلة، وتمنيّت وهلةً لو أني فقط -مثل باقي وسائل الإعلام التي تعرف كيف تحافظ على نفسها هنا- ارتديت بعض الملابس النضالية. «إنها لنا» صاح الرفيق على متن الـJCB مسروراً.

وإذ قُدِّر لها على هذا النحو أن تكون فرداً من الجماعة، شقّت لزلي طريقها إلى الإستاد.

لكن على الرغم من خبرتها وبحثها جميعاً، فقد لعب الحظّ دوره في قصصها أحياناً، كما حدث في كانون الأول عام 1990، وفي أثناء تغطيتها لقمة بوش- غورباتشوف التي عُقِدت على متن سفينة روسية أبحرت من مالطا، هبت في طلب فنجان قهوة صعب المنال، إلى أن عثرت في النهاية على واحدٍ في غرفة نائية -ووجدت نفسها وجهاً لوجه مع ميخائيل ورايسا غورباتشوف، اللذين اقتحمت جناحهما دون علمها. وعندما عادت إلى جزء مألوف من السفينة، سألها أحد الزملاء أين كانت. «أوه، أحتسي القهوة مع آل غورباتشوف». ومن ثم فقد التقت مع أنديرا غاندي المشهورة بتحفّظها. ومباشرة عقب بدء اللقاء، الذي تطلّب ترتيبه توسّلات مذلّة، اضطرت لزلي إلى الإسراع إلى الحمام، بفضل وجبة كاري كانت قد تناولتها الليلة الفائتة دون تبصّر بالعواقب. وما بين نوبات إقياء عنيفة، تناهى إلى أسماعها صوت غناء؛ كانت السيدة غاندي، وقد تحوّلت إلى حمامة تهدل لها كي تخفف عنها. رئيسة الوزراء الهندية، التي كانت متحفّظة ومتشنجة قبل دقائق قليلة، لم تحظ لزلي المريضة باهتمام بالغ فحسب، وإنما فتحت أنديرا غاندي قلبها وتحدثت كما لم تفعل من قبل. كتبت لزلي: «عندما خرجت» في النهاية من مكتبها مترنحة وشاحبة، فكّرت، «لقد حصلت على لقاء مثير هنا؛ إن لم يكن هذا جميعه هلوسة». وكان الحظ حليف لزلي أيضاً عندما غطت أعمال العنف الوحشية في البلقان مطلع التسعينيات من القرن العشرين، إذ أبقاها بعيدة عن الدرب العشوائي ومكّنها، في البوسنة، من ممارسة واحدة من أكثر حيلها دهاء. ففي حين منعها الصرب من الوصول إلى خطّ الجبهة في غورازد، تحدّثت دون توقف إلى قواتهم عن كنيسة أرثوذكسية جميلة على مقربة من المدينة كانت قد سمعت عنها. قالت لهم كم تتشوق إلى رؤيتها، لكن،بالطبع، كان ذلك محفوفاً بالمخاطر، ولن تسامحها أسرها قطّ؛ لأنها جازفت، وعلى أي حال، فقد كانت خائفة جداً. وفي نهاية المطاف، بالطبع، أوصلها الجنود الصرب إلى هناك، بعد أن مشوا جميعاً مشية الضفدع. وكانت بذلك الصحفية الوحيدة التي بلغت خط الجبهة ذاك.

كانت الآن في خمسينياتها، وفي أواخر عام 1993، سافرت إلى هاييتي وأنتجت ما هو ربما أجمل ما كتبت. فقد أُطيح بأول رئيس للبلاد منتخب ديمقراطياً، الأب جان- برتران

أريستيد، المعروف بـ «تيتيد». وردّاً على ذلك، فُرض حظر دولي على النفط والأسلحة، دعمته سفن حربية بريطانية، وأمريكية، وكندية، وفرنسية، وألمانية. وصلت لزلي، وبتاريخ 17 تشرين الثاني، أرسلت قصّة لا تختلف إلى حدّ بعيد عن المحلل الضليع المختص بالشؤون الخارجية:

من الشرفة المزينة بتخاريم في فندق أولونسون المتهالك (على مقربة من أحد أحياء العاصمة يدعى Lower Not Very Much)، لا يمكنني حقيقة رؤية سفينة جلالتها آكتيف تخفر المياه اللازوردية قبالة بورتوبرانس. بيد أني أعلم أنها هناك.

... إننا (نستعيد الديمقراطية) إلى حدّ كبير بتجويع سبعة ملايين إنسان من أفقر شعب في نصف الكرة الغربي -على جزيرة قطاع طرق من مختلف الأشكال والألوان، وجلادين ومغامرين ومخدرات ومسلحين هستيريين. وكيف تسير «استعادة الديمقراطية» هذه؟ حسناً، ليس على ما يرام على الإطلاق...

... يستلقيان وقد رُبطا معاً مثل وشاح حول رقبة القتيل: القطة المخنوقة والجرذ الميت بمخالبه الصغيرة وعينيه المدهوشتين تحدّقان إليّ وإلى الشمس اللاهبة. أطلّ جرذ ميت آخر برأسه من عانة الرجل الثاني الذي قيّدت يداه خلف ظهره قبل إعدامه. الحيوانات؟ أوه، لأجل المشعوذ الأسود! هذا ما أوضحه شابّ يرتدي الملابس في حين تحلّق هو وحشد صغير عصبي حول جثتي الرجلين، وقد أُلقيتا على كومة قمامة في لاسلين، أحد أفقر الأحياء الشعبية في بورتوبرانس حيث تنتشر الروائح الكريهة.

... بالطبع، لن يحقق أحد في مقتلهما. ففي النهاية، «الجميع يعرف» من فعل ذلك. رجال ميكي اللطيف... أُميّون سود من الأحياء الفقيرة. ينتشر قطّاع الطرق المسلحون هؤلاء بأسمالهم البالية في كل مكان... ويجولون شوارع هايتي ليلاً في شاحنات البيك - أب خاصتهم، فيقتلون أبناء شعبهم الأمّيين مثلهم لأجل حفنة دولارات من الأعلى. وهذا كله؛ لأن ميكي اللطيف ورفاقه العسكر الجشعين والأثرياء المختلسين ممن يتلذذون بتناول الكركند في قصورهم الجبلية شاؤوا أن يكون الأمر على هذا النحو.

وبعد ليلة عكرت صفوها البنادق، بمقدوري أخيراً أن أضطجع على سرير في الفندق الشبحي... وأصغي، كما أصغى غراهام غرين ذات مرّة، إلى الأصوات البعيدة المتقطعة في حين يقتتل الفقراء لمصلحة الأغنياء.

... على عكس الجثث السوداء المهشّمة في مقلب القمامة ذاك بعيداً أسفل جبال كنسكوف الرطبة والبنفسجية الزاهية، تلتمع بشرة مونيك السمراء كالعسل. فرنسية مونيك بليغة، و كانت إنكليزيتها بلكنتها الأمريكية مثالية، هؤلاء المراهقات أفسدهن الدلال. والنخبة الفاسدة أخلاقياً هو الاسم الذي أطلقه سفير أمريكي ساخط على الطبقة العليا من الأسر السمراء والعربية التي أسهم جشعها وفسادها في تحويل هاييتي إلى واحدة من أفقر عشر دولٍ في العالم (كانت هاييتي في الماضي البلد الأغنى في منطقة الكاريبي).

...جميلات هؤلاء «الأميرات» الهاييتيات الصغيرات الثلاث ومرحات -وضجرات بفعل عقولهن الصغيرة الجميلة. في الماضي كان بمقدورهن التنقل بحرية من «جنتهنّ» الجبلية إلى ميامي وباريس ونيويورك... بيد أن المجتمع الدولي المتوحش وضع حداً لهذا كله... فجمّدت أرصدة ما وراء البحار، ولم يعد بمقدور مونيك العودة إلى جامعتها الأمريكية؛ لأن تأشيرة الدخول خاصّتها... أُلغيت. و«بفضل الحظر»، تقول مونيك وهي تلوك بنزق سويقة زهرة، «لم يعد لدى والدي نصف خزان نفط من أجل سيارة واحدة».

تقبع الآن سيارات المرسيدس وال ب.إم.دبليو والتويوتا لاندكروز اللامعة خاصة النخبة مثل أسراب من دلافين نافقة وراء الأسوار العالية لقصور باذخة على نحو غريب بشع، تطلّ على نحو غريب وبشع بالمثل على دروب ممتلئة بالحفر. بل لم يعد بمقدور بناتهنّ حتى أن يثرثرن ساعات على الهاتف... لعلّ الحظر يسبب ألف وفاة إضافية شهرياً بين الفقراء، الذين يبلغ أصلاً معدل سن الوفاة بينهم 45 عاماً فحسب - لكن، تباً، إنه يسبب ما هو أسوأ كثيراً من ذلك في كنسكوف! فهو يبعث على... الضيق.

... ومن المثير للفضول كفاية أن الأميرات الهاييتيات الصغيرات قلما التفتن «إليهم»، إلى المدّ الأسود الصامت من الفقراء ممن يتسلقون بإصرار لا يلين أطراف الجبال، فيقطعون الأشجار لأجل الفحم، ويسلخون عن الجبال غاباتها، ويشيّدون أكواخهم تماماً قبالة أسوار قصور الأميرات ... أرى أعداداً كبيرة من فلل الأثرياء المهجورة التي اجتاحها في وقت سابق الفقراء وسَطوا على محتوياتها الأنيقة.

وبصرف النظر عن حسن نيته، فإن التدخل العسكري الخارجي لم يكن ناجحاً قط في هاييتي. والحق أنه قلما ينجح في أي مكان في الوقت الراهن. وفي هذه الأثناء، ستبقى هاييتي الجميلة، المجنونة والمسكونة بالأرواح، ربما إلى الأبد، إمبراطورية سوداء صغيرة حُكم عليها بسوء المصير. ستبقى كوميديا هاييتية سوداء لا نهاية لها.

في أثناء ذلك العقد، والعقد الذي تلاه، استمرت لزلي في كتابة تقاريرها المطوّلة، 2300 كلمة، أو المطوّلة أكثر: عن الانتخابات الروسية؛ الشباب الذكور العاطلين عن العمل في المجتمع الصناعي البريطاني؛ سياسات إسرائيل الملتوية؛ أمستردام تنهي علاقتها العاصية مع البورنو؛ سفنور بوسّي، إيطاليّ مخبول شاء أن يستقل إقليمه عن روما؛ محاكمة أو .جي. سمبسون؛ وفاة ديانا؛ المومسات في باكو؛ فِرَق المعاقبة في جيش الجمهورية الإيرلندي؛ انخفاض عدد الولادات الإناث في الصين، ما ترك البلاد في حالة زاد فيها عدد الذكور على الإناث 111 مليون؛ قضية مونيكا لوينسكي؛ مأتم الملك حسين؛ الأكاديميون الذين عارضوا التصحيح السياسي؛ لقاء مع جورج دبليو بوش حول المحاكمة المتعلقة بحملته الانتخابية عام 2000. فبعد احتيالها لذاك الأمر النادر بالنسبة إلى مراسل بريطاني، أي: نداً ند مع مرشح أمريكي للرئاسة، حاولت مرّة تلو أخرى أن تستفزّ بوش النزق بحسب ما يظنّه بعضهم بسؤاله عن سمعته، على الصعيد العقلي «أقل من الأسوياء بدرجتين»، كما قيل للرجل الذي كان حاكم تكساس آنذاك. بيد أنها لم تلقَ سوى المزاح جواباً، وبينما رافقها إلى قسم الصحافة من الطائرة، حدجها بنظرة عارفة وقال: «أتعلمين، لطالما بخسني الناس قدري»؛ وما إن صارت على الأرض حتى اتصلت بمحرّرها في لندن وقالت له: «بوش ولحدّ من أكثر الناس الذين قابلتهم دهاء».

وحققت أيضاً، في ربيع عام 1998، في المجاعة التي قتلت، بحسب التقارير الواردة، الملايين في كوريا الشمالية. ففي حين لم ترضَ حتى بمجرّد الحديث إلى وكالة الغوث والخابرات ومصادر الأمم المتحدة القابعة في دعة لندن أو نيويورك، طارت لزلي بدلاً من ذلك إلى الصين، حيث سافرت إلى شمالها الشرقي النائي، وبعد رحلة بالسيارة دامت خمس ساعات على طول دروب ترابية، وصلت إلى ضفاف نهر تومين الذي يرسم حدود كوريا الشمالية. وهناك التقت لي، مراهق شاهد والده يقضي جوعاً، ورأى زوجة والده تبيع شقيقه مقابل الطعام، ومن بعد، عندما طُرِد من المنزل كي يعيل نفسه بنفسه، كان غير قادر على البقاء حيّاً باقتيات القرّاس والجذور، ففرّ عبر النهر إلى الصين. كان في الخامسة عشرة، غير أنه بدا في التاسعة. والتقت السيدة بياو، امرأة تعيش في فقر مدقع، اقتصر أثاث بيتها على سرير، بيد أنها كانت مستعدة للمجازفة بدفع غرامة كبيرة كي تخفي لي وآخرين عن عيون السلطات الصينية. سمعت عن المدارس القروية حيث تفشّت الأوبئة بفعل الجوع، ما جعل ستة طلاب وحسب من صفّ يضمّ ثلاثين طالباً قادرين على الدوام. وعلمت بشأن سكان المدينة، الذين كانت حصة بعضهم من الطعام بحسب ما سمحت به الدولة هي مئة غرام فقط في اليوم الواحد، أي ما يعادل أربع قطع صغيرة من البسكويت. وقابلت السيد والسيدة زهينغ، اللذين أدارا سراً، في قبو أسفل زقاق قذر في مدينة صناعية شمال شرق الصين، ميتماً للأطفال الذين نجوا من المجاعة. غادرت لزلي الصين مقتنعة أن ثمة «مجاعة جماعية تجاهلتها التقارير إلى حدّ بعيد».

في عامها الستين، الذي صادف عام 2001، بلغت لزلي ما كان بالنسبة إلى حياة الكثيرين المهنية حاجزاً مخففاً للصدمات؛ فقد أمضت أربعة أشهر في المشفى وخضعت لثلاث عمليات جراحية خطرة تركتها في حاجة إلى تناول الدواء ما تبقى من حياتها. قد يتهيأ لبعضهم أن تولّد هذه التجربة حيطة واحتراساً، بيد أنها لم تفعل، ولو بمقدار ضئيل. ففي نيسان عام 2002، كانت لزلي في بيت لحم، حيث لاذ، لما يزيد على أسبوعين، مئتا مسلح فلسطيني بكنيسة المهد في ساحة المذود. تُركت وسائل إعلام كثيرة خارج الشوارع المحيطة بالكنيسة حيث فرض الجيش الإسرائيلي طوقاً أمنياً وأُرغمت وسائل الإعلام على الاعتماد على الشائعات؛ لكن ليس لزلي. فقد حاولت بداية، وقد ارتدت («على نحو

لا يعدُّ بفائدة عظيمة»، كما تقول) سترتها المضادة للرصاص، عبور نقاط التفتيش، يد أنها صُدَّت عند الحاجز الأول. وفي اليوم الثاني، تخلصت من السترة ومن كل ما يدلّ على أنها صحفية، وتنكرت، كما كتبت، «بلباس أمّ متوسطة السن وغريبة الأطوار تحرص على حقيبة يدها الملآنة بمتفرقات غير مؤذية مثل أحمر شفاه عتيق وبطاقات لركن السيارة وصور أسرية»، قدّمت، هذه الأم الستينية والمريضة التي خرجت حديثاً من مدة علاج طويلة في المشفى، نفسها عند الحواجز حيث كان الجنود الإسرائيليون ينهرون الصحفيين وفِرَق التلفاز بأعقاب البنادق.

من الغرابة بمكان أن أكون، بوصفي أمّاً بلهاء متوسطة السن «غير صحفية»، وغير فلسطينية كما هو واضح، الوحيدة التي سُمح لها بالمرور. لعلي ذكّرت هؤلاء الجنود الشباب الخائفين بأمهاتهم، أو لعلي ذكّرتهم بشخص يحمل إليهم بعضاً من حساء الدجاج اللذيذ؛ كي يشدّ أزرهم ويساعدهم على تخطّي يوم آخر مرعب. أطرقُ وحيدة تماماً الأزقة المهجورة المرصوفة بالحجارة، وألتفّ في طريقي حول سيارات محترقة سوّتها القنابل بالأرض، وحول أكوام من القمامة المتفسخة يئزّ الذباب حولها...

الوحيدون الذين أصادفهم في الشوارع في أثناء الدقائق العشر الأولى هم العسكر الإسرائيليون... «أين تذهبين؟ ولم سُمح لك بالدخول؟» يجأر جندي إسرائيلي مدجج بالسلاح وقد ارتدى خوذة، «أنا عاملة في الكنيسة، وقد حصلت على إذن بزيارة كاهن عالق على مقربة من ساحة المذود!»... أدنو ببطء شديد من كل دورية، ويداي مرفوعتان من حين إلى آخر... يصعب إقناع هؤلاء الجنود النزقين ببراءتي. لكنّ ما إن يقتنعوا حتى يتحولوا فجأة إلى أشخاص يحاولون حمايتي بشتى الوسائل. أقول لهم إنني تهت ولم يعد بمقدوري العثور على المنزل الذي يأوي صديقي المزعوم، الكاهن. «لا أعرف بيت لحم. هل يصادف أن أجد معكم خريطة؟» أسألهم ببراءة.

يقلبون عيونهم: امرأة مثالية!... يشاع أن ثمة خريطة لدى دورية أخرى. بأسوب «امرأة مثالية»، أمسكها بالمقلوب. ثم أدرك أنه حتى بإمساكها بطريقة صحيحة، فإن أحداً من هؤلاء الجنود المرتبكين لا يستطيع أن يتبين هذا من ذاك. كلما أترك دورية، يصيح قائدها بالعبرية للدورية المجاورة محذّراً إياها: «لا تطلقوا النار. إنها نظيفة...

في مرحلة خطرة بوجه خاص، ترسل إحدى الدوريات جنديين اثنين كي يرافقاني. يوجّهان بندقيتيهما، في أثناء المشي، صوب نوافذ البيوت المهشمة. ثمة قناصون... قناصون...، وها هي أخيراً: ساحة المذود. أنا الآن على بعد أقل من خمسين ياردة من كنيسة المهد بحد ذاتها.

... فجأة يندلع أزيز رصاص قريب... «يجب أن تخرجي حالاً»، يصيح رفاقي الإسرائيليون الذين كانوا دمثين قبل وقت قصير، ولا أتردد في إطاعتهم.

عادت سالمة إلى برّ الأمان خارج الطوق المفروض، واستأنفت عملها في المراسلة فكتبت عن سوريا، ومن ألمانيا عن انتخابات عام 2002، ومن الخليج عند اندلاع حرب أخرى في العراق، وعن ثامن حملة انتخابية أمريكية تشهدها، ومن سان فرانسيسكو عن زواج المثليين. وكتبت من موقع الانفجارات في نيويورك، ومن موسكو والعربية السعودية وواشنطن وطهران - حيث فرّت من «مرافقها» الرسمي ولبست الرداء الإسلامي الإلزامي وقابلت سراً منشقين في غابة أحد المتنزهات في المدينة، وفي إحدى المقابر، وفي مبانٍ بلا نوافذ في وقت متأخر ليلاً، ودخلت بطريقة غير شرعية أحد المشافي. لم تكن هذه المواعيد السرية مجرّد ميلو-راما بطلها هذا المراسل أو ذاك. ففي العام الفائت، اعتُقِلَت صحفية كندية فضولية وعُذِّبت حتى الموت في سجن إيفين في طهران تحدثت إلى إصلاحيين.

قبل سنوات خلت، سأل لزلي محرر الأوبزرفر السابق دونالد ترلفورد، إذ كان يبحث في مقال لحساب الإيفننغ ستاندرد، لَمَ، بعد ثلاث عمليات جراحية خطرة، وفي سنّ كانت لتتقاعد فيه معظم النسوة، وبوجود أسرة تفضّل أن تحصر نفسها بكتابة ما تسميه «مقالات قصيرة أنيقة عن العربات في السوبر ماركت»، لا تزال تعرّض نفسها لمراسلة محفوفة بالمخاطر، كما في القدس وطهران. أجابت: «لأن المراسلة هي العمل الأكثر إثارة للاهتمام في العالم». إنه الجواب الذي نتوقعه من صحفية لم يجعلها فضولها الحاد، ورفضها أن يحول أي شيء بينها وبين غايتها، ألمَعَ مراسلة بين أفراد جيلها فحسب، بل، إن أنت تفحصت مجالها، ربما وجدتها المراسلةَ الأقدر على الانتقال بسهولة بين مختلف الموضوعات في الأجيال جميعاً.

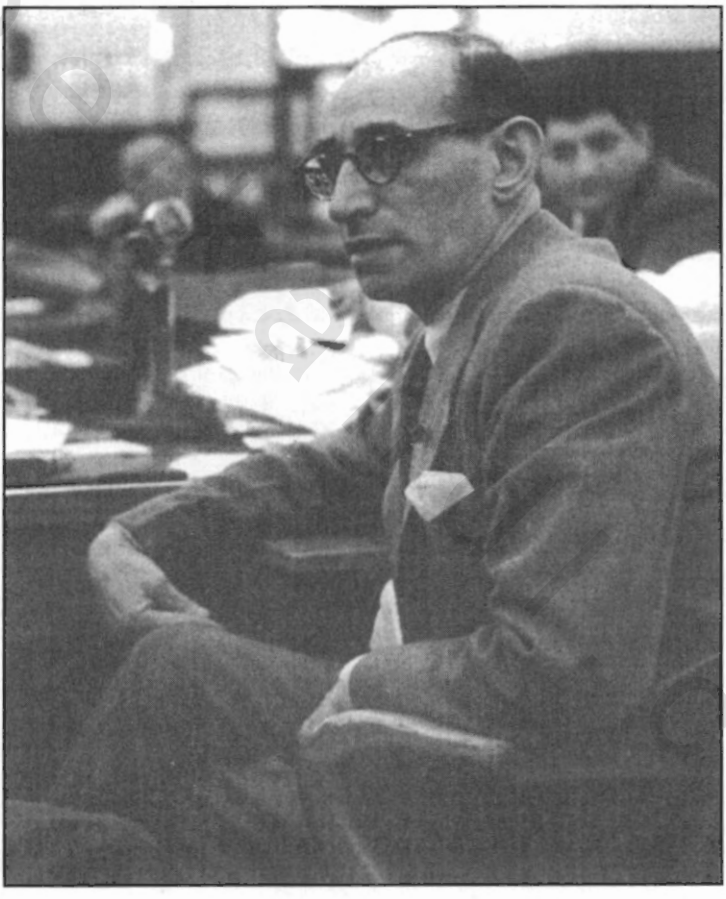

مایر برغر

obeikan.com

13

ماير برغر

1898 - 1959

شيخ المراسلين

كان مراسلاً حربياً فاشلاً، إذ اضطر رؤساؤه إلى إعادته على متن سفينة إلى الديار بعد شهرين فقط وهو يعاني قرحة معديّة وحنيناً إلى الوطن. وفي المكتب، لم يقل «لا» للمتصلين قط، ما جعله يصرف ساعات لا تُحصى في الإصغاء إلى شؤون تافهة لم تكن لتفيده البتّة في عمله. كان خجولاً وضعيف الثقة بنفسه، ويعاني ضعفاً في البصر، وقد انقطع عن متابعة تعليمه الرسمي عندما كان في الثالثة عشرة. ومع ذلك، لو تُرك الأمر لي لأوظّف مراسلاً واحداً فحسب لحساب غرفة أخبار سماوية، لكان ذلك المراسل هو ماير برغر؛ ذلك أن «ملفيك»، كما دعاه زملاؤه على الدوام، يستحقّ، أكثر من أي صحفي آخر في هذا الكتاب لقب شيخ المراسلين.

ما يجعله على هذه الشاكلة سلسلة متكاملة من الصفات: حرصه على تحييد ذاته من مراسلته (حتى أكثر الدراسات دقة لقصصه تتحدى أي محاولة لاكتشاف إن كان راديكالياً أو محافظاً؛ خليعاً أو محتشماً)؛ حساسيته العالية تجاه أيّ قولٍ موحٍ؛ أسلوبه اللافت الخالي من أي إلماع إلى خفة ظلّ ممجوجة وعين ثاقبة باحثة عن التفاصيل ومقدرة على تصويرها بطريقة تترسخ في ذهن القارئ مثل ذكرى سعيدة من ذكريات الطفولة. كذلك حوّل النظرية التي تعرَّضت إلى قسط وافر من السخرية القائلة إن لدى كل إنسان قصّة يحكيها إلى عمود إنساني مفعم بالحياة، وقد أثبت صحة هذه النظرية ثلاث مرات أسبوعياً؛ وإضافة إلى هذه الصفات، أضاف مهاراتٍ عملية هي ذاكرة نشطة واختزال ممتاز وسرعة حازها بالتدريب

في العمل على الآلة الكاتبة مكّنته من إنتاج نسخة نظيفة من 1000 كلمة في نصف ساعة وحسب. وإضافة إلى ذلك جميعاً، كان ببساطة أفضل كاتب تصدير أنجبته الصحافة.

قليلة جداً هي المرات التي استخدم فيها مواهبه هذه في الأخبار الوطنية وأقل منها كانت في الأخبار الدولية. فإقليم برغر كان الذهاب والإياب، الإنجازات والإخفاقات في مدينته الأصلية، حيث كتب عن محاكمة سفاح ما، وعن موجة حرّ صيفية، وعن فرار أسد من السيرك، وعن تشييع المدينة لموتاها في الحرب. والحقّ أنّه كان المراسل الذي كرّس نفسه لمسقط رأسه، ومن حسن حظّه أن نيويورك هي مسقط رأسه، أغنى مصدر للأخبار على وجه الأرض. قضى برغر بالفعل حياته المهنية بأسرها بوصفه مراسلاً في النيويورك تايمز. ولكي يُبقي لنفسه معيناً لا ينضب من المادة الخام، كان رجال الدين وباعة الهوت دوغ والراهبات ومفتشو عربات الترام وأصحاب الهوايات والشواذ والمتعصبون ورجال الشرطة والمستخدمون جاهزين جميعاً ليأتمنوه على حكاياتهم. عندئذ، وكي يتوثق فحسب -مثل منقّب نزق يقلب كل صخرة على التلّة لئلا تفوت انتباهه شذرة ما- أمضى أيامه يطرق دروب المدينة الفرعية. يحمل دفتره بيده وآلة تصويره على كتفه، فيتوقف هنا وهناك ويتحدث إلى الناس ويصغي إليهم، وعندما ينعطف عند أقرب ناصية، يدوّن ذلك جميعه.

أبصر الرجل الذي قُدّر له في قابل الأيام أن يؤرخ حياة النيويوركيين، العاديين منهم والاستثنائيين، لأسرة مهاجرة فقيرة في الحي الشرقي الأسفل بتاريخ الأول من أيلول عام 1898. كان والده، تعود أصوله إلى جمهورية التشيك، خياطاً غير ناجح، وأدارت والدته محلّ سكاكر. أنجبا ما لم يقلّ عن أحد عشر طفلاً، ولذا، في سنّ الثامنة، خرج مايك إلى الشوارع يبيع الصحف؛ كي يسهم في دخل الأسرة. وعندما بلغ عامه الحادي عشر، عثر له والداه على عمل ليلي، وفي الثالثة عشر، أعلماه أنه لم يعد بمقدورهما تحمل نفقات إبقائه في نعيم وظيفة تافهة بدوام جزئي. بعد فصلين دراسيين وحسب في المدرسة الثانوية في القسم الشرقي لبروكلين، أُنهي تعليمه الرسمي على حين غرّة، وزُجّ بالمراهق الصغير برغر في عملٍ بدوام كامل.

وبفعل أعجوبة رائعة، كان عمله الليلي مراسلاً في النيويورك وورلد القديمة، يحمل النّسخ بين مكاتبها في بارك رو وبروكلين بأجر أسبوعي مقداره دولار ونصف. خلب لبّه منذ البداية الجوّ الضبابي والمبهم الذي ينطوي عليه إنتاج صحيفة. وبناء عليه، لم يكن إقناعه بمبادلة غرفة الصف بغرفة الأخبار بالأمر العسير؛ فقد ابتلع الطعم أصلاً. كتب يقول لاحقاً: «كنت أقف إلى جوار طاولة الطباعة الطويلة في مكتب الـ وورلد الكهفية العتيقة وأشاهد مباريات البوكر. هنا تشرّبتُ أسرار الحرفة كلّها، البائدة منها والمعاصرة. انتقلت إليّ عدوى الصحافة على هذا النحو، بفعل ضرب من التناضح». والرجال الذين علّموه دون دريةٍ منهم طواهم النسيان منذ أمدٍ بعيد وأسماؤهم هي بيغ بوب ماكنمارا وجاك مكارثي وبوك موران، وفي المدد بين إحضار القهوة وسندويشات الفاصولياء الحارة لهم من متجر ديوتي سميث أو البيرة الباردة من متجر ديكسون، أصغى برغر إلى حديثهم وتعلم منهم وتاق إلى أن يغدو كبيراً كفاية كي ينضم إليهم.

سنحت الفرصة أسرع مما تخيل. ففي يوم تشريني عام 1911، اتصل أحدهم بمكتب الصحيفة وورلد ليبلّغ عن أمر بالغ الغرابة قد حصل. قال إن رجلاً ثملاً يحتسي البيرة دنا من عربة تفاح في فولتون فيري في بروكلين وقال للبائع: «هل تقبل أن أتناول ما أقدر عليه من التفاح مقابل ربع دولار؟». ولأن ربع دولار كان يشتري في ذلك الحين عشرين تفاحة رأى البائع أن هذا عرض مربح بالفعل، فقبل. حدث ذلك في منتصف الصباح، وفي الثانية ظهراً، عندما ورد الاتصال إلى الصحيفة، كان الرجل لا يزال يأكل، وبدا على البائع بعض التوتر. وكما رواها برغر بعد قرابة عقود ثلاثة، تلفّت محرر أخبار المدينة حوله في غرفة الأخبار، ولما رأى أنه ليس ثمة مراسلون، استدعى المستخدم ذا الثلاثة عشر ربيعاً. «برغر، اذهب إلى فولتون فري واجمع قدر ما تستطيع من المعلومات عن رجل يقضم التفاح. احصل على الأسماء والعناوين جميعاً وأصغِ إلى ما يقوله الناس».

نطلق الفتى برغر مسرعاً، وقد سرت القشعريرة في جسده، لكنه دُهش لاهتمام صحيفة عظيمة بأمرٍ تافه كأكل التفاح. عندما وصل إلى المكان، وجد الرجل وقد توّردت وجنتاه، لكنه مستمر في أكل التفاح، يحفُّ به حشدٌ من الحمّالين على متن السفن وبعض عمّال المرفأ العاطلين عن العمل وقد أخذوا يشجعونه ويتراهنون. في السادسة مساء، كان قد أجهز على

التفاحة رقم 250، وعلا هتاف صغير، وتحرّك البائع الذي أفلس على نحو كارثي. «يتعين عليّ الذهاب الآن»، قال. بيد أن تذمراً جماعياً صدر عن عمال السفن المحتشدين يحثّه على التريث. كان الظلام قد خيّم تماماً عندما لاقت التفاحة رقم 257 مصير الأخريات جميعاً، وقام الحشد، كما كتب برغر، «بحمل البطل المنتفخ عبر ساحة التحميل إلى حانة في المرفأ». أسرع برغر عائداً إلى المكتب. كتب لاحقاً يقول: «دوّنت ذلك كله على ورقة. العدد النهائي، والأسماء، والعناوين، وما قاله الرجال. كما دوّنت ملحوظات دقيقة عن تغيّر الأضواء والمشاهد على النهر تكفي، كما أذكر، لأطروحة من 10000 كلمة عن أكل التفاح».

كان محرّر أخبار المدينة، المايجور نوريس أ. كلويس، الذي تدرّب على يدي العظيم جوزيف بوليتزر ذاته، كما كتب برغر «أبيض الشعر حكيماً». قال له: «لا، ليس عموداً. حاول ألا يزيد على عشرة أسطر». وهو ما فعله برغر، ومن ثم رأى صباح اليوم الثاني، عندما فتح أول نسخة من الـ وورلد وقعت يده عليها، أن أسطره التسعة قد اختُزلت إلى أربعة أو خمسة. «بدت وقد تغيرت تماماً، بيد أن قلبي كاد أن يفرّ من بين ضلوعي عندما رأيتها... التقطت عدوى الحبر ولم أتعافَ منها قطّ».

وشيئاً فشيئاً تزايد عدد الفقرات في الـ وورلد، وتشرّب برغر مزيداً من حكمة طاولة الطباعة، إلى أن دخلت الولايات المتحدة الحرب العظمى عام 1917 وحاول برغر البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً التطوّع. غير أنّ الجيش رفضه لضعف بصره، وكادت حياته المهنية العسكرية تنتهي عند ذلك الحدّ لو لم يحفظ عن ظهر قلب لوحة فحص العين. اجتاز برغر الفحص المعاد الآتي ولم يلبث أن كان في طريقه إلى فرنسا بوصفه رقيباً في الفرقة 10€ مشاة. وفي أثناء أشهر قليلة، فاز «المرفوض» الشديد النحول والمصاب بحسر النظر بوسامي النجم الفضي والقلب البنفسجي؛ لإسعافه الجرحى إلى الخطوط الأمريكية تحت القصف.

عندما عاد إلى نيويورك، استعادته على الفور الـ وورلد بصفته مراسلاً مُختصاً بأخبار الجرائم، وشرع يكشف عن موهبة في كتابة القصص الإخبارية بسرعةٍ عالية وبأسلوب قلّ نظيره لدى زملائه. ما أهّله لوظيفة شائعة آنذاك، نادرة في أيامنا هذه، هي وظيفة المنقّح الذي يعيد صياغة المواد الإخبارية لتغدو صالحة للنشر: أولئك الخيميائيون الغُفَّل الذين يحوّلون كلام البرقيات الذي يعوزه الترابط والانسجام أو كلام زملائهم الرتيب إلى ما

يرقى أن يكون شعراً مخالفاً للسائد. لم تلبث الإشاعات أن سرت عن الرجل الذي يكتب النثر الأنيق في الـ وورلد، ووظّفت وكالة ستاندرد نيوز برغر بصفته كبير المنقّحين لحساب مكتبها في بروكلن. وفي عام 1927، وضعت النيويورك تايمز عينها عليه، وعندما أنشأت الصحيفة قسماً للأخبار في بروكلين وكويتز مطلع العام الآتي، وظّفت برغر رئيسَ تنقيح. وشيئاً فشيئاً بدأ يوشّي روتينه اليومي ببعض المراسلة، ولم يستغرق وقتاً طويلاً لإثبات أن الأعوام التي قضاها كمنقّح يفكّك قصص الآخرين ويعيد بناءها على عجل لتصبح سلسة وجذابة، لم تذهب سدى. نُشِرت على نحو دائم سلسلة من القصص عن جرائم قتل رجال العصابات على طول ساحل بروكلين، وسرعان ما وجد برغر نفسه مراسل الصحيفة غير الرسمي المبتزّ.

بهذا الدور أرسلَتْه الـ وورلد إلى شيكاغو مطلع خريف عام 1931، كي يغطّي محاكمة آل كابوني بتهمة التهرّب من الضرائب. وبفضل عينه الثاقبة التي راقبت هيئة المحلفين والمتهم على حدّ سواء، وصف برغر جلسة الاستماع الأولى على النحو الآتي:

شيكاغو، 12 تشرين الأول –أعضاء هيئة المحلفين في محاكمة ألفونس كابوني في قضية التهرب من الضرائب– رجالٌ قرويون يكشفون عن عادات لباس بسيطة ولا مبالية نوعاً ما –زمّوا شفاههم في المحكمة الفدرالية هنا اليوم وهم يستمعون إلى شهود باعة لمصلحة الحكومة يصفون ما يرتديه رجل العصابات الأنيق وأذواقه في تصميم منزله وتزيينه وما يفضّله في المجوهرات والسيارات.

قمصان حريرية بسعر 30 دولاراً للواحد، وثياب داخلية بسعر 14 دولاراً للطقم، وبزّات بسعر 135 دولاراً للواحدة، وإبزيمات ماسيّة للأحزمة بسعر 275 للواحد (اشتراها بالدّستة)، وربطات عنق بسعر 5 دولارات للواحدة (اشتراها بالدّستة)؛ كانت بضع عينات عن ذوق السيد كابوني في السلع الرجالية والثياب المناسبة للأعمال اليومية.

سعر الواحدة من سياراته 12,000 دولار، وجاءت أسعار زجاجياته وفضياته مرتفعة، وكان التصميم الداخلي لمنزله مفرطاً في الأناقة، حيث عمل على اختيار الألوان والأقمشة بنفسه.

أصغى كابوني، شاحباً، وشارد الذهن أحياناً، إلى بوح هؤلاء الشهود بمصاريفه أمام العامة كما لو أن الأمر لا يعنيه؛ لكن عندما شرع أحد الباعة يصف قماش الثياب الداخلية النسائية الحريري امتقع لونه وتصاعد الدم إلى وجهه البدين وأضفى تكشيرة امتعاضٍ إلى جوقة الضحك التي أثارها الوصف.

وبعد أن مُهّد المسرح، انتقل برغر ليصف كيف جاءت إلى منصة الشهود سلسلة من البدعة والنساء؛ كي يحكوا عن أذواق كابوني المكلفة والبالغة الأناقة.

وأربعة قمصان بسعر 22.50 دولار للواحد؛ قميص واحد بسعر 30 دولاراً؛ ثلاثة قمصان بسعر 12 دولاراً للواحد؛ ثماني عشرة ياقة بسعر دولارين للواحدة؛ ست ياقات بسعر دولار للواحدة؛ أربعة وعشرون مونوغرام للأكمام بسعر 17 دولاراً.

سرت غمغمة خافتة عبر القاعة. ترك المحلّفان اللذان خلعا عنهما أسنانهما الصناعية شفتيهما العلويتين تنزلقان قليلاً إلى أسفل ذقنيهما دهشةً.

استذكر السيد آرل [بائع] بعض المشتريات الأخرى، طلبيات قمصان بسعر 22 أو 24 دولاراً للواحد، مزيد من الياقات بسعر دولارين للواحدة؛ مزيد من المونوغرامات، اشتراها كابوني جميعاً. كان برفقة أتباعه أحياناً. كذلك انتقى لهم قمصانهم وسدّد ثمنها، معلّماً صبيته كيف يجدر برجل أنيق أن يلبس.

وبينما أدلى آرل بشهادته، نقل كابوني من جانب إلى آخر قطعة سكاكر في فكّيه العريضين وحدّق إلى الفضاء. سرت على محيّاه نظرة بريئة براءة طفل.

وفي النهاية حلّ دور السيد أوليس، بائع الثياب الداخلية، الذي وصف بدقة بالغة لا يمكن سوى لشخص متحمّس أن يأتي بها، السراويل القصيرة -على الطراز الرياضي كما تعلمون- التي ابتاعها كابوني على نحو منتظم. أثار الضحك إصرار أوليس أنها كانت مصنوعة من «أفخر الحرير الإيطالي» وكانت «بالفعل ثياباً داخلية مناسبة تماماً».

شارك السيد كابوني في الضحك، ونظر حوله ليثبت للجميع أنه يضحك معهم، بيد أن الندبة التي تسم خدّه الأيمن وتمتد بعرض نصف إنش من صدغه حتى طرف فمه تآت حين تورّد وجهه.

بعد خمسة أيام، اكتملت الأدلة وحضر برغر إلى المحكمة ليصف نهاية عهد كابوني. كتب عن المدعي الفدرالي ج.ي.كيو. جونسون، وهو يختتم مرافعة الادعاء، «...صَمَتَ بين الجُمَل، في حين جرّد كتفي كابوني من عباءة الكرم والبراءة التي خلعها عليه البارحة محامي الدفاع...»؛ وقف المتهم ذاته في الممر بعد خروج هيئة المحلفين شأنه شأن حلاّق خرج لملاقاة صديقته. كان يبتسم، بيد أن ابتسامته كانت المكافئ للصفير المضطرب الذي يصدر عن شخص يمرّ في مقبرة...؛ وكتب عن رد فعل كابوني عندما تُلي الحكم بالذنب في خمس من الثلاث والعشرين تهمة:

يواجه كابوني عقوبة السجن سبعة عشر عاماً وغرامة تبلغ 50,000 دولار. لكن بدا كأنه لا يدرك ذلك، فهو لا ينفكّ يكشّر للجميع في قاعة المحكمة، يلفت الأنظار إليه بجسده المكتنز في بزّة من لون أخضر فاقع (واحدة من ذوات الـ 153 دولاراً). وما إن نُطِقَ الحكم حتى نهض عن كرسيه وركض بالفعل خارجاً من القاعة. اندفع بخطى متثاقلة عبر الممر المعتم، ودخل المصعد، وما إن وصل إلى الطابق الأرضي حتى اندفع خارجاً إلى سيارة كانت بانتظاره في الشارع. لم يستطع أحد إجراء لقاء معه.

رُشِّحت القصص التي أرسلها برغر من شيكاغو آنذاك لجائزة البوليتزر.

كانت مهمة برغر، في الجزء الأعظم من العقد الذي تلا، هي أن يتتبع صعود مشاهير القتلة في أمريكا وأُفُولَهم المفاجئ والمدوّي غالباً. فعندما هوى رجل العصابات آبي ريلس (أو دُفِع) من أحد الطوابق العلوية في فندق هَفْ مون، تسلل برغر إلى إفريز النافذة المقصودة ليصف ما سمعه ريلس ورآه وهو يترنّح على حافة الخلود. وكتب عن عمليات اغتيالهم (ألباني، 18 كانون الأول 1931 -اغتيل البارحة جاك (لِغز) دياموند في غرفة رخيصة، نفاية ما في العالم السفلي من ذخيرة بشرية)، وادّعى أمام دتش شولتز أنه رجل غير معجب اسمه بوزوِل (سيراغوزه، نيويورك، نيسان 1935 -قدَّم لنا هذا العصر لمحات موجزة إنما ليست شخصية من ماضيه...)، وأنجز عنه سيرة موجزة بلغة نقدية شجاعة (ذات مرة حشر شولتز برغر ذي النظارات في زاوية وسأله إن كان صحيحاً أن المراسل التقى شخصاً يقول إن رجل العصابات كان «خصماً سهل المكسر بالنسبة إلى أي شقراء». اعترف برغر، لذي ارتعد خوفاً بلا شك، بالأمر فدفع الرجل المسؤول عن جرائم في شتى أنحاء أمريكا

إلى التساؤل على نحوٍ موحٍ بأن سمعته قد شوّهت: «أي لغة هذه لكي تستخدمها في النيويورك تايمز؟»). وكان برغر حاضراً؛ كي ينعي شولتز عندما وقع المحترم عام 1935:

كان آرثر (دتش شولتز) فلفنهايمر، الذي قتله رجال مسلحون في نيوآرك، مجرد لص منازل وسارق بريد غير طموح وأخرق، إلى أن ركب موجة تهريب البيرة في أثناء الخطر ورفعته إلى القوة العظمى في إمبراطورية نيويورك الإجرامية.

شرع برغر يكتب قصصاً عن الناس العاديين أواسط عقد الثلاثينيات من القرن العشرين، وغدا ذلك اختصاصه في نهاية المطاف. هؤلاء الناس، الذين تصفهم في العادة عبارة «الشأن الإنساني»، السخيفة، هم غالباً ذريعة لبدايات كسولة وناعمة يتبعها فقرات تكاد تكون خاليةً من الحقيقة تغصّ بأقوال مفرّغة من المحتوى. لكن هذا لم يكن حالهم بين يدي برغر. عندما قضى، على سبيل المثال، موسيقي أعمى في قطار الأنفاق عام 1936، استهل برغر قصته بالقول:

الحاسة السادسة التي حفظت أوسكار إنغلش من الأذى طوال سني حياته القاتمة البالغة أربعاً وثلاثين خانته البارحة. خطوة واحدة كانت كثيرة جداً في ميدان يوتيون سكوير BMT، وانحشر، جثة هامدة، بين قطار متوجّه شمالاً والمنصة الإسمنتية.

لم تكن قصة كهذه في الحالة العادية مادّةً لما هو أكثر من خبر موجز، بيد أن برغر قصد ناحية بوزكويك من بروكلين، حيث عرف أن موسيقيين عمياناً عاشوا في مستعمرة صغيرة، وجمع بعضها إلى بعض بمساعدة جيران المتوفى، لم يجمع تفاصيل قصة آخر رحلة لأوسكار إنغلاند وحسب، وإنما قصة حياته التي قضاها في العزف لحساب أوركسترا كابيتول داتس، وقصة أسرته: زوجته ليلا (وهي عمياء أيضاً) وأولاده الثلاثة المبصرون. كانت الكتابة على هذا النحو هي ما أقنعت هارولد روس أن يمنحه عملاً في النيويوركر، لكن بعد أقل من عام واحد، لم يعد برغر يطيق صبراً على مقالات المجلّة الرتيبة والمطوّلة، وأسرع عائداً إلى ما في النيويورك تايمز اليومية من متابعة حية ومباشرة. وكان أن بقي فيها لما تبقى من حياته.

غدا الآن كاتب المنوعات الطليعي في الصحيفة، حيث غطّى المؤتمرات السياسية ومراسم تقليد الحكم للرؤساء الأمريكيين، وغطى بالفعل كل يوم من الأشهر الأربعة

المعرضَ العالمي في المدينة عام 1939، بل وغطى استعراضاً لنجوم «ذهب مع الريح» طاف شوارع أتلانتا. وفي عام 1942، أرسلته الصحيفة إلى لندن ليقوم بتغطية الغارات، لكن، بعد شهرين فحسب، وقع فريسة الحنين إلى الوطن، ولم تكن قرحته المعدية تساعده على الانسجام مع مخصصات الطعام. لذا، مثل جورج بايلي الحقيقي، لم يسافر أو يذهب إلى الحرب قطّ، بل تخلّف، بدل ذلك، ليغطّي ظهور بزّة زوت، وبيع سندات ليبرتي، وأخباراً محلية رئيسة من قبيل الحريق في السيرك الذي أزهق حياة 139 شخصاً في هارتفورد، كونيكتيكت في حزيران 1944 (انُتشِل 139 قتيلاً و174 مصاباً بحروق بالغة من تحت الأنقاض المتفحّمة للخيمة الرئيسة لسيرك رينلغ برازر وبارنوم وبايلي في هارتفورد هذا العصر بعد أن اجتاحت النيران طرفها المسور لتأتي عليها بطولها البالغ 250 قدماً -و لحق أن هذا نموذج عن الفقرة الافتتاحية الدقيقة والشاملة).

ومثل بايلي، عرف برغر الشهرة أيضاً -أمرٌ لا يتيّسر قوله عن كل صحفي موهوب. ولقد أُنجِز البورتريه خاصته الذي رسمه آنذاك أحد الزملاء في النيويورك تايمز بعاطفة ليست واضحة دوماً في معرض الإجلال والتقدير للزملاء الصحفيين:

> في المزاج، كان السيد برغر النقيض تماماً للشخص الأنيق والمتكلّف. اختار أن يجلس وسط الغرفة الكبيرة الخاصة بأخبار المدينة في الـ تايمز، تقاطعه بلا توقّف الاتصالات الهاتفية والزملاء المعجبون وتيار من الزوار -رجال شرطة، لصوص، حمالون، مصرفيون، أشخاص من جميع الأصناف. وكان بشخصيته تلك غير قادر على صرف أيّ واحد منهم، بغض النظر عن اشتغاله كثيراً. كان دمث الأخلاق، خجولاً، لطيفاً ودوداً تجاه الجميع طوال الوقت، حتى عندما نغّصت عليه قرحته واقترب الموعد الأخير للطبعة الأولى.

عندما وضعت الحرب أوزارها، كان برغر في النصف الثاني من أربعينياته، بيد أنّ أفضل أعماله لمّا يأتِ بعد. كان ما نظرت إليه صحيفته على أنه قصته الأروع هو عرض لعودة أول دفعة من قتلى الحرب إلى التراب الأمريكي في تشرين الأول عام 1947. حتى يومنا هذا، لا يوال لنثره المرصّن الحسّاس القدرة على جعل شعر رأس أشدّ المتشائمين يقف:

عادت إلى الوطن البارحة من أوروبا أول دفعة من قتلى الحرب. غرق المرفأ في سكينة السبت عندما جاؤوا مع المدّ الصباحي في 6248 نعشاً على متن سفينة الشحن جوزيف ف. كونولي. طاف أحد النعوش، وقد حُمِلَ من السفينة على متن عربة مدفع: شوارع المدينة على وقع الطبول وبرفقة استعراضات عسكرية بطيئة وإيقاعية، وأظهر له 400,000 نيويوركي على طول الطريق، وفي قدّاس تخليداً لذكراه في سنترال بارك، احترامهم وتقديرهم بصمت موقّر ودموع لم يستطيعوا إخفاءها.

وصف برغر اقتراب السفينة ومرافقاتها على مهل من رصيف المرفأ، وأطواق الورود التي رماها البحارة تصطفق بصفحة الماء، والمدفعية التي أطلقت إحدى وعشرين طلقة ترحيبية من على متن السفينة يو إس إس ميزوري من موقعها البعيد في عرض البحر، وانتظام مسيرة ستة الآلاف جندي التي رافقت النعش عبر مانهاتن إلى القدّاس في المتنزّه.

... ثم جاءت المسيرة الطويلة صعوداً في شارع الجادة الخامسة المرصوف. ثارت عاصفة الحشود التي تجمهرت عند الحاجز، وترك بعضهم دموعه تهمي على سجيتها؛ في حين مسحها بعضهم الآخر. رسم بعضهم علامة الصليب عندما مرت بهم عربة المدفع في الـ ميتروبوليتان تاور، قُرعت الأجراس وخيّمت أصداؤها المجلجلة فوق رؤوس المشاة. وفي شوارع الجادة الخامسة، عزفت فرقة نحاسية بأصوات مكتومة، إلى الأمام، بها الجنود المسيحيون،... وخارج المتنزه، عَصَرَ عامل نظافة مكنسته بيده اليسرى في حين ارتفعت اليمنى بالتحية عندما مرت العربة أمامه. لم يبتسم أحد، بل حدّق الجميع إلى عامل النظافة بكآبة، ثم أطرقوا رؤوسهم إلى صدورهم في تحية صامتة.

ثمّ في المتنزه:

... وبينما ساد الصمت المطبق، خيمت على الجو المشحون عاطفياً التوترات التي جلبها اللحن الجنائزي «دولور» حين عزفته فرقة فورت جاي بصوت مكتوم -ضربٌ من النحيب في الموسيقا. سلكت الفرقة وحرس الشرف المرافق من قوّات المظليين -رباً عريضاً معشوشباً بخطى بطيئة تفطر القلب. شرعت الدموع تهمي في كل مكان على المرج وكتمت النسوة نحيبهن.

في مقعد أمامي، وقفت إحدى النسوة، ثم مدّت ذراعيها وصرخت «جوني». علت الترنيمة وخفتت. وإذ خيّم الصمت مدة وجيزة، صاحت المرأة ثانية ها هو ولدي، ها هو ولدي. ضمّتها امرأة أخرى كانت تقف إلى جانبها بذراعيها مواسية، فكبتت صراخها، غير أن كتفيها ارتجفا انفعالاً.

وبعد أن وصف القداس، انتقل برغر إلى الفقرة الأخيرة:

وُضِعَ الكفن، ولمّا يزل ملفوفاً بالعلم، برفق على عربة المدفع ثانية. واتخذ حرس الشرف مكانه وراءه. تهادت السيارة المصفحة، وتمايلت العربة بعض الشيء ثم استقامت وتبعتُها. سارت على مهل نحو الجنوب خارج المتنزه في الأصيل تشيّعها فرقة الجيش الأمريكي بلحن حزين عذب لترنيمة «الجيش المتلاشي».

لم تتضمن القصة أي تعليق، أو أي إشارة على فرض رد فعل الكاتب على القارئ، أو أي اقتباس، سوى صراخ المرأة المفجوعة. يقول أسطورة الـ تايمز إنه عندما قرأ الناشر آرثر سولزبرغ القصة قبل طباعتها قال إنه لا يريد إيرادها على الصفحة الأولى. وعندما سُئل عن السبب قال إنها أبكته. وردت القصة في اليوم الثاني على الصفحة الأولى كما يجب، عبر أربعة أعمدة.

بعد عامين، جاء أعظم إنجازات برغر في المراسلة. ففي صباح يوم 7 أيلول 1949، بدأت ترد تقارير تفيد بوجود رجل مسلّح يطلق النار عشوائياً في كامدن، نيوجرسي. أُرسل برغر، وعندما وصل إلى الموقع كان متطوّع شاب في الجيش يدعى هوارد ب. أونرو قد أردى اثني عشر جاراً وعابر سبيل. وفي أثناء الساعات الست التي تلت، اقتفى برغر أثر أونرو في حين استمر هذا الأخير في قتله الناس في المباني المحيطة بمنزله شرق كامدن. أجرى برغر لقاءات مع خمسين شاهداً، من ضمنهم مدّعين عامّين أجروا أول لقاء مع القاتل بعد اعتقاله، ثم عاد إلى مكتب نيويورك، حيث جلس وكتب، في ساعتين ونصف فحسب، تقريراً من 4000 كلمة لأجل الطبعة الأولى، لم يغيّر فيه أي محرّر ولو كلمة واحدة. يقول التقرير في مستهله:

هوارد ب. أونرو، ثمانية وعشرون عاماً، جندي دمث الأخلاق حلو المنطق خاض معارك مدفعية مدرّعة كثيرة في إيطاليا، وفرنسا، والنمسا، وبلجيكا، وألمانيا، أردى اثني عشر شخصاً بواسطة تذكار من الحرب، مسدس لوغر، في الحي الذي يقع فيه منزله في شرق كامدن هذا الصباح، وجرح أربعة آخرين.

أونرو، شاب نحيل، غائر الوجنتين، يبلغ طوله ستة أقدام، كرّس نفسه لقراءة الكتاب المقدس والتدريب المتواصل على الأسلحة على نحو ينطوي على مفارقة غريبة، ليس لديه تاريخ سابق في الأمراض العقلية، غير أن المتخصصين أشاروا الليلة أنه ليس ثمة شك في أنه مريض عقلي، وأنه غُذّي سراً عقدة اضطهاد طوال عامين أو أكثر.

أصيب الجندي في فخذه الأيسر عندما أطلق عليه النار صاحب حانة محلية، بيد أنّه أبقى هذه الحقيقة سراً، أيضاً، ثم استجوبه رجال الشرطة وميتشل كوهين، المدعي العام في كامدن، في دائرة الشرطة لما ينوف على ساعتين مباشرة بعد أن أرغمته القنابل المسيلة للدموع على الخروج من غرفته والاستسلام. فضحت سره بقعة الدم التي خلّفها على مقعده في أثناء الاستجواب. وعندما جرى اكتشاف جرحه نُقِلَ إلى مشفى كوبر في كامدن بصفته سجيناً متهماً بالقتل.

بدا هادئاً حين خضع للاستجواب كما كان هادئاً حين أردى الرجال والنسوة والأطفال في أثناء عشرين دقيقة. قال للمدعي إنه كان يضمر على نحو متصاعد نقمة على جيرانه وعلى أصحاب المحال في الجوار منذ أمد بعيد. «كانوا يطلقون عليّ تعليقات ازدرائية تنتقص من قدري»، قال للمدعي. بدت نقمته منصبّة بأقوى صورها على السيد والسيدة موريس كوهين، اللذين قطنا المنزل الملاصق لمنزله. صارا بين الأموات الآن...

تعيد القصة بعدئذٍ بناء كل خطوة اتخذها القاتل بدءاً من الليلة السابقة على الجريمة: ليلته التي قضاها في السينما يشاهد مرّة تلو أخرى العرض المزدوج لفيلمي خدعتُ القاتلون وَالسيدة تقامر، الأوسمة والتذكارات العسكرية التي غصّت بها حجرة نومه، الأسلحة والذخيرة التي وضّبها قبيل مغادرة المنزل، التسلسل الدقيق لمهمته المميتة، قتلُ الإسكافي،

زوجة الخياط، الصبي في كرسي الحلاّق، الحلاق الصغير تومي هاملتون الذي صادف أن ظهر وجهه في إحدى النوافذ حين كان أونرو يحدّق إليها، عامل الصيانة في سيارته، ومن ثمّ أسرة كوهين:

...أسرع كوهين إلى شقته العلوية وحاول أن يحذّر ميني كوهين، 63 عاماً، والدته وروز، زوجته، 38 عاماً كي تختبئ. كان ابنه تشارلز، 14 عاماً، في الشقة أيضاً. دفعت السيدة كوهين الفتى في خزانة ملابس ثم اختبأت في خزانة أخرى، وأغلقت بابها عليها. في هذه الأثناء قفز الصيدلاني من النافذة على سطح شرفة، وأطلق أونرو النحيل النار على ظهر الصيدلاني الذي استمر في الركض هارباً على السطح وسقط ميتاً في شارع 32.

ثم أطلق أونرو النار على الخزانة حيث كانت السيدة كوهين تختبئ، فخرت صريعة وراء الباب المغلق ولم يكلّف أونرو نفسه عناء فتحه. حاولت السيدة ميني الوصول إلى الهاتف في غرفة نوم مجاورة لتتصل بالشرطة، غير أن أونرو أطلق على رأسها وجسدها فانبطحت على السرير مفارقة الحياة. نزل السلم وقد أعاد تلقيم مسدسه وخرج إلى الشارع ثانية.

تابع التقرير حتى وصل إلى العرض المفصّل للحصار القصير الذي انتهى باعتقال أونرو. كان ثمة وقعٌ منتظم في قصة برغر، إضافة إلى ذاك الضرب من التفصيل الذي لا يقدر على جمعه سوى مراسلٌ مجرّب يسأل الشهود دونما توقّف، وماذا حدث بعدئذٍ؟ «ليس ثمة اقتباس واحدٌ يذكر ما هو واضح في الجريمة» ولا حتى نصف جملة من رطانة الشرطة، ثم إن كلمات «صادم»، «مأساوي» أو «أنا» لا تظهر البتة. وقد كتب كل ذلك على الآلة الكاتبة بمعدّل 2000 كلمة في الساعة. نالت قصة برغر هذه جائزة البوليتزر ومكافأتها المالية البالغة 1000 دولار بجدارة، وقدم المال لوالدة أونرو الأرملة.

مراسلون كثر ممن يحملون على صدورهم وشاح البوليتزر يصرّون على حقّهم في تغطية القصص التي ترقى إلى مستوى عظمتهم الخاصة التي اكتشفوها حديثاً، أما برغر فكان راضياً بالعودة إلى عمله السابق. حيث غطّى إلقاء القبض على لصوص المصارف، وفرار أسد سيرك (فاز جاكي، وهو أسد سيرك فتي إنما كسول، بما يزيد على ساعة كاملة من

الحرية بفراره من قفصه في حديقة ميدان ماديسون، بيد أنه بدّدها بالتأمّل الحالم)، وطقس العطلة، والهزائم التي لحقت بفريق دودجرز، وبعض المحاكمات المهمة (جوي أدونيس، مقامرٌ ومبتزٌ أُحضِر من سجن ولاية نيوجرسي في ترنتون لكنه ظلّ مع ذلك الرجل الأكر أناقة في قاعة المحكمة، حوكم في المحكمة الفيدرالية البارحة بتهمة عدم احترام المحكمة).

عام 1953 استأنف عمود «عن نيويورك» الذي بدأه عام 1939، لكنه لم يلبث أن أُوقف آنذاك بسبب القيود التي فرضتها الحرب على الصحيفة. كان العمود انحرافاً عرضياً آنذاك، بيد أنّه الآن عموداً يتألف من 700 كلمة يُنْشَر ثلاث مرات أسبوعياً ويُعنَى بحدث خارج عن المألوف، أو شخص غريب الأطوار، في حياة نيويورك: مزرعة فرس النبي المصنّي الوحيدة في المدينة؛ الخبراء الذين يقع على كاهلهم عبء معرفة أي الشوارع قوية بما يكفي لتتحمّل أي مركبات في الاستعراضات العسكرية؛ الزوجان اللذان يحتفظان بخمس خلايا نحل على شرفة شقتهما في الطابق الرابع؛ سترلنغ هـ. بارلي، صياد الأرصفة الذي يتصيّد في فتحات التصريف المفاتيحَ والخواتم والفكّة وأشياء أخرى سقطت أسفل حواجزهما المشبّكة؛ المحترم جوزيف لينش، ومرسمات الزلازل خاصته التي تقيس تأثير الهزات الأرضية أو انفجارات الغاز البعيدة عن نيويورك؛ شركة النقل التي تنقل المقامرين إلى حلبات السباق (التي يعمل على تنظيف حافلاتها مقامر محترف حالفه الحظ)؛ سرب الآنسة دلفاين بتغر المؤلف من 500,000 ديك رومي وإوزّة؛ متجر سيغ كلاين للرجال المكتنزين في الجادة الثالثة (إحدى السلع التي عرضها المتجر بنطال يبلغ محيط خصره 74 إنشاً).

ولأجل هذا العمود جاب برغر شوارع نيويورك أيام إجازته، يجمع النوادر والطرائف، ويحدّق إلى واجهات المحال المثيرة الاهتمامَ، ويلتقط الصور ويصغي بطول أناة إلى أي شخص فرض عليه قصة حياته. وغالباً كان الدافع وراء ضروب البحث والتفتيش هذه اهتمام برغر الفطري بمدينته وأناسها، بيد أنَّ ما غذّاها، بطريقة أو بأخرى، هي الضغوط التي فرضها عليه إنتاج قصة، ثلاث مرات أسبوعياً، ترقى إلى مستوى المعايير التي وضعها بنفسه –وهي ذاتها الضغوط التي، إذا ما حرّره منها عمود انتهى من كتابته توّاً– جعلت هذا الفائز بالبوليتزر يقف، وهو في أواخر خمسينياته، على سطح طاولته ويذرع غرفة الأخبار قافزاً من طاولة إلى أخرى.

كان أحد أفضل مصادره للقصص سكان المدينة من الرومان الكاثوليك، الراهبات اللواتي أدرن مشفى في الشارع الحادي والسبعين شرقي. ففي مطلع عام 1959، سمع عن كهل أعمى منبوذ جرى قبوله في المشفى منذ مدة وجيزة. روى في عموده يوم 23 كانون الثاني كيف حمل الرجلَ على رواية قصته بلطف. كان اسمه لورنس ستروبتز، عزف كمان في أوركسترا سيمفونية قبل أعوام طويلة. وإذ كنّ معتادات على قصص طويلة كثيرة يرويها خرّيجو نُزُل بويري، ساور الراهبات الشك بالفعل حيال حديثه، لكن بعدئذ تذكّرت إحداهن أن ثمة كماناً عتيقاً في غرفة الأخت فرانسيس ماري، فجلبنها إليه. كتب برغر:

تلمّس لورنس ستروبتز طريقه إليها ومسّدتها أصابعه البيضاء الطويلة. صحّح أوتارها ببعض الجهد، وشدّ القوس العتيق، ثم رفعها إلى ذقنه... عزف «أرصفة نيويورك» على نحو صحيح لكن مرتعش.

كانت قبضة الأصابع أقوى في مقطوعة هاندل «لارغو»، وفي «هيومريسك» و«الدانوب الأزرق»، وقبل كل معزوفة غمغم الرجل الكهل باسم مؤلفها وهمهم الفواصل الموسيقية الافتتاحية؛ كي يأسر ثانية اللحن المنسي.

... احتشد بعض الجمهور في الممر المقشّب في حين تراقصت الألحان وخلخلت السكون الذي خيّم على المكان. غمغم لورنس ستروبتز لحناً آخر، لم تكد تسمعه الراهبات والممرضات، ثم عزفه بوضوح وثبات؛ كانت معزوفة غونود «السلام المَرْيَمِي».

نبست شفاه الراهبات بالصلوات، واختنقت أصواتهن بالعبرات. لم تسرق الأعوام الطويلة في نزل بويري لمسة لورنس ستروبتز... خبت الموسيقا وصفق الحضور، فانحنى عازف الكمان العتيق.

أضاف برغر فكرة متأخرة:

ستغمره النشوة من بإمكانه تقديم كمان يمكنه الاحتفاظ به ثانية.

وبعد أيامٍ ثلاثة كتب برغر:

قُدّمت ثمان كمنجات يوم أمس الأول إلى لورنس ستروبتز، عازف الكمان الأعمى البالغ من العمر اثنين وثمانين عاماً الذي نُقِل إلى مشفى القديسة كلير في الشارع الحادي والسبعين شرقي من نزل بويري. جاءت التقدمات من رجالٍ ونسوة كانوا قد قرؤوا أنه بقي بلا كمان مدة ثلاثين عاماً، على الرغم من أنه عزف في الماضي مع أوركسترا بتسبرغ السيمفونية.

الكمان الأولى التي وصلت المشفى كانت هدية من المنارة، المؤسسة التي ترعى العميان. أوصلها رجل أعمى، وأخذتها إحدى الراهبات إلى الرجل الثمانيني. عزف عليها بعض الوقت، بعاطفة ورقّة، ثم أعادها إليها وقال: «إنها كمان عتيقة وجيدة. قولي لصاحبها أن يعتني بها جيداً». فقالت الراهبة المتشحة بالبياض: «إنها كمانك سيد ستروبتز. خذها فهي هدية». عندئذ مال الكهل برأسه عليها وبكى.

كانت هذه من بين الكلمات الأخيرة التي كتبها برغر. فبعد أسبوعين على نشرها، أصيبت «مايك» برغر أزمة قلبية، وبعد أيام قليلة، قضى في مشفى يونيفرسيتي عن عمر يناهز 60 عاماً. ورد نعي مطوّل في اليوم الثاني، وصار أخيراً الرجل الذي نأى بنفسه عن القصص متعمّداً موضوعَ قصّة. في العام الآتي، وفي تصدير لمجموعة من أعمدة برغر «عن نيويورك»، كتب الناقد المسرحي المشهور في النيويورك تايمز، بروكس أتيكنسون، وهو نقش على ضريح يتطلع إليه كل مراسل بلا شك:

في سيرورة تبديده لنفسه خدمةً لموضوعه، وجد نفسه منتصراً أكثر مما اعتقده.